



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغلام



ارحم الراحمين
عليهم يا صابغ

www.ghaemiyeh.com
www.ghaemiyeh.org
www.ghaemiyeh.net
www.ghaemiyeh.ir

تفسير ملاحم الحكمة

تفسير

ملاحم الحكمة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير ملاحم المحكمات

كاتب:

محمد السند

نشرت في الطباعة:

باقيات

رقم الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
١١	تفسير ملاحم المحكمات
١١	اشاره
١١	اشاره
١٧	مقدمه المؤلف
١٩	تفسير سورة الحمد
١٩	اشاره
٢١	سوره الفاتحه (١): الآيات ١ الى ٧
٢١	اشاره
٢٢	بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ
٢٢	اشاره
٢٣	المقام الأول: أدله الجزئيه
٢٣	الدليل الأول:
٢٤	الدليل الثاني:
٢٥	الدليل الثالث:
٢٥	الدليل الرابع:
٢٩	الدليل الخامس:
٢٩	اشاره
٣٠	تذييل
٣٢	المقام الثاني: أسباب نزول الفاتحه
٣٢	اشاره
٣٣	نتف معانى سورة الحمد
٣٤	القراءه فى روايات أهل البيت عليهم السلام
٣٤	المقام الثالث: فضل سورة الفاتحه وأسمائها (موقعيتها)

٣٤	اشاره
٣٦	اعتراض وجواب
٤٠	مفاد البسملة اللغوى و الأدبى
٤٤	الزَّخْمِنِ الرَّجِيمِ
٤٤	اشاره
٤٦	لطيفه بديعه
٤٦	بحوث معرفتيه فى معانى البسملة
٤٧	قاعده: تغاير الأسماء مع الذات
٥٤	قاعده أن كل اسم فى الأصل اشتقاق وصفى
٥٥	قاعده فى مراتب التوحيد، ومراتب الصفات والأسماء
٥٦	قاعده فى كون الأسماء توقيفيه أو توقيفيه المعارف
٥٦	النقطه الأولى: توقيفيه الأسماء
٥٧	النقطه الثانيه: الاعتبار فى المعارف
٥٧	النقطه الثالثه: عموم المولويه فى المعارف
٥٨	النقطه الرابعه كيفيه العلاقه بين كاشفيه العقل وهدايه الوحي
٥٩	النقطه الخامسه وما استدلل على التوقيفيه فى الأسماء جمله من الأمور منها:
٦٢	قاعده ضابطه المثل والتمثيل
٦٥	الأسماء والتوسل
٦٩	نظام الأسماء الإلهيه فى عالم الخلقه
٧٠	إشارات اخرى فى البسملة
٧٣	الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
٧٣	معانى الحمد
٧٦	جامعيه الحمد
٧٧	المقارنه بين البسملة والحمد
٧٨	حقيقه الحمد و الحسن و القبح العقليين
٧٩	رَبِّ الْعَالَمِينَ

٧٩	اشاره
٨١	سز الخلقه
٨١	مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ
٨١	اشاره
٨٥	يَوْمِ الدِّينِ
٨٩	الدِّينِ
٩٢	إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ
٩٢	اشاره
٩٣	التوحيد في العباده والاستعانه
١٠٣	إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ - صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ
١٠٣	اشاره
١٠٧	الهدايه عنوان للإمامه
١٠٨	الصِّرَاطَ
١٢٤	الهدأيه و الضلال، و الإيمان و ظاهر الإسلام
١٢٥	المغضوب عليهم و المرضي عنهم
١٢٧	ظاهره التمذهب في عصر الرساله
١٢٨	الولاء و البراءه
١٣١	المنهج المعرفي و المنهج الجاهلي
١٣١	اشاره
١٣٣	سوره البقره (٢): الآيات ١ الى ٥
١٣٣	اشاره
١٣٣	الحروف المقطعه
١٣٧	ذَلِكَ الْكِتَابُ
١٣٧	اشاره
١٣٩	معاني الكتاب
١٤١	لا رَيْبَ فِيهِ

- ١٤١ اشاره
- ١٤٢ المعلم الأول: تجنّب الريب
- ١٤٥ هُدَى لِّلْمُتَّقِينَ
- ١٤٥ المعلم الثاني في هذه الجملة إشاره إلى قاعده والتوصيه الثانيه للنهج المعرفى عند القرآن
- ١٥٠ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ
- ١٥٠ المعلم الثالث: الإيمان بالغيب
- ١٥٦ المعلم الرابع: الهدايه وافتراقها عن عموم العلم
- ١٥٦ اشاره
- ١٥٩ الغيب والانتظار
- ١٦١ وَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ
- ١٦١ اشاره
- ١٦٢ المعلم الخامس: فى نهج المعرفه القرآنى شرطيه العباده فى قوه الإدراك والبصيره
- ١٧١ تكامل المعرفه الدينيه بين النقد التاريخى و تقليد السلف
- ١٧١ اشاره
- ١٧١ تفسير أول للآيه: التحريف الأموى لمعنى الآيه
- ١٧١ اشاره
- ١٧٢ قواعد مسؤوليته الموقف تجاه أعمال الأمم
- ١٧٢ القاعده الأولى: من أحبّ عمل قوم اشرك معهم، ومن أحبّ شيئاً حشر معه
- ١٧٣ القاعده الثانيه: مطلوبيته ورجحان حبّ المعروف على صعيد المحبّه القلبيه ولزوم الكراهه والنفره من المنكر على صعيد القلب
- ١٧٤ القاعده الثالثه: التوّلى والتبزى توسعه تعاليم القرآن الكريم إلى جميع الأمم السابقه
- ١٨٨ القاعده الرابعه: التحسين والتقيح التى تحكم بها فطره العقل البشرى
- ١٨٩ القاعده الخامسه: الصلوات فى مقابل اللعن
- ١٨٩ القاعده السادسه: لا يكمل إيمان عبد حتّى يحبّ فى الله، ويبغض فى الله
- ١٩٢ القاعده السابعه: التوّلى والتبزى، والتضامن والإدانه
- ١٩٦ تفسير ثانٍ للآيه: بطلان التقليد و ضروره الفحص و التحقيق
- ١٩٦ اشاره

- ١٩٩ عدم حجّته النهج السلفي
- ٢٠٠ توسعه معنى التقليد في القرآن
- ٢٠١ التدافع بين تفسيري الآية
- ٢٠١ وجوب التمهيص في سيره الأنبياء فضلاً عن غيرهم
- ٢٠٢ عدم حجّته سيره الأنبياء إلا بالتمهيص
- ٢٠٣ بطلان التقليد للتفكيك في حساب الأعمال
- ٢٠٣ والتفكيك في الوظائف والمسؤوليات
- ٢٠٤ جدليته تكامل المعرفة الدينيّة وبطلان التقليد للسلف
- ٢٠٤ بلوغ بعض أصحابهم عليهم السلام ذوره المعرفة
- ٢٠٦ المنهج التجريدي عن التقليدي
- ٢٠٧ المعرفة الدينيّة لا تقف عند حدّ
- ٢٠٨ تفسير ثالث للآية: الفخر المذموم و الممدوح
- ٢٠٨ اشاره
- ٢٠٩ تقييم هذا المعنى
- ٢١٠ إباده حقائق القرآن بتحريف معانيه
- ٢١٥ التشدّد و الترهّب و الرياضات غير المأثوره
- ٢١٥ اشاره
- ٢٣٥ الابتداء والسنن الحسنه
- ٢٤١ الانفاق بين العدل و الإحسان
- ٢٤١ اشاره
- ٢٤٣ و في السوره أبحاث:
- ٢٤٣ اشاره
- ٢٤٤ الأوّل: أسباب النزول
- ٢٤٦ الثانی: مقام عباد الله فوق الأبرار
- ٢٥١ الثالث: الميزان في الإنفاق
- ٢٥١ اشاره

- ٢٥٢ الأولى: تدلّ على مطلق الايثار
- ٢٥٣ الثانيه: ما يدلّ على التوسط في الإنفاق
- ٢٥٤ الطائفة الثالثه: وهي الجامعه بين اللسانين
- ٢٥٩ قاعده: العموم و الخصوص في الفضائل
- ٢٦٢ الجبهه الثانيه: الإيثار و إقامه العدل
- ٢٦٥ مقام أصحاب الأعراف
- ٢٦٥ اشاره
- ٢٦٧ ١ - مَنْ هم أصحاب الأعراف ؟
- ٢٧١ ٢ - أصحاب الأعراف: أصحاب المعرفة، وهم أهل البيت عليهم السلام
- ٢٧٤ ٣ - من مقومات الإمامه: الشهاده على الأعمال ومقام الأعراف
- ٢٧٨ ٤ - النبي صلى الله عليه و آله إمام الأئمه
- ٢٧٩ ٥ - أهل البيت الحكّام وولاه الحساب يوم الدين بإذن الله
- ٢٧٩ اشاره
- ٢٨٨ أصحاب الأعراف أئمه أصحاب الجتنه، والمستكبرون في الأرض أئمه أصحاب النار
- ٢٩١ إمامه الرسول الأعظم
- ٢٩٩ خلود القرآن الكريم
- ٣٠٤ عمومته موارد أسباب النزول
- ٣٠٥ أمومه مرجعته القرآن وشموليته
- ٣٠٩ ليله القدر واستمرار نزول القرآن
- ٣١١ تكرار أو تكرر السنن التاريخيه
- ٣١٣ البحث المنهجى في قراءات النصّ والنصّ القرآنى
- ٣١٥ نظام الإعلام سلطه و سلاح
- ٣١٥ اشاره
- ٣١٨ الإفك
- ٣٢١ المسؤوليته تجاه الإشاعه و إعلام السوء
- ٣٢٨ تعريف مركز

اشاره

عنوان و نام پدیدآور: تفسیر ملاحم المحکّمات / محمد السند

مشخصات نشر: قم: باقیات، ۱۴۳۰ق.=۲۰۰۹م.=۱۳۸۸.

مشخصات ظاهری: ۳۱۷ص.

وضعیت فهرست نویسی: در انتظار فهرستنویسی (اطلاعات ثبت)

یادداشت: الطبعة الاولى

شماره کتابشناسی ملی: ۲۰۳۹۲۸۱

ص: ۱

اشاره

بسم الله الرحمن الرحيم

ص: ٣

تفسير ملاحم المحكمات

محمد السند

ص: ٤

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاه والسلام على أفضل المبعوثين بالكتاب المهيمن، والهدى المبين، محمّد وعلى آله المصطفين، ورثه الكتاب.

وبعد:

فقد وُفق سبحانه لنشره في بحوث ودروس التفسير مع ثلّه من الأفاضل منذ سنة ١٤٢٧ هـ. ق، وكان منوال البحوث بالابتداء بسوره الحمد ثمّ سوره البقره، وهو النهج التفسيري التسلسلي المعتاد الذي قد يعبر عنه بالتفسير التجزيئي مقابل التفسير الموضوعي الذي يعتمد على وحده الموضوع والمفرده التفسيرية في جملة السور القرآنية ليستخلص الرؤيه القرآنية المتكامله حول ذلك الموضوع الموحد، والذي قد يصطلح عليه ب التفسير المفسر للقرآن واستعانته بالقرآن مع هدايه السنّه الشريفه.

ولكنّا اعتمدنا نهجاً آخر في ضمن النهج التسلسلي ليضفي على البحوث تنوعاً وحيويّه أكثر، وتلبيه لسجلات فكرية ساخنه في الساحة العلميّه والعامّه، وهو نهج تفسير الآيات المحكمات، وهو يغير كلّاً من التفسير التسلسلي التجزيئي والتفسير الموضوعي، ويمتاز عنهما في جملة من الخواصّ، وما رامه المفسّر الكبير العلامه الطباطبائي في تفسيريه: البيان والميزان من بلورته النهج التفسيري للآيات القرآنيه والذي ترشد إليه روايات أهل البيت عليهم السلام هو أشبه بالتفسير الموضوعي، بينما الذي يتراءى من تعليم وبيانات أهل البيت عليهم السلام في الروايات هو تفسير المحكمات، وامتيازاته باقتضاب الفارقه له عنهما هو:

أولاً: أنّ فيه يتوخى الآيات المحكمات المهيمنه على بقيه الآيات، فهو وإن اشترك

ص:٧

مع التفسير الموضوعى من ناحيه وحده المفرده، إلا أنه يختلف عنه من جهة توخى الموضوعه ذات الاستعلاء والاشراف على بقيه الموضوعات.

ثانياً: أن الآيات المحكمات لها امومه ومرجعيه لبقية الآيات والسور وسائر الآيات الأخرى التى هى لها مناسبة ما مع معناها، وإن اختلفت موضوعاتها.

ثالثاً: ضروره ملاحظه الكتاب كله كمنظومه واحده ذات ائتلاف وانسجام وتناسق فى منهج تفسير المحكمات، وهذا بخلاف التفسير الموضوعى المرسوم، فإنّ الوحده تلاحظ فى نطاق ضيق، وهو عنوان الموضوع فقط، وبيان هذه الملاحظه الوسيه هو عبر النظر إلى تداعيات الآيه المحكمه على بقية الآيات المحكمه، وكذا العكس، أى تداعى تلك الآيات على الآيه، فالنظر فى الترابط والرابطه فيما بينهما، وعبر النظر أيضاً فى طبقات مراتب هذه المحكمات كهزم أو سلاله متدرجه تهيمن على بعضها البعض.

وقد أشار جمله من الأفاضل إلى فائده نشر هذه الملاحم فى المحكمات كحلقات حتى يتسنى فيما بعد جمعها فى إصدار واحد، عسى أن تكون مورد فائده فى مسيره المعرفه بالقرآن العزيز.

كما أنّ هناك قواعد عديده فى اصول علم التفسير أو ما قد يصطلح عليه فى العلوم القرآنيه قد تمّ تنقيحها فى سلسله ندوات مستمره عسى أن نوفق لتحريرها فى القادم الآتى إن شاء الله تعالى.

٢٠ جمادى الثاني ١٤٢٩ هـ. ق

مولد الصديقه الشهيده عليها السلام

ص: ٨

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَا لَيْتُكَ يَوْمَ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ

الحمد لله منزل السبع المثاني والقرآن العظيم، الذي أرسل محمداً شاهداً ورحمةً للعالمين، صلى الله عليه وعلى آله المطهرين، الذين يمسنون الكتاب وهو كله آيات بينات في صدورهم، اوتوا رسوخ العلم بتأويله ويتلونه حق تلاوته.

وبعد، فإن سورة الفاتحه وأم الكتاب والسبع المثاني والحمد ذات الأسماء الجامعه هي برمتها من محكمات السور، وآياتها أم محكمات الكتاب، فمن ثم كانت مداراً للسور تحوم حولها، ومحكمها مركز محكمات الآيات، فإن الإحكام طبقات ودرجات شدة وضعفاً، فكما أن المتشابهات تعرض على المحكمات لاستبيان معانيها، فكذلك المحكمات تعرض على الأشد إحصاءاً فيها والأشد على أشد الأشد، وهلم جراً إلى أن تصل إلى أم المحكمات وهي أم الكتاب كمحور مركزي للمحكمات، فمن ثم كانت سورة الفاتحه عدل الكتاب كله وفاتحته وأمه ومجمع الأسماء وأعظمها والصفات وجمعها وهو الحمد.

ولذلك كان الابتداء بتفسيرها لازماً، سواء في المنهج التسلسلي أو الموضوعي أو نهج المحكمات، وقد احتوت على اصول العلوم والقواعد والمعارف القرآنيّة،

واستخرج من إشارات الألفاظ والتراكيب فيها جمل غير متناهيه من الأسس ولا زالت قوافل التفسير الخاصه بسوره الحمد تطالع الباحث القرآني جيلاً بعد جيل، فهناك جهات جمه غغيره من البحث في السوره، إلاأنا نقتصر على نبذه منها، وستدرك ما بقى في ضمن ملاحم تفسيريه اخرى للمحكات، إن شاء الله تعالى بالإشاره إلى مواضعها من آي السوره.

وفي البدء نتعرض إلى أهمّ جهه في السوره وهى آيه البسمله وهى فاتحه آيات سوره الفاتحه، وهى أعظم آيه في الكتاب، حيث جمع الكتاب في سوره الحمد، وجمعت سوره الحمد في آيه البسمله، كما ورد في الروايه الآتى ذكرها. فالبسمله اسٌ لأمّ الكتاب قد احتوت من مجامع أسرار الكتاب مقام جمع الجمع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إشاره

إنّ جملة من القراء نسب إليهم أنّهم لا- يقرؤون بالبسمله في بدايات السور(١)، فهذا ممّا يخذش في دعوى القطع بالجزئيه، والجواب: إنّ الرسم القرآني - كما مرّ - بنفسه دليل يقينيّ أخذه المسلمون يداً بيداً. وهذا الدليل يقيني لا- يناهضه بعض القراءات. لأنّها - وكما هو الصحيح - ثبوتها ظنيّ، فلا يدافع ما هو يقينيّ.

وقد يشكل بأنّ القراءات إذا كانت ظنيّه فكيف يؤخذ بها وتلصق بما هو يقيني وهو القرآن الكريم، وهذا الكلام يشمل المأثور من قراءه أهل البيت عليهم السلام ولماذا لا تجعل القراءه المتداوله في المصحف الشريف هى المتعيّنه دون

ص: ١٢

١- (١) كحمزه وخلف ويعقوب واليزيدى، إلّا القرطبي عن سجاده بن اللبان، عن مدين، والمعدّل إلّا السوسى من طريق ابن حبش والباقون - كقراء مكّه والكوفه - فإنّهم يفصلون بالبسمله التبيان: ١: ٢٤ ذيل البسمله في سوره الحمد، والزمخشري في ذلك الموضوع.

والجواب: إنّ القراءات رغم كونها ظنّيّة، فإنّ ما يعالج بها كيفيّة الاستظهار من آى القرآن الكريم، والقطع بصدور هذه الألفاظ من الوحي لا- ينافى كون عمليته الاستظهار بما تشتمل عليه من تحديد المعنى الاستعمالي ومدارج المعنى التفهيمي ومراتب المعنى الجدّي؛ هي عمليته ظنّيّة تعتمد على قواعد الأدب واللغة في كيفيّة الاستظهار، فالقراءات بمثابة قرائن ظنّيّة، إذا تمّ اعتبار تلك الظنون فيعول عليها في الاستظهار، ومنه يظهر أنّ القراءة الصوتية المتداولة بين المسلمين وإن كانت قطعّيّة، إلّا أنّ كيفيّة تلك القراءة من مواضع الوصل والفصل وغيرهما لتحديد كيفيّة الإعراب والصله ونحوها؛ ليست قطعّيّة.

وبعبارة اخرى: هناك مساحة يقينيّة في ألفاظ القرآن الكريم لا تتنافى مع وجود بعض المساحات الظنّيّة، ويكون منطلق المساحة الظنّيّة بعد المساحة اليقينيّة، ومن ثمّ بحث في علم اصول الفقه عن القراءات في ذيل حجّيته ظهور القرآن وحجّيته الظنون الخاصّة.

المقام الأوّل: أدلّه الجزئيّة

الدليل الأوّل:

التسالم بين المسلمين بنحو قطعّي يقينيّ جيلاً بعد آخر على تدوين البسملة في أوائل السور

، وهذا التدوين والرسم القرآني من أمتن منابع القطع بالمصحف الشريف بين المسلمين، ونظيره القراءة المحفوظة في الصدور جيلاً- بعد جيل ويدا بيد، فإنّهما أيضاً من منابع القطعيّة اليقينيّة لألفاظ القرآن الكريم، فإنّ هذه الكتابة المنقوشة للمصحف الشريف، والقراءة المحفوظة في صدورهم، كلّها قائمة على البدء بالبسملة في أوائل السور، وبإزاء هذا الدليل اليقينيّ لا ترفع

اليد لأجل احتمالات اقتراحية لا تناهض قوه هذا الدليل، ولا ترفع اليد عنه إلّا بدليل قوى بدرجته، ومن ثم وقع الإجماع القطعي بين الأمة على أنّ نسخ التلاوه لا يصار إليه إلّا بدليل قطعي، وذلك نظير نسخ الأحكام في الآيات، حيث لا يصار إليه إلّا بدليل قطعي، وما أشبه دعوى ومقاله عدم قرآنيته البسمله بنسخ التلاوه بل هي هي، ومن ثم نقل الفخر الرازي (١) عن أبي حنيفة تخوّفه في هذه المسألة، وأنّ الأؤلى السكوت عنها، والصحيح لزوم الإقرار بها والتعميه والإبهام، فإنّ مقتضى الأدله القطعيه الأخذ بها لا الصد عنها. وقد احتجّ ابن عمر كما في روايه البيهقي على جزئيتها بتدوينها في المصحف الشريف.

وفي روايه «مستدرك الحاكم النيسابوري» (٢) أنّ المهاجرين استنكروا على معاويه عدم الجهر بيسم الله الرحمن الرحيم في السوره في الصلاه بأنّه نقص من الصلاه.

الدليل الثاني:

التسالم بين المسلمين - قولاً وعملاً - على أنّ البسمله نزل بها الوحي في مطلع سوره الحمد

، وكذلك في مطلع كل سوره، وهذا تسالم مورده وجود البسمله في قناه الوحي فضلاً عن القرآن المدوّن والمحفوظ، والتكلف باحتمالات مبتدأه ومقترحه لا تناهض هذا التسالم، لا سيما أنّه صلى الله عليه وآله كان يتقيد بحرفيه ما في قناه الوحي حتّى أنّ لفظه «قل» في السور الأربع وغيرها، تقيد بها صلى الله عليه وآله كما جاءت في ألفاظ الوحي، لشده متابعتة صلى الله عليه وآله لعين ما اوحى إليه.

ص: ١٤

١- (١) التفسير الكبير: ذيل آيه البسمله في الفاتحه.

٢- (٢) المستدرك: ١: ٢٣٣. سنن البيهقي: ٢: ٤٩.

الدليل الثالث:

اتّفاق الإماميه

، حيث قال الشيخ في «الخلاف»^(١). دليلنا إجماع الفرقه، وقد بيّنا أنّ إجماعها حجّه، وقال في «التبيان»: «عندنا آيه من الحمد ومن كلّ سورة، بدلاله إتيانهم في المصاحف بالخطّ الذي كتب به المصحف...»^(٢).

وقد حكى الفقهاء في مبحث القراءة من كتاب الصلاه كلمات جلّ المتقدّمين ودعواهم الإجماع على أنّها آيه من كلّ سورة، وذلك كـ «نهايه الأحكام» و «السرائر» و «جامع المقاصد» و «المعتبر» و «الذكرى»^(٣).

الدليل الرابع:

الروايات المستفيضه

إن لم تكن متواتره عن أهل البيت عليهم السلام:

محمّد بن يحيى، عن أحمد بن محمّد، عن عليّ بن مهزيار، عن يحيى بن أبي عمران الهمداني، قال: «كتب إلى أبي جعفر عليه السلام: جعلت فداك، ما تقول في رجل ابتداءً ببسم الله الرحمن الرحيم في صلاته وحده في أمّ الكتاب، فلمّا صار إلى غير أمّ الكتاب من السوره تركها، فقال العباسي: ليس بذلك بأس.

فكتب بخطّه يعيدها مرّتين: علي رغم أنفه - يعنى العباسي -»^(٤).

ص: ١٥

١- (١) الخلاف: ١: ٣٣٠.

٢- (٢) التبيان: ذيل بسم الله الرحمن الرحيم من سورة الحمد.

٣- (٣) نهايه الأحكام: ١: ٤٦٢. السرائر: ١: ٢٢١. جامع المقاصد: ٢: ٢٨١. المعتبر: ٢: ١٨٨. ذكرى الشيعة: ٣: ٢٩٨.

٤- (٤) الكافي: ٢: ٣١٣، باب قراءة القرآن، الحديث ٢. الاستبصار: ٣١١، الباب ١٧٠، الحديث ٣.

محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن الحسين بن سعيد، عن القاسم بن محمد، عن صفوان الجمال، قال: «صليت خلف أبي عبدالله عليه السلام أياماً، فكان إذا كانت صلاه لا يجهر فيها جهر بيسم الله الرحمن الرحيم، وكان يجهر في السورتين جميعاً» (١).

وروى البيهقي عن أبي هريره: «كان رسول الله يجهر في الصلاه بيسم الله الرحمن الرحيم» (٢).

علي بن إبراهيم، عن محمد بن عيسى، عن يونس، عن معاوية بن عمارة، قال: «قلت لأبي عبدالله عليه السلام: إذا قمت للصلاه، اقرأ بسم الله الرحمن الرحيم في فاتحه القرآن؟

قال: نعم.

قلت: فإذا قرأت فاتحه القرآن، اقرأ بسم الله الرحمن الرحيم مع السوره؟

قال: نعم» (٣).

عن صفوان الجمال، قال: «قال أبو عبدالله عليه السلام: ما أنزل الله من السماء كتاباً إلّا وفاتحته بسم الله الرحمن الرحيم، وإنّما كان يُعرف انقضاء السوره بنزول بسم الله الرحمن الرحيم ابتداءً للأخرى» (٤).

عن أبي حمزه، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «سرقوا أكرم آيه في كتاب الله: بسم الله

ص: ١٤

-
- ١- (١) الكافي: ٣١٥:٢، باب قراءه القرآن، الحديث ٢٠. وسائل الشيعة: الباب ١١ من أبواب القراءه، الحديث ١.
 - ٢- (٢) السنن الكبرى: ٤٧:٢.
 - ٣- (٣) تفسير العياشي: ١٩:١، الحديث ٤.
 - ٤- (٤) الكافي: ٣١٣:٢، الحديث ١.

الرحمن الرحيم» (١).

وفى صحيحه عمر بن اذينه، والأحول، وسدير الصيرفي، والسدي، وهي كالمقطوع فى صدورهما، عن أبى عبد الله عليه السلام فى روايه المعراج المعروفه:

«فلما فرغ من التكبير والافتتاح قال الله عز وجل: الآذن وصلت إلى، فسم باسمى، فقال: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، فمن أجل ذلك جعل بسم الله الرحمن الرحيم فى أول كل سورة.

ثم قال: احمدنى، فقال: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)، وقال النبى صلى الله عليه وآله فى نفسه: شكراً.

فقال الله تعالى: يا محمد، قطعت حمدى، فسم باسمى، فمن أجل ذلك جعل فى الحمد (الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) مرتين.

فلما بلغ (وَلَا الضَّالِّينَ) قال النبى صلى الله عليه وآله: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ شكراً، فقال الله العزيز الجبار: قطعت ذكرى، فسم باسمى.

فقال: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، فمن أجل ذلك جعل (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) بعد الحمد فى استقبال السوره الأخرى، فقال له: اقرأ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) (٢).

عن يونس بن عبد الرحمن، عمّن رفعه، قال: «سألت أبا عبد الله عليه السلام:

وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٣).

قال: هى سورة الحمد، وهى سبع آيات، منها: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)،

ص: ١٧

١- (١) تفسير العياشى: ١: ١٩، الحديث ٥.

٢- (٢) الكافى: ٣: ٤٨٥، الحديث ١. علل الشرائع: ٢: ٣١٥، الباب ١، الحديث ١.

٣- (٣) الحجر ١٥: ٨٧.

وإنما سميت المثنى لأنها تُثنى في الركعتين»(١).

عن أبي حمزه، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «كان رسول الله يجهر ب (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) ويرفع صوته بها، فإذا سمعها المشركون ولوا مدبرين، فأنزل الله:

﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾(٢)»(٣).

عن عيسى بن عبد الله، عن أبيه، عن جدّه، عن عليّ عليه السلام، قال: «بلغه أنّ اناساً ينزعون (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) ، فقال: هي آية من كتاب الله، أنساهم إياها الشيطان»(٤).

وبإسناده عن محمد بن عليّ بن محبوب، عن العباس، عن محمد بن أبي عمير، عن أبي أيوب، عن محمد بن مسلم، قال: «سألت أبا عبد الله عليه السلام عن السبع المثنى والقرآن العظيم، أهي الفاتحة؟

قال: نعم.

قلت: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) من السبع؟

قال: نعم، هي أفضلهن»(٥) ..

موثقه هارون، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «قال لي: كتموا (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) فنعمة والله الأسماء كتموها.

كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا دخل إلى منزله واجتمعت عليه قريش، يجهر ب (بِسْمِ اللَّهِ

ص: ١٨

١- (١) تفسير العياشي: ١: ١٩، الحديث ٣.

٢- (٢) الإسراء ١٧: ٤٦.

٣- (٣) تفسير العياشي: ١: ٢٠، الحديث ٦.

٤- (٤) تفسير العياشي: ١: ٢١، الحديث ١٢.

٥- (٥) وسائل الشيعة: ٦: ٥٧، الباب ١١ من أبواب القراءة، الحديث ٢.

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) ويرفع بها صوته، فتولّى قريش فراراً، فأنزل الله عز وجل في ذلك:

(وَ إِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا) (١)، (٢).

ولا يخفى لطف مفاد هذه الرواية، فإنّها تشير إلى أنّ هذه الآية من سورة الإسراء ناصه على كون البسملة جزءاً من القرآن، وغيرها من الروايات (٣).

وقد يعترض بأنّ الترقيم في بقيه السور في تدوين المصحف ليس على جعل البسملة آيه مستقله.

والجواب: أولاً: إنّها مدوّنه في أوائل السور، كما أنّها مفصولة في ترتيب الجملة عن الآية التي تليها. غايه الأمر أنّ الترقيم لا يبعد أنّه حادث لا بمعنى أصل التعداد وإنّما بمعنى الفرز والترقيم.

ثانياً: إنّ غايه عدم الترقيم هو عدم استقلاليتها لا عدم جزئيتها للقرآن وللسور.

ويكفي في إثبات استقلاليتها الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام، فإنّ فرز الآيات من قبيل البحث في القراءات والوصل والفصل في تراكيب الآيات.

الدليل الخامس:

إشاره

إنّه قد تسولم على أنّ تركيب (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) هو من الوحي النازل من القرآن الكريم،

فهو ليس ترتيب وإنشاء بشري، بل تركيب وحياني، والأكثر عندهم أنّها من سورة الفاتحه، فإذا كزرت في بقيه السور، فلا محاله يكون

ص: ١٩

١- (١) الإسراء ١٧: ٤٦.

٢- (٢) الكافي: ٨: ٢٦٦، الحديث ٣٨٧.

٣- (٣) وسائل الشيعه: ٦ / الأبواب ١١ و ١٢ و ٢١ و ٢٥ من أبواب القراءه. مستدرک الوسائل: الباب ٨ من أبواب القراءه في الصلاه.

ذكرها هو ذكر لآيه قرآنيّه. غايه الأمر أنّه ذكر لآيه قرآنيّه من فاتحه الكتاب في بقيه السور.

وهذا يعزّز أنّها قرآنيّه أينما ذكرت. غايه الأمر أنّهم يدعون أنّها اقتباس من سوره الفاتحه، وأنّها تُكرّر في بقيه السور وأنّها ليست منها.

وهذا الاحتمال فيه من التكلّف ما يدفعه مقتضى التكرار من كونها بعض من تلك السور، ومن ثمّ تكون التيه عند قراءتها في مطلع كلّ سوره بتيه تلك السوره لا بتيه فاتحه الكتاب.

وهناك شواهد ودواعم كثيره على الجزئيّه يمكن أن يقف عليها المتأمل والمتدبّر، كالتأكيد على الجهار بها إعلاناً وإعلاماً بها، وكذلك ما ذكر لها من فضل عظيم وقدر كبير لا يتناسب إلا مع كونها آيه من القرآن العزيز، وكذلك ما ذكر لها من معاني عظيمه وشريفه دالّه على امومه هذه الآيه لما اشتملت من امّهات الأسماء والصفات للآيات الأخرى، لما اشتملت عليه من أسماء وصفات أخرى.

تذييل

يظهر من الروايات الوارده في سبب نزول قوله تعالى: (وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا) (١) فقد مرّت موثقه هارون عن أبي عبدالله عليه السلام أنّ قريشاً كانت تتحسّس من البسمله، والظاهر أنّها تعتبرها رمزاً للملّه.

وروى العياشي عن زراره، عن أحدهما عليهما السلام، قال في (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) قال: هي أحقّ ما جهر به فاجهر به، وهي الآيه التي قال الله تعالى:

و إذا ذكرت ربك في القرآن وحده - (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) - ولوا على

ص: ٢٠

أدبارهم نفورا».

كان المشركون يستمعون إلى قراءة النبي صلى الله عليه وآله، فإذا قرأ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) نفروا وذهبوا، فإذا فرغ منه عادوا وتسمّوا».

وفى روايه العياشى عن زيد بن على، قال: «دخلت على أبى جعفر عليه السلام فذكر بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فقال: تدرى ما نزل فى (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)؟ فقلت: لا.

فقال: إنَّ النبي صلى الله عليه وآله كان أحسن الناس صوتاً بالقرآن، وكان يصلّى بفناء الكعبه، فرفع صوته، وكان عتبه بن ربيعه وشيبه بن ربيعه وأبو جهل بن هشام وجماعه منهم يسمعون قراءته قال: وكان يكثر قراءه (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) فيرفع بها صوته.

قال: فيقولون: إنَّ محمّداً ليردّد اسم ربّه تردداً إنّه ليحبّه، فيأمرون من يقوم فيستمع إليه ويقولون: إذا جاز (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) فأعلمنا حتّى نقوم فنستمع قراءته، فأنزل الله فى ذلك: (وَ إِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى الْقُرْآنِ وَحِيدَهُ - بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ - وَلَوْ أَعْلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا)».

فيظهر من هذه الروايات شدّه تحسيس قريش من البسملة، كيف لا وهى شعار المله، وفتاحه الوحى النازل من السماء، والقصيه معروفه فى صلح الحديبيه فى الكتاب الذى كتب بين النبي صلى الله عليه وآله وقريش، حيث مانعوا من كتابه «البسملة» إلى كتابه «بسمك اللهم».

وفى بعض الروايات أنّ هذا التحسيس بقى فى جملة من قريش، حيث روى العياشى عن منصور بن حازم، عن أبى عبد الله عليه السلام، قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا صلّى بالناس جهرب (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، فتخلف من خلفه من

المنافقين، فإذا جازها في السوره عادوا إلى مواضعهم، وقال بعضهم لبعض: إنه ليردد اسم ربه تردداً، إنه ليحب ربه، فأنزل الله: (وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا) «(١)».

فيظهر منها أنّ المنافقين كان لديهم نفس النفور الذي كان لدى قريش، وذكر الفخر الرازي في تفسيره أنّ علياً عليه السلام كان يبالي في الجهر بالتسميه، فلما وصلت الدوله إلى بنى اميه بالغوا في المنع من الجهر سعيّاً في إبطال آثار عليّ عليه السلام، فلعلّ أنساً خاف منهم، أي حينما سئل عن الجهر ب (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) ، حيث اضطرت الروايه في أقواله فيه.

وفي تفسير عليّ بن إبراهيم، عن ابن أبي اذينه، قال: «قال أبو عبد الله عليه السلام:

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) أحق ما جهر به، وهي الولاية التي قال الله عزّ وجلّ:

(وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا) «(٢)».

وهذه الروايه تشير إجمالاً إلى منشأ تحسس المشركين وقريش من البسملة، وإلى منشأ بقاء تحسسهم تجاهها بعد إسلامهم أيضاً، وسيأتي في معنى البسملة ما يمكن أن يكون تفسيراً لذلك.

المقام الثاني: أسباب نزول الفاتحه

إشاره

قد تعرّضت جملته من الآيات لسوره الحمد، منها ما مرّ من قوله تعالى في سوره الإسراء: (وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا) «(٣)».

ص: ٢٢

١- (١) تفسير العياشي: ٢: ٢٩٥، الحديث ٨٧.

٢- (٢) تفسير عليّ بن إبراهيم: في ذيل سوره الحمد.

٣- (٣) الإسراء ١٧: ٤٦.

وكذلك قوله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ) (١).

وقوله تعالى: (وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ) (٢).

وقد ظهر ممّا مرّ من الروايات في جزئيه البسملة أنّ السوره نزلت في مكّه، وأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان يقرأ بها في صلاته. ولا يبعد ظهور تلك الروايات أنّها نزلت في أوائل البعثة، ولا سيّما أنّها تشي في الصلاه.

وروى الكليني في «الكافي» عن فرات بن أحنف، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «سمعتَه يقول: أوّل كلّ كتاب نزل من السماء بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» الحديث (٣).

ومقتضى هذه الروايه أنّ أوّل آيه نزلت في القرآن الكريم هي البسملة.

نتف معانى سوره الحمد

ما روى في «عيون أخبار الرضا عليه السلام» عن الاسترآبادى عن العسكرى، عن آباءه، عن أمير المؤمنين عليهم السلام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله عزّ وجلّ: قسّمت فاتحه الكتاب بينى وبين عبدى، فنصفها لى، ونصفها لعبدى، ولعبدى ما سألت» (٤).

وهذا بيّن أنّ في سوره الحمد دلالة على آداب وناموس الدعاء بأن تبدأ فيه بالثناء على الله عزّ وجلّ، ثمّ يسأل العبد مسألته، وسيأتى أنّ من أعظم مسائل العبد الهدايه إلى ولايه أولياء الله والبراءه من أعدائه.

ص: ٢٣

١- (١) الحجر ١٥: ٨٧.

٢- (٢) الزخرف ٤٣: ٤.

٣- (٣) الكافي: ٣: ٣١٣، باب قراءه القرآن، الحديث ٣.

٤- (٤) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ١: ٣٠. أمالى الصدوق: ٢٣٩، الحديث ٢٥٣.

روى القمى فى الصحيح الأعلائى عن حرىز، عن أبى عبد الله عليه السلام: «أته قرأ (اهدنا الصراط المشرق صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين)»، الحديث (١).

وقد أشار إلى ذلك الطبرى فى «مجمع البيان» (٢).

المقام الثالث: فضل سورة الفاتحه وأسمائها (موقعيتها)

أشاره

روى السيارى فى كتاب التنزيل والتحريف عن أبى عبد الله الحسين عليه السلام فى قوله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ) (٣): (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) هو اسم الله الأكبر، والسبع المثنائى أم الكتاب، يثنى بها فى كل صلاة (٤).

وروى السيارى عن على بن الحكم، عن محمد بن فضيل، عن سعد بن عمر الجلاب، قال: «سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله جل ذكره: (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ)، قال: فاتحه الكتاب.

قلت: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ منها؟

قال: هى أفضلها لفضل منها (هى أفضل منها) (٥).

ص: ٢٤

١- (١) تفسير القمى: ٢٩:١.

٢- (٢) مجمع البيان: ١٠٥:١، ذيل تفسير: (صراط الذين أنعمت...).

٣- (٣) الحجر ١٥:٨٧.

٤- (٤) مستدرک الوسائل: ٤:١٥٧، أبواب القراءه فى الصلاه، الحديث ٢.

٥- (٥) مستدرک الوسائل: ٤:١٦٨، الباب ٨ من أبواب القراءه فى الصلاه، الحديث ١٥.

روى الصدوق في «العيون» و «الأمالى» كما روى في تفسير العسكرى عن المفسر الاسترآبادى، عن العسكرى عليه السلام، عن أمير المؤمنين عليه السلام - فى حديث - قال: «قيل لأمير المؤمنين عليه السلام: يا أمير المؤمنين، أخبرنا عن (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) أهى من فاتحه الكتاب؟

فقال: نعم، كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقرأها ويعدها آية منها، ويقول: فاتحه الكتاب هى السبع المثانى... فضلت ب بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وهى الآيه السابعة منها»(1).

وروى الصدوق أيضاً فى «العيون» و «الأمالى» عن الاسترآبادى، عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «إِنَّ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ آية من فاتحه الكتاب، وهى سبع آيات تمامها بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول:

إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، وَ لَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ، فأفرد الامتنان على فاتحه الكتاب، وجعلها بأزاء القرآن العظيم، وأن فاتحه الكتاب أشرف ما فى كنوز العرش، وأن الله عز وجل خص محمداً وعترة بها ولم يشرك معه فيها أحداً من أنبيائه ما خلا سليمان، فإنه أعطاه منها (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ).

ألا- ترى أنه يحكى عن بلقيس حين قالت: (إِنِّي أُلْقِي إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مَوْزٌ سُلَيْمَانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) (2)»(3).

بيان: إن أهميه تبيان فضائل السوره أو أى سوره، هو لبيان موقعيه تلك السوره التى تمتاز بها من بين بقية السور فى القرآن الكريم، ولا سيما أن كل سوره

ص: ٢٥

١- (١) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢: ٢٧٠، الحديث ٥٩. أمالى الصدوق: ٢٤٠، الحديث ٢٥٤.

٢- (٢) النمل ٢٧: ٢٩ و ٣٠.

٣- (٣) التفسير المنسوب للإمام العسكرى عليه السلام: ٢٩. عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢: ٢٧٠، الحديث ٥٩. أمالى الصدوق: ٢٤١، الحديث ٢٥٥.

ترسم وتأخذ موقعيه من مواقع ومنازل القرآن الكريم بعد كون القرآن ذو منازل ومقامات تكويته، وسيأتي تفصيل ذلك لاحقاً، والمتحصّل من الآيات والروايات السابقه عدليه سورة الفاتحه لكل الكتاب العزيز، ممّا يشير إلى جمع الكتاب العزيز كله فيها، وهذا ما يشير إليه تسميتها بأَمّ الكتاب، أى أصله، ومن ثمّ لا يبعد أنّها تمثّل منزله الكتاب العزيز فى موقع امّ الكتاب فى قوله تعالى:

(يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتْ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) (١)، فهى منزله من ذلك الموقع، كما أنّ هذا يعطى أهمّيه لموقعيه الفاتحه كمحور مهيمن فى دلالتها ومؤدّياتها على سائر السور القرآنيه، وكما أنّ المحكمات لها امومه على المتشابهات، وتعطف المتشابهات على المحكمات، وكذلك بقيه السور، لا بدّ أن يعطف مؤدّاها على مؤدّى سورة الفاتحه كمحو لها، وهذا ممّا يعطى أهمّيه الخوض فى مفاد هذه السوره أو معانيها ونتفها وإشاراتها ولطائفها.

كما أنّ ذلك الموقع مقدّر للبسمله أيضاً، فإنّه إذا كانت البسمله أفضل آيات السوره فيعطى ذلك ما اشتهر من أنّ ما فى الفاتحه مجموع فى البسمله. وهذا مؤكّد بما مرّ فى جزئيه البسمله من كونها أعظم آيه فى القرآن.

اعتراض وجواب

وقد يعترض بأنّه قد روى أنّ سورة الفاتحه ممّا اختصّ الله بها نبيّه محمّداً وعترته، حيث أنّهم ورثوا الكتاب بعده، ولم يعط الله أحداً من أنبيائه، إلّا سليمان، فأعطاه منها البسمله، وحينئذٍ إذا كانت البسمله جامعاً لسوره الفاتحه، وسوره الفاتحه جامعاً للقرآن، فقد اعطى القرآن لسليمان، لا سيّما

ص: ٢٦

وَأَنَّ الْقُرْآنَ مِمَّا اخْتَصَّ اللَّهُ بِهِ سَيِّدَ الْأَنْبِيَاءِ.

الجواب: إِنَّ لكلِّ سورة وآية مدارج من البطون ومنازل ومواقع متعدّده كثيره، بل هذا هو حال الكثير من الأشياء، فضلاً عن القرآن الكريم، فإذا اعطينا منزله من تلك المنازل النازله فلا يعنى ذلك إعطائه كلّ المنازل، ولا سيّما أعلاها، كما سيأتى فى سورة البقره من الفرق بين تعليم الله اللدنى الإيتائى الأسماء لآدم، وتعليم آدم الأسماء للملائكه الإنبائى، فإنّه فرق شاسع بين التعليم اللدنى للشىء، وبين الإنباء بذلك الشىء، ومن ثمّ لم يصل الملائكه إلى مقام آدم بعد إنبائهم بالأسماء.

روى الصدوق فى «ثواب الأعمال» عن البطائنى، عن أبى عبد الله عليه السلام، قال:

«إِنَّ اسْمَ اللَّهِ الْأَعْظَمَ مَقْطَعٌ فِي أَمِّ الْكِتَابِ» (١).

ورواها العياشى فى تفسيره (٢).

وروى الصدوق فى «العيون» بإسناده إلى محمّد بن سنان إلى الرضا عليه السلام، قال:

«إِنَّ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) أَقْرَبُ إِلَى اسْمِ اللَّهِ الْأَعْظَمِ مِنْ سَوَادِ الْعَيْنِ إِلَى بِياضِهَا» (٣).

وروى الشيخ فى «التهذيب» بسنده عن الكاهلى، عن أبى عبد الله عليه السلام، عن أبيه عليه السلام، قال: «(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) أَقْرَبُ إِلَى اسْمِ اللَّهِ الْأَعْظَمِ مِنْ نَاضِرِ الْعَيْنِ إِلَى بِياضِهَا» (٤).

ص: ٢٧

١- (١) ثواب الأعمال: ١٣٠، ثواب قراءه سورة الفاتحه.

٢- (٢) تفسير العياشى: ١: ١٩، الحديث ١.

٣- (٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ١: ٩، الحديث ١١.

٤- (٤) التهذيب: ٢: ٢٨٩، الباب ١٥، الحديث ١٥.

وروى العياشى عن سليمان الجعفرى، قال: «سمعت أبا الحسن عليه السلام - فى حديث - أنه قال عليه السلام: «وأئى آيه فى كتاب الله أكرم من (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)» (١).

ولكن فى «بحار الأنوار» روى عن العياشى: «وأئى آيه فى كتاب الله أعظم؟

فقال: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)» (٢).

وروى السيد ابن طاووس فى «مهج الدعوات» بإسناده إلى محمد بن الحسن الصفار من كتاب فضل الدعاء، بإسناده إلى معاوية بن عمّار، عن الصادق عليه السلام، قال: «(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) اسم الله الأكبر - أو قال: الأعظم» (٣).

وقد تقدّمت الإشارة إلى روايه «تفسير القمى» عن ابن اذينه من كون البسملة هى الولاية، وسيأتى التعرّض لذلك فى معنى الآية.

بيان: وهذه الروايات اللاحقه أيضاً تدعم انطواء القرآن فى الفاتحه وأومتها له، كما تدعم أفضلية البسملة فى الفاتحه.

وروى الصدوق فى «الأمالى» بسنده عن الحسن بن علىّ عليه السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله فى ثواب من قرأ الفاتحه، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من قرأ فاتحه الكتاب أعطاه الله بعدد كل آيه نزلت من السماء فيجزى بها ثوابها» (٤).

وفى «تفسير القمى»: عن أبى بصير، عن أبى عبد الله عليه السلام: «إنّ قوله تعالى:

ص: ٢٨

١- (١) تفسير العياشى: ١: ٢١، الحديث ١٤، وفيه: «أعظم» بدل «أكرم».

٢- (٢) بحار الأنوار: ٢٣٨: ٩٢، الحديث ٣٧.

٣- (٣) مهج الدعوات: ٣١٦.

٤- (٤) أمالى الصدوق: ١١٧.

وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ (١) إشاره إلى فاتحه الكتاب، حيث إنها أم الكتاب» (٢).

وروى القمّي في تفسيره في الموثق عن عليّ بن عقبه، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «إنّ إبليس رنّ رنيناً لما بعث الله نبيّه على حين فتره من الرسل، وحين انزلت أم القرآن» (٣).

وروى البرقي في «المحاسن» بطرق عديده عن أبي عبد الله عليه السلام، قال:

«إذا توضأ أحدكم ولم يسمّ كان للشيطان في وضوئه شرك، وإن أكل أو شرب أو لبس وكلّ شيء صنعه ينبغي له أن يسمّى عليه، فإن لم يفعل كان للشيطان فيه شرك» (٤).

ورويت روايات متعدّده أنّ نسيانها يوجب الحوبه.

وروى الشعراني في «لطائف المنن» عن عليّ بن أبي طالب رضی الله عنه، وكترّم وجهه أنّه كان يقول: «لو شئت لأوقرت لكم ثمانين بعيراً في معنى (الباء)» (٥).

وروى القندوزي الحنفي في «ينابيع المودّه»، قال ابن عبّاس: «أخذ بيدي الإمام عليّ ليله فخرج بي إلى البقيع، وقال: اقرأ يا ابن عبّاس، فقرأت (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، فتكلّم في أسرار الباء إلى بزوغ الفجر» (٦).

ص: ٢٩

١- (١) الزخرف ٤:٤٣.

٢- (٢) تفسير القمّي: ١: ٢٨.

٣- (٣) تفسير القمّي: ٢٩، وفي نسخه: «أمّ الكتاب»، كما هي في روايه الصدوق في الخصال: ٢٦٣، الحديث ١٤١.

٤- (٤) المحاسن: ٢: ٤٣٠، الحديث ٢٥٢. وسائل الشيعه: ١: ٤٢٦، الباب ٢٦ من أبواب الوضوء، الحديث ١٢ و ١٣.

٥- (٥) لطائف المنن: ١: ١٧١. تفسير البصائر: ١: ١٨٧.

٦- (٦) ينابيع المودّه للقندوزي: ٤٠٨.

وروى هو أيضاً عن «الدرّ المنظوم»: «أنّ جميع أسرار الكتب السماويّه فى القرآن، وجميع ما فى القرآن فى الفاتحه، وجميع ما فى الفاتحه فى البسمله، وجميع ما فى البسمله فى باء البسمله، وجميع ما فى البسمله فى النقطة التى هى تحت الباء.

قال الإمام عليّ كرم الله وجهه: أنا النقطة التى تحت الباء»(١).

وروى عن جعفر الصادق رضى الله عنه أنه قال: «البسمله تيجان السور»(٢).

مفاد البسمله اللغوى و الأدبى

ف قيل فى الاسم أنّه من (السمه) و (الوسم) وهى العلامه، ومنه وسيم، وإلى هذا يشير ما رواه الصدوق فى «التوحيد» عن الرضا عليه السلام، قال: «سألت الرضا عليّ بن موسى عليه السلام عن بِسْمِ اللَّهِ، قال: معنى قول القائل (بِسْمِ اللَّهِ) أى السمو على نفسى سمه من سمات الله عزّ وجلّ، وهى العباده.

قال: فقلت له: ما السمّه؟

فقال: العلامه»(٣). (٤)

ص: ٣٠

١- (١) ينابيع المودّه: ٤٠٨، ورواه السيّد نعمه الله الجزائرى فى كتابه «نور البراهين فى شرح توحيد الصدوق» فى باب معنى البسمله أنّه قد ورد فى الأثر عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ كلّ العلوم فى الكتب الأربعة وعلومها فى القرآن، وعلوم القرآن فى الفاتحه، وعلوم الفاتحه فى بسم الله الرحمن الرحيم، وعلومها فى الباء من بسم الله». قال: وفى أخبارنا أنّه عليه السلام قال فى آخر الحديث: «وأنا النقطة تحت الباء».

٢- (٢) تفسير القرطبى: ١: ٩٢.

٣- (٣) التوحيد: ٢٢٩.

٤- (٤) وروى الصدوق فى «معانى الأخبار» بسنده عن ابن سنان، قال: «سألت أبى الحسن -

وروى الصدوق عن العسكري في قول الله عز وجل: بِسْمِ اللَّهِ «أى أستعين على امورى كلها بالله الذى لا تحقّ العباده إله» الحديث (١).

استدراك: «وقيل: الباء بمعنى الإلصاق أو المصاحبه، وقيل: إنه متعلق بأفتح فجعل المقدر بالباء أستعين أو أتبرك.

وقيل: إنه من (السمو) أى العلوّ والارتفاع على وزن (أفع)، لأنّ الاسم تنويه وذكر ورفع، فإنه إذا ذكر الاسم سبب رفعه للمسمى بذكره وتنويهه.

ومن ثمّ يقال: (سَمِيْتُ).

ويحتمل أنّ أحدهما مقلوب من الآخر... ومقتضى الأصل فى الاستعمال جواز إرادته كلّ من المعنيين كما أنّ مقتضى الفائدة فى الاستظهار استفادة كلا المعنيين لا سيّما فى باب التأويل، كما ورد نظير ذلك فى تعليم النّبى الاستظهار من معنى (وَ اتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا) (٢)، حيث حمل معنى الخليل على كلّ من (الخلّة والخلّة) (٣).

أمّا لفظ الجلاله، قيل: إنه علم للذات المقدّسه الجامعه لجمع الكمالات، المنزّه عن النقائص.

ص: ٣١

١- (١) التوحيد: ٢٣١.

٢- (٢) النساء: ٤: ١٢٥.

٣- (٣) الاحتجاج: ١: ١٩. وروى عن أمير المؤمنين عليه السلام عن حديث أبى الأسود: «الاسم ما أنبأ عن المسمى». بحار الأنوار: ٤٣: ١٦٢.

وقيل: إنه مشتق من ال (إله) وهو من الوله.

وقيل: إن (أله) من السكون أو الاحتجاب.

وروى الصدوق في «التوحيد» عن العسكري عليه السلام: «اللّه قال هو الذى يتأله إليه عند الحوائج والشدائد كلّ مخلوق عند انقطاع الرجاء من جميع من هو دونه، وتقطع الأسباب من كلّ من سواه» (١).

وفى روايه الكليني عن الصادق عليه السلام، عن هشام بن الحكم أنّه سأل أبا عبد الله عليه السلام عن أسماء الله واشتقاقها، الله ممّا هو مشتقّ؟

قال: فقال لى: يا هشام، الله مشتق من (إله) والإله يقتضى مألوهاً... الحديث (٢).

وقيل: مشتق من (لاه) وهو الشىء المرتفع.

وقيل: وله من تحيّر.

وقيل: (لاه) بمعنى احتجب، وألّهة: سكن إليه من ألّهت فلاناً.

وروى الصدوق فى «التوحيد» بسنده عن الباقر، عن أبيه، عن أمير المؤمنين عليهم السلام، قال: «قال أمير المؤمنين: الله معناه المعبود الذى يأله فيه الخلق ويؤله إليه والله هو المستور عن درك الأبصار، المحجوب عن الأوهام والخطرات».

قال الباقر عليه السلام: «الله معناه المعبود الذى أله الخلق عن درك ماهيته والإحاطه بكيفيته».

ويقول العرب: أله الرجل إذا تحيّر بالشىء فلم يحط به علماً.

ص: ٣٢

١- (١) التوحيد: ٢٣١، باب ٣١ معنى: (بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ).

٢- (٢) الكافي: ١: ٨٧، الحديث ٢.

ووله إذا فزع إلى شيء مما يحذره ويخافه، فالإله هو المستور عن حواس الخلق (١).

وروى الكليني بسنده عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام، قال: «سأل عن معنى: الله، قال: استولى على ما دقَّ وجلَّ» (٢).

ولكنَّ المجلسي ذكر أنَّ الخبر سقط منه شيء، لأنَّ الكليني رواه عن البرقي، والبرقي رواه بهذا السند بعينه في «المحاسن» هكذا: «سئل عن معنى قول الله:

(الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) (٣).

قال: استولى على ما دقَّ وجلَّ» (٤).

وعلى ما ذكره البرقي، فالرواية في تفسير الاستواء على العرش.

ولكن روى العياشي عن الحسن بن خرزاد، قال: «كتبت إلى الصادق عليه السلام أسأل عن معنى: الله، قال: استولى على ما دقَّ وجلَّ» (٥).

ولعله أيضاً سقط من الخبر عنده.

وأما القول باشتقاقه من الألوهية فالظاهر ليس قولاً مغايراً لما تقدّم، وكذا القول باشتقاقه من الوله، بل إنَّ المعاني المتقدّمة لا يخفى تلازم بعضها مع البعض الآخر، كما أنَّ ذكر الروايات للمعاني المتعدّدة بلفظ الجلالة بمقتضى المعنى اللغوي دالٌّ على ما مرّت الإشارة إليه من أنَّ الأصل في الاستعمال والاستظهار

ص: ٣٣

١- (١) التوحيد: ٨٩، الحديث ٢.

٢- (٢) الكافي: ١: ١١٥، الحديث ٣.

٣- (٣) طه ٢٠: ٥.

٤- (٤) المحاسن ١: ٢٣٨، الحديث ٢١٢. بحار الأنوار: ٧: ١٨١، الحديث ٦.

٥- (٥) العياشي في ذيل سورة الحمد.

فضلاً عن التأويل؛ جواز تعدد المعاني بحسب ما للفظ من تعدد معاني لغويّه، أو استقام المعنى على كلّ منهم.

)

الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ

إشاره

وروى الكفعمى فى «المصباح» عن الصادق عليه السلام: «الرحمن اسم خاصّ بصفه عامّه، والرحيم اسم عام بصفه خاصّه» (١).

وروى فى «تفسير العسكرى عليه السلام»، عن علىّ عليه السلام، قال: «الرحمن العاطف على خلقه بالرزق لا يقطع عنهم موادّ رزقه، وإن انقطعوا عن طاعته...» الحديث (٢).

وقال عليه السلام: «وتفسير قوله عزّ وجلّ: (الرَّحْمَنِ) أنّ قوله: (الرَّحْمَنِ) مشتقّ من الرحمه، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: قال الله عزّ وجلّ: أنا الرحمن، وهى [من] الرحم شقت لها اسماً من اسمى، من وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته.

ثمّ قال علىّ عليه السلام: أوتدرى ما هذه الرحم التى من وصلها وصله الرحمن ومن قطعها قطعته الرحمن؟

فقيل: يا أمير المؤمنين، حُتّ بهذا كلّ قوم على أن يكرموا أقرباءهم ويصلوا أرحامهم (آباءهم).

فقال لهم: أيحّتهم على أن يصلوا أرحامهم الكافرين، وأن يعظّموا من حقّره الله، وأوجب احتقاره من الكافرين؟

قالوا: لا، ولكنّه حثّهم على صلّه أرحامهم المؤمنين.

قال: فقال: أوجب حقوق أرحامهم لاّتصالهم بآبائهم وأمّهاتهم؟

ص: ٣٤

١- (١) مصباح الكفعمى: ٣١٧. المقام الأسنى: ٢٩.

٢- (٢) تفسير الإمام العسكرى عليه السلام: ٣٤، الحديث ١٢.

قلت: بلى يا أخا رسول الله.

قال: فهم إذن إنما يقضون فيهم حقوق الآباء والأمهات».

ثم قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنَّ الرحم التي اشتقَّها الله عزَّ وجلَّ من رحمته بقوله:

أنا الرحمن وهى الرحم، هى رحم محمَّد صلى الله عليه وآله وأنَّ من إعظام الله إعظام محمَّد صلى الله عليه وآله، وإنَّ من إعظام محمَّد صلى الله عليه وآله إعظام رحم محمَّد، وأنَّ كلَّ مؤمن ومؤمنة من شيعتنا هو من رحم محمَّد وأنَّ إعظامه من إعظام محمَّد صلى الله عليه وآله» (١).

وروى فى «التوحيد» بسنده عن العسكرى عليه السلام فى قول الله عزَّ وجلَّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، قال: «وقام رجل لعلّى بن الحسين عليه السلام فقال: أخبرنى عن معنى (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، فقال علّى بن الحسين: حدّثنى أبى، عن أخيه الحسن، عن أمير المؤمنين عليهم السلام: أنّ رجلاً قام إليه فقال: يا أمير المؤمنين، حدّثنى عن معنى (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) ما معناه؟

فقال: إنّ قولك: الله، أعظم اسم من أسماء الله عزَّ وجلَّ وهو الاسم الذى لا يتسمّى به غير الله، ولم يتسمَّ به مخلوق... (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) أى استعين على هذا الأمر بالله الذى لا يحقّ العبادة لغيره، المغيث إذا استغيث، المجيب إذا دُعِيَ.

(الرَّحْمَنِ) الذى يرحم ببسط الرزق علينا.

(الرَّحِيمِ) بنا فى أدياننا ودياننا وآخرتنا» (٢).

وروى الصدوق فى «عيون الأخبار» بإسناده عن الرضا عليه السلام، أنّه قال فى دعائه:

«رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما» (٣).

ص: ٣٥

١- (١) تفسير الإمام العسكرى عليه السلام: ٣٤، الحديث ١٢.

٢- (٢) التوحيد: ٢٣٠، باب معنى (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، الحديث ٥.

٣- (٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ١٩: ١، الحديث ٣٧.

وفى جمله من الروايات: «إنَّ الرحيم لا يوصف برقه، وإنما يحدث الرحمة»^(١).

لطفه بديعه

إنَّ المتحصِّل من الروايات فى معنى اسم (الله) واسم (الرحمن) وإن لم يكن نافٍ للعلميّه، إلّا أنّ كون اسم الجلاله علم لا ينفى أنّه فى أصل الوضع ملحوظ فيه المعنى الاشتقاقى، فاسم الجلاله وإن فرض فى أوّل وضعه أنّه علم للذات الجامعه لجميع الكمالات، إلّا أنّ ذلك لا يستلزم عدم المعنى الوصفى فى اللفظ، وعلى ضوء هذه الإشاره، بل اللطفه الرقيقه يتتبعه إلى ملاحظه المعنى الوصفى فى هذا الاسم الشريف، مضافاً إلى معنى العلميّه، كما أنّه على ذلك لا يتقرّر ممّا هو عند كثير من الباحثين فى علم الأسماء من أنّ هذا الاسم الشريف هو أعظم الأسماء الإلهيّه.

فإنّ رتبه هذا الاسم الشريف كانت فى الطبقة الأولى من الأسماء، إلّا أنّ اسم (هو) ونحوه أعلى مرتبه، كما سيأتى فى الروايات الآتيه فى البحث المعرفى، وكذلك الحال فى اسم (الرحمن)، فإنّه وإن بنى فيه على العلميّه، إلّا أنّ ذلك لا ينفى المعنى الوصفى فى الاسم، بل سيّضح ممّا سيأتى أنّ هذا الاسم الشريف متفرّع رتبه على اسم الجلاله أو الله.

بحوث معرفيّه فى معانى البسمله

بادئ ذى بدأ يطرح سؤال عن السرّ ووجه السبب فى افتتاح القرآن فضلاً عن عموم الأمور والأفعال بالاستعانه باسم الله.

ص: ٣٦

١- (١) أمالى الصدوق: ٤٢٣، الحديث ٥٦٠. التوحيد: ٣٠٦، الحديث ١. روضه الواعظين: ٢٢. الاختصاص: ٢٣٦ «نحوه».

هل للابتداء بالاسم في كتاب الله كبدايه، لا-سيما مع كل ما في القرآن في الفاتحه وكل ما في الفاتحه هو في البسملة، هل لذلك ارتباط في فهم مجمل كتاب الله، كما يشير إلى ذلك أمير المؤمنين عليه السلام في أجوبته مع الرجل المشكك بسبب ما زعمه وتخيّله من تناقضات القرآن.

فقال عليه السلام: وأما قوله: (هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا) (١) فإن تأويله هل تعلم له أحداً اسمه الله غير الله تبارك وتعالى، فإياك أن تفسّر القرآن برأيك، حتى تفقهه عن العلماء، فإنه ربّ تنزيل يشبه كلام البشر وهو كلام الله، وتأويله لا يشبه كلام البشر، كما ليس شيء من خلقه يشبهه، كذلك لا يشبه فعله تبارك وتعالى شيئاً من أفعال البشر، ولا يشبه شيء من كلامه كلام البشر. فكلام الله تبارك وتعالى صفته، وكلام البشر أفعالهم فلا تشبه كلام الله بكلام البشر فتهلك» (٢).

قاعده: تغاير الأسماء مع الذات

إنّ الافتتاح للقرآن الكريم بالاسم لا ريب أنه يحمل في طياته إشاره إلى أنّ الاسم هو فاتحه الخلقه الإلهيه وفاتحه الظهور وفاتحه الكلام التكويني وهو الكلمه الأولى، وأنه الحجاب بين الذات الإلهيه والخلق.

ومن ثمّ يكون التوجّه والتوصّل والتمسك به وسيله إلى الذات المقدسه.

روى الكليني بسنده عن الرضا عليه السلام قوله: «سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام: هل كان الله عزّ وجلّ عارفاً بنفسه قبل أن يخلق الخلق؟ قال: نعم».

ص: ٣٧

١- (١) مريم ١٩: ٦٥.

٢- (٢) التوحيد: ٢٦٤، الحديث ٥.

قلت: هل يراها ويسمعها؟

قال:

ما كان محتاجا إلى ذلك لأنه لم يكن يسألها ولا يطلب منها، هو نفسه و نفسه هو، قدرته نافذه فليس يحتاج أن يسمّى نفسه، و لكن اختار لنفسه أسماء لغيره يدعوه بها، لأنه إذا لم يدع باسمه لم يعرف، فأول ما اختار لنفسه العلى العظيم، لأنه أعلى الأشياء كلها، فمعناه الله، و اسمه العلى العظيم هو أول أسمائه علا كل شىء» (١).

بيانه: الحديث الشريف يدلّ على أنّ الذات الأزليّه لا اسم لها فى ذاتها، وأنّ الاسم علامه وآيه ودلاله، والعلامه إنّما يحتاج إليها لما هو غائب، وحيث أنّ ذاته حاضره لذاته، فلم تكن غائبه عن ذاته كى يطلبها بالاسم بخلاف غيره من المخلوقات، فإنّها لا يمكنها معرفه الذات الإلهيّه بالذات، بل لا سبيل إلى معرفتها إلّا بالاسم.

وإلى هذا يشير قوله عليه السلام:

«لأنّه إذا لم يدع باسمه لم يعرف» وفى هذا برهان على أنّ المعرفه بالبارى لا تتمّ إلّا بالأسماء، ويمتنع معرفه الذات بدون الأسماء، فالأسماء وسيله المعرفه ومن دونها لا تتمّ المعرفه، لأنّ الذات الإلهيّه خارجه عن الحدود لا يحاط بها، فهى من البساطه التى تبهم على غيرها من الذوات.

ثمّ إنّ فى هذه الروايه إشاره إلى أنّ الاسم ظهور للذات، وهذا الظهور بالإضافه إلى غيره تعالى كما أنّه تبيّن أنّ اسم كلّ شىء ظهور له، وظهوره تعالى يعلو كلّ ظهور.

والحاصل: أنّ دور الأسماء هو نفى حدّ التعطيل فى معرفه الذات الإلهيّه،

ص: ٣٨

١- (١) الكافى: ١: ١١٣، باب حدوث الأسماء، الحديث ٢. معانى الأخبار: ٢، الحديث ٢، باب معنى الاسم. التوحيد: ١٩١، الحديث ٤، باب حدوث الأسماء.

كما أنها ينفي بها حد التشبيه، كما سيأتى ذلك مفصلاً فى بحث التوسل بالأسماء.

وروى الكلينى بسنده عن إبراهيم بن عمر، عن أبى عبد الله عليه السلام، قال:

«إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ أَسْمَاءً بِالْحُرُوفِ غَيْرِ مُتَّصَوِّتٍ، وَبِاللَّفْظِ غَيْرِ مُنْطَقٍ، وَبِالشَّخْصِ غَيْرِ مُجَسَّدٍ، وَبِالتَّشْبِيهِ غَيْرِ مَوْصُوفٍ، وَبِاللُّونِ غَيْرِ مَضْبُوعٍ، مَنْفِيٌّ عَنْهُ الْأَفْطَارُ، مُبْعَدٌ عَنْهُ الْخِدُودُ، مَحْجُوبٌ عَنْهُ كُلُّ حِسٍّ مُتَوَهِّمٍ، مُسْتَبْتَرٌ غَيْرُ مَسْتُورٍ، فَجَعَلَهُ كَلِمَةً تَامَةً عَلَى أَرْبَعَةِ أَجْزَاءٍ مَعًا لَيْسَ مِنْهَا وَاحِدٌ قَبْلَ الْآخَرِ، فَمَا ظَهَرَ مِنْهَا ثَلَاثَةٌ أَسْمَاءٍ لِفَاقِهِ الْخَلْقِ إِلَيْهَا، وَحَجَبَ مِنْهَا وَاحِدًا وَهُوَ الْأَسْمَاءُ الْمَكْنُونُ الْمَخْزُونُ، فَهَذِهِ الْأَسْمَاءُ الَّتِي ظَهَرَتْ، فَالظَّاهِرُ هُوَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَسَيَخْرُ سُبْحَانَهُ لِكُلِّ اسْمٍ مِنْ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ أَرْبَعَةٌ أَرْكَانٍ، فَذَلِكَ اثْنَا عَشَرَ رُكْنًا، ثُمَّ خَلَقَ لِكُلِّ رُكْنٍ مِنْهَا ثَلَاثِينَ اسْمًا فِغْلًا مَنَسُوبًا إِلَيْهَا، فَهُوَ الرَّحْمَنُ، الرَّحِيمُ، الْمَلِكُ، الْقُدُّوسُ، الْخَالِقُ، الْبَارِئُ، الْمُصَوِّرُ، الْحَيُّ، الْقَيُّومُ لَمَّا تَأَخَّذَهُ سِنُّهُ وَلَا نَوْمَ، الْعَلِيمُ، الْخَبِيرُ، السَّمِيعُ، الْبَصِيرُ، الْحَكِيمُ، الْعَزِيزُ، الْجَبَّارُ، الْمُتَكَبِّرُ، الْعَلِيُّ، الْعَظِيمُ، الْمُقْتَدِرُ، الْقَادِرُ، السَّلَامُ، الْمُؤْمِنُ، الْمُهَيِّمُ، [الْبَارِئُ]، الْمُنشِئُ، الْبَدِيعُ، الرَّفِيعُ، الْجَلِيلُ، الْكَرِيمُ، الرَّازِقُ، الْمُحْيِي، الْمُمِيتُ، الْبَاعِثُ، الْوَارِثُ.

فَهَذِهِ الْأَسْمَاءُ وَمَا كَانَ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى حَتَّى تَبِمَ ثَلَاثَمَائِهِ وَسِتِّينَ اسْمًا فَهِيَ نَسَبُهُ لِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ الثَّلَاثَةِ، وَهَذِهِ الْأَسْمَاءُ الثَّلَاثَةُ أَرْكَانٌ، وَحَجَبَ الْاسْمُ الْوَاحِدُ الْمَكْنُونُ الْمَخْزُونُ بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ الثَّلَاثَةِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) (١)، (٢).

ص: ٣٩

١- (١) الإسراء ١٧: ١١٠.

٢- (٢) الكافى: ١: ١١٢، باب حدود الأسماء، الحديث ١.

بيان ذلك: قوله عليه السلام: «خَلَقَ اسْمًا بِأَلْحُرُوفِ غَيْرِ مُتَّصَوَاتٍ» أى أنّ هذه الأسماء الإلهية ليس كما يتبادر فى الاستعمال العرفى أنّها عبارته عن الأصوات الملفوظة والمنطوقة أو المنقوشة، بل المراد أنّ هذه الأسماء هى أوائل المخلوقات التى أودعها من الكمال والعظمة، فكانت آيات عظيمه إلهية، ومن شدّه كمالها انطمست آييتها الخلقية، وتمحّضت فى الحكايه عن العظمه والقدرة فى الذات الإلهية، ومن ثم أخذت أحكام الحجب وسدنه الذات الإلهية، ومن ثم نفى عنها عليه السلام أحكام الجسميه والمادّه، بل وأحكام الحدود والتناهى، كيف تحدّد وهى حواكى ومرائى الذات الإلهية.

كما يوصف هذا الاسم أيضاً بأنّه لا تدركه الأوهام؛ إذ هى لا يمكن أن تحيط به، كيف وهو بلا حدّ، ومن ثم فرّع على ذلك عليه السلام بأنّه مستتر غير مستور، أى أنّ استتاره واحتجابه عن إدراك الآخرين له، بسبب كونه مبعّد عنه الحدود، ومن ثم لا يدركه، مستتر عنهم بعظمته، إذ إدراك العقول إنّما يتمكّن من إدراك المحدود بعد كون العقول محدوده.

ثمّ يبيّن عليه السلام أنّه تبارك وتعالى جعل هذا الاسم كلمه تامه، أى أنّ هذا الاسم بما يحكى من عظام الصفات الإلهية كان خلقته ووجوده تكلم من الذات الإلهية دالّ على المضمّر الغائب فيها.

ثمّ أخذ عليه السلام فى بيان مراتب وطبقات الأسماء، فبيّن عليه السلام أنّ هذا الاسم جعل على أربعة أسماء معاً ذات رتبه واحده، فأظهر منها ثلاثه، وهو الله تبارك وتعالى، وحجب منها واحداً فهو اسم مكنون مخزون بهذه الأسماء الثلاثه، ثمّ جعل وسخر لكلّ اسم منها أربعة أركان، ثمّ خلق لكلّ اسم ثلاثين اسماً، وهذا المضمون من نظام ظهور الأسماء قد استفاضت به روايات أهل البيت عليهم السلام،

وإن لم يراعه أو تفتن لنفسه سائر من كتب في الأسماء من أهل الذوق المعنى، ثم أشار عليه السلام إلى أن الأسماء تؤدى في المال إلى مسمى واحد إلى الآية من سورة الإسراء.

حيث تشير الآية إلى أن التوجه والنداء إلى اسم (الله) أو إلى اسم (الرحمن) سيان، فإن كلا منهما من الأسماء الحسنى التى تؤول إلى الدلالة على الذات الإلهية المالكه لتلك الأسماء، كآيات وظهورات وعلامات لها.

فإنهم يجعلون اسم (الله) أول ظهور الأسماء، ومنها تظهر بقیة الأسماء، أو يجعلون أول الظهورات اسم (الأحد) ثم (الواحد) ثم (الله) ثم بقیة الأسماء.

كما أن الرواية دالة على أن اسم الرحمن هو اسم الاسم، أو اسم اسم الاسم، وعلى ذلك: فسواء كان الاسم من الرتبة الأولى أو الثانية أو بقیة المراتب، فالحال سيات فى دعائها ودالاتها على الذات لأنها كلها ظهورات لها، وإن اختلفت مراتب الظهور.

وروى الكلينى أيضاً بسنده عن عبدالأعلى، عن أبى عبدالله عليه السلام، قال: «اسمُ الله غيرُهُ، وكلُّ شَيْءٍ وَقَعَ عَلَيْهِ اسْمُ شَيْءٍ فَهُوَ مَخْلُوقٌ مَا خَلَا اللَّهَ، فَأَمَّا مَا عَبَّرْتَهُ الْأَلْسُنُ أَوْ عَمِلَتِ الْأَيْدِي فَهُوَ مَخْلُوقٌ، وَاللَّهُ غَايَةٌ مِنْ غَايَاتِهِ، وَالْمُغَيَّبُ غَيْرُ الْغَايَةِ، وَالْغَايَةُ مَوْصُوفَةٌ، وَكُلُّ مَوْصُوفٍ مَصْنُوعٌ، وَصَانِعُ الْأَشْيَاءِ غَيْرُ مَوْصُوفٍ بِحَدِّ وَسَمِّهِ، لَمْ يَتَكَوَّنْ فَيَعْرِفْ كَيْنُونِيَّتَهُ بِصِنْعِ غَيْرِهِ، وَلَمْ يَتَنَاهَ إِلَى غَايَةٍ إِلَّا كَانَتْ غَيْرُهُ، لَا يَزِلُّ مَنْ فَهَمَ هَذَا الْحُكْمَ أَيْدَاءً وَهُوَ التَّوْحِيدُ الْخَالِصُ، فَارْعَوْهُ وَصِدِّقُوهُ وَتَفَهَّمُوهُ بِإِذْنِ اللَّهِ، مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يَعْرِفُ اللَّهَ بِحِجَابٍ أَوْ بِصُورَةٍ أَوْ بِمِثَالٍ فَهُوَ مُشْرِكٌ، لِأَنَّ حِجَابَهُ وَمِثَالَهُ وَصُورَتَهُ غَيْرُهُ، وَإِنَّمَا هُوَ وَاحِدٌ مُتَوَحِّدٌ.

فَكَيْفَ يُوحِّدُهُ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ عَرَفَهُ بِغَيْرِهِ، وَإِنَّمَا عَرَفَ اللَّهُ مَنْ عَرَفَهُ بِاللَّهِ، فَمَنْ لَمْ يَعْرِفْهُ بِهِ فَلَيْسَ يَعْرِفُهُ، إِنَّمَا يَعْرِفُ غَيْرَهُ، لَيْسَ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ شَيْءٌ وَاللَّهُ خَالِقُ الْأَشْيَاءِ لَأَنْ شَيْءٌ كَانَ، وَاللَّهُ يُسَمَّى بِأَسْمَائِهِ، وَهُوَ غَيْرُ أَسْمَائِهِ وَالْأَسْمَاءُ غَيْرُهُ» (١).

وقوله عليه السلام: «اسمُ الله غَيْرُهُ» يشير عليه السلام إلى تباين الذات الأزليَّة مع اسم (الله)، كما مرَّ في الأحاديث السابقة، ثمَّ يتبَّه أنَّ المراد من هذا الاسم اسم الجلاله ليس هو ما تعبَّر به الألسن، وينقش بعمل الأيدي، بل هو المشار إليه باللفظ والكتابة، أي هو المقصود والغايه المراده من الاسم اللفظي أو المنقوش، فالمعنيًا وهو الاسم اللفظي، والاسم المنقوش مغاير إلى اسم (الله) الغايه.

ويمكن أن ما أراده عليه السلام حينئذٍ من اسم الله الغايه، المفهوم الذهني، وأنَّه مصنوع، وموصوف بوصف، يصنعه الذهن، وهو يغيّر صانع الأشياء، أو يراد من اسم الله الغايه هو الاسم الذي خلق أولًا في الأسماء، والذي مرَّ في الروايات السابقة، وهو الاسم بوجوده التكويني، وأنَّ هذا الاسم حيث أنَّه موصوف فهو مصنوع، أي مخلوق لأنَّ الذات الأزليَّة لا- تحدِّ بوصف؛ إذ كلَّ موصوف مصنوع وصانع الأشياء لا يوصف بوصف فيحدِّ بذلك الوصف، إذ الوصف اسم من الأسماء كما مرَّ في حديث أنَّ الاسم صفة لموصوف.

والذات الأزليَّة لا- تتناهى إلى غايه من صفة أو اسم إلَّا وكانت تلك الغايه غير الذات الأزليَّة، وهذا الاحتمال في مفاد الروايه قريب من قول الأمير عليه السلام في «نهج البلاغه»: «الَّذِي لَيْسَ لِصِفَتِهِ حَدٌّ مَحْدُودٌ».

أي كلَّ صفة لها حدٌّ فهي دون صفتها، وحيث أنَّ الصفات الكماليه تباين بعضها

ص: ٤٢

البعض، فهي محدوده، وهي دون الصفه التي هو عليها.

وقال عليه السلام: «أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ، وَكَمَالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصَدِيقُ بِهِ، وَكَمَالُ التَّصَدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ، وَكَمَالُ تَوْحِيدِهِ الْإِخْلَاصُ لَهُ، وَكَمَالُ الْإِخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ، لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّهَا غَيْرُ الْمُوصُوفِ، وَشَهَادَةِ كُلِّ مُوصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ، فَمَنْ وَصَفَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ، وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَاهُ، وَمَنْ ثَنَاهُ فَقَدْ جَزَّأَهُ، وَمَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ جَهَلَهُ، وَمَنْ جَهَلَهُ فَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ، وَمَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ» (١).

لا سيما أنه في هذه الروايه قال عليه السلام أن هذا الحكم هو التوحيد الخالص، فالأسماء والصفات ظهورات وهي غيره.

وأما قوله عليه السلام بعد ذلك: «مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يَعْرِفُ اللَّهَ بِحِجَابٍ أَوْ بِصُورَةٍ أَوْ بِمِثَالٍ فَهُوَ مُشْرِكٌ»، أى يجعلها عين البارى أى بلحاظها بما هي هي، ودلّل عليه السلام على وقوع الشرك بالتغاير بينها وبين الذات بينما الله واحد متوحد بخلاف من ينظر بها إلى الذات، فقد عرف الذات بالذات، لأنّ النظره الحرفيه إلى الأسماء لا- يكون المنظور حينه نفس الاسم، بل المنظور هو المحكى بالاسم.

ص: ٤٣

١- (١) نهج البلاغه: الخطبه الأولى، ومثله فى المفاد ما روى الكلينى بسنده عن أبى عبد الله عليه السلام، قال: «قال رجلٌ عنده: الله أكبر، فقال: الله أكبر. فقال: الله أكبر من أى شىء؟ فقال: من كل شىء. فقال أبو عبد الله عليه السلام: حَيْدَ ذَتُهُ. فقال الرجل: كيف أقول؟ قال: قل: الله أكبر من أن يُوصَفَ». وفى روايه اخرى عن جميع بن عمير: قال أبو عبد الله عليه السلام: أى شىء الله أكبر؟ فقلت: الله أكبر من كل شىء. فقال: وكان ثم شىء فيكون أكبر منه؟ فقلت: وما هو؟ قال: الله أكبر من أن يُوصَفَ». الكافى: ١: ١١٧ و ١١٨، باب معانى الأسماء واشتقاقها، الحديث ٨ و ٩.

ثم إن مما مرّ من حديث الرضا عليه السلام أن كل اسم فهو صفة لموصوف يفيد قاعده مهمته في علم الأسماء من أن كل اسم إلهي في الأصل وإن كان علماً في أصل وضعه، إلا أنه مأخوذ فيه معنى الوصفية، وهذا مما يبرهن على القاعده المتقدمه من أن الأسماء دون الذات الإلهية، وقد مرّ في البحث اللغوي الأدبي أن اسم (الله) وإن كان علماً في الأصل، إلا أنه لوحظ فيه أيضاً معنى الوصفى الاشتقاقى من الوله أو من (أله) أو (لاه)، كما أشارت إلى ذلك الروايات.

وروى الصدوق في «التوحيد» و «العيون» بسنده عن عليّ بن موسى الرضا عليه السلام، عن آبائه، عن أمير المؤمنين عليهم السلام: «أنه خطب الناس في مسجد الكوفه - إلى أن قال عليه السلام -:

وَمُمْتَنِعٌ عَنِ الْإِدْرَاكِ بِمَا ابْتَدَعَ مِنْ تَضْيِرِيفِ الذُّوَاتِ،... وَمُحَرَّمٌ عَلَى بَوَارِعِ ثاقِبَاتِ الْفِطَنِ تَحْدِيدُهُ، وَعَلَى عَوَامِقِ ناقِبَاتِ الْفِكْرِ تَكْيِيفُهُ، وَعَلَى غَوَايِصِ سابِحَاتِ النَّظْرِ تَصْوِيرُهُ...

مُمْتَنِعٌ عَنِ الْأَوْهَامِ أَنْ تَكْتَنِبَهُ، وَعَنِ الْأَفْهَامِ أَنْ تَسْتَعْرِقَهُ، وَعَنِ الْأَذْهَانِ أَنْ تُمَثِّلَهُ، قَدْ بَيَّسَتْ مِنْ اسْتِثْنَابِ الْإِحْاطَةِ بِهِ طَوَامِحَ الْعُقُولِ، وَنَضَبَتْ عَنِ الْإِشَارَةِ إِلَيْهِ بِالْأَكْتِنَاهِ بِحَارِ الْعُلُومِ، وَرَجَعَتْ بِالصَّغَرِ عَنِ السُّمُوِّ إِلَى وَصْفِ قُدْرَتِهِ لَطَائِفِ الْخُصُومِ...

وَلَمَّا كَالْأَشْيَاءِ فَتَقَعَ عَلَيْهِ الصِّفَاتُ، قَدْ ضَلَّتِ الْعُقُولُ فِي أَمْوَاجِ تَيَّارِ إِدْرَاكِهِ، وَتَحَيَّرَتِ الْأَوْهَامُ عَنِ إِحْاطَةِ ذِكْرِ أَرْزَلِيَّتِهِ، وَخَصِيَرَتِ الْأَفْهَامُ عَنِ اسْتِشْعَارِ وَصْفِ قُدْرَتِهِ، وَغَرِقَتِ الْأَذْهَانُ فِي لُجَجِ بِحَارِ أَفْلاكِ مَلَكُوتِهِ.

مُقْتَدِرٌ بِالْأَلَاءِ، وَمُمْتَنِعٌ بِالْكَبْرِيَاءِ، وَمُتَمَلِّكٌ عَلَى الْأَشْيَاءِ، فَلَمَّا دَهْرٌ يُخْلِقُهُ، وَلَمَّا وَصَفٌ يُحِيْطُ بِهِ، فَلَمَّا إِلَيْهِ حَيْدٌ مَنُشُوبٌ، وَلَا لَهُ مَثَلٌ مَضْرُوبٌ، وَلَا شَيْءٌ عَنْهُ

بِمَحْجُوبٍ، تَعَالَى عَنْ ضَرْبِ الْأَمْثَالِ وَالصِّفَاتِ الْمَخْلُوقَةِ عُلُوًّا كَبِيرًا» (١).

قاعده فى مراتب التوحيد، ومراتب الصفات والأسماء

بيان: وهذا الحديث دلالة بوضوح عن أن أوصاف العقول من كل المخلوقات هي دون ذاته، وهذا تفسير آخر لدوئيه الصفات عن ذاته، وعدم حدّ الذات الأنزليّه بصفات، بأن يراد أن الذات مقدّسه عن الصفات المخلوقه فى العقول أو القلوب والفتن والأفكار، وهذا أحد محامل (توحيد نفي الصفات عنه) أو تفسير قول أمير المؤمنين عليه السلام أعلاه.

وهذا لا يتنافى مع التفسير السابق فى الروايات المتقدمه التى ظاهرها أنّ الأسماء المخلوقه والصفات بوجودها فى عين الخارج دون الذات فضلاً عن الصفات الذهنيّه، وهذه مراتب من التوحيد، ولعلّه يشير إلى ذلك قوله عليه السلام:

«وَكَمَالَ تَوْحِيدِهِ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ» لا أصل التوحيد.

ويشير أيضاً قول الصادق عليه السلام كما مرّ «ذَلِكَ التَّوْحِيدُ الْخَالِصُ» فى مقابل التوحيد المشوب، بل قد ورد فى رواياتهم ما يدلّ على أنّ هذه الصفات الذهنيّه المخلوقه لا تحيط كنهاً بعيّتيّه الأسماء، ولا تحدّها، فكيف بالمسمّى والذات الأنزليّه، كما سيأتى الإشارة من أنّ أهل البيت عليهم السلام هم الأسماء الحسنى، كما فى قول الرضا عليه السلام:

«فَمَنْ ذَا الَّذِي يَبْلُغُ مَعْرِفَةَ الْإِمَامِ أَوْ كُنْهَ وَصِفِهِ. هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ، ضَلَّتِ الْعُقُولُ، وَتَاهَتِ الْحُلُومُ، وَحَارَتِ الْأَلْبَابُ، وَخَسِمَتِ الْعُيُونُ، وَتَصَاعَزَتِ الْعُظْمَاءُ، وَتَحَيَّرَتِ الْحُكَمَاءُ، وَتَقَاصِرَتِ الْحُلَمَاءُ، وَحَصِرَتِ الْخُطَبَاءُ، وَجَهَلَتِ الْأَلْبَاءُ، وَكَلَّتِ الشُّعْرَاءُ، وَعَجَزَتِ الْأُدْبَاءُ، وَعَيَّيَتِ الْبُلَغَاءُ، عَنْ وَصْفِ شَأْنٍ مِنْ شُؤُونِهِ، أَوْ فَضِيلِهِ مِنْ فَضَائِلِهِ،

ص: ٤٥

١- (١) التوحيد: ٧٠، الحديث ٢٦. عيون أخبار الرضا عليه السلام: ١١١:٢، الحديث ١٥.

وَأَقْرَبُ بِالْعَجْزِ وَالْتَّقْصِيرِ، وَكَيْفَ يُوصَفُ بِكَلِّهِ، أَوْ يُنْعَتُ بِكِنِهِهِ، أَوْ يُفْهَمُ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِهِ، أَوْ يُوجَدُ مَنْ يَقُومُ مَقَامَهُ، وَيُغْنِي عَنْهُ.

كيف وأتى وهو بحيث النجم عن أيدي المتناولين، ووصف الواصفين؟

فأين الاختيار من هذا، وأين العقول عن هذا؟ (١).

قاعده فى كون الأسماء توقيفيه أو توقيفه المعارف

النقطه الأولى: توقيفه الأسماء

البحث فى توقيفه الأسماء مفاده بين المثلث له والنافى بحسب قالب العنوان المذكور هو فى كون الأسماء الإلهيه لا بد أن يعينها ويرشد إليها ويوقفنا عليها الوحي.

بينما النافى لها يتبنى إمكانيه إدراك العقل أو القلب لتلك الأسماء، سواء كانت من الأسماء الأمّ أم من طبقات الأسماء اللاحقه، أى الأصول والأركان والفروع، وهل البحث يقتصر على الأسماء الإلهيه أم يعمّ الصفات أيضاً؟ لا سيما أن الفرق بين الأسماء والصفات هو بالاعتبار، بل هذا البحث هل يعمّ فى الحقيقة مطلق أبواب المعارف أم لا؟ إذ مجيء هذا البحث فى شؤون التوحيد، فكيف بمن دونه من المباحث.

وهذا الخلاف فى الحقيقة بعينه هو الخلاف الدائر بين الأخباريين والأصوليين فى أحكام الفروع، والتشريع المتعلق بالأفعال من أنه هل للعقل حكم ودور فى مساحه التشريع أم لا، وأن ما حكم به العقل يحكم به الشرع، وكذلك بالنسبه

ص: ٤٤

١- (١) تحف العقول: ٤٤٠. عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢: ١٩٧، الحديث ١.

إلى إدراكات القلب، ويتبين من ذلك أنّ مسأله تعدّد الأدله العقلية والنقلية التي هي طريق لاستكشاف الوحي، بحث دائر في كلّ تلك المساحات وليس مقتصرأ على الفروع، بل هو شامل للمعارف.

النقطة الثانية: الاعتبار في المعارف

معنى التوقيفيه هل هو بمعنى التعبد أو المولوية أو الإرشاد من الوحي من دون اعتبار تشريعي، ثم أى معنى يتقرّر للمولوية في المعارف، وهل الخلاف مقتصر على المولوية والتعبد أو أنه يشمل صحه الاستناد في المعارف إلى الدلاله النقلية والحججه الظنّية، بل قد يتوسّع في البحث فيقال: إنّ البحث هو تطرّق الاعتبار في المعارف.

النقطة الثالثة: عموم المولوية في المعارف

إنّ مغزى تقرير التوقيفيه والتعبدية في المعارف يبتنى على أنّ مولوية المولى، أى جانب الترغيب والترهيب منه، مؤثر في معرفه، والصعوبه في ذلك أنّ معرفه إذا كانت من نمط الإدراك فأى دور للترويض النفسى الذى هو نوع من العمل الروحى يتصوّر له في الإدراك، وهذا البحث قد حرّناه مفصلاً في كتاب الإمامه الإلهية والعقل العملى (1).

وملخصه: أنّ معرفه يقوم بها كلّ من العقل النظرى والعقل العملى، إلّا أنّ التصوّر يقوم به العقل النظرى، وأما التصديق والحكم فهو من شؤون العقل

ص: ٤٧

١- (١) الإمامه الإلهية: ١: الفصل الأوّل، وفي كتاب العقل العملى: الفصلين الأخيرين والخاتمه، ولاحظ كتاب اصول الاستنباط ونظريه الاعتبار.

العملى، والعقل العملى يقوم بعمل علمى، فإنّ فى العلم نمط من العمل أيضاً، والنفس ما لم تروّض وتهذّب بالترغيب والترهيب لا تستجيب إلى ما تدركه من تصوّرات ومقدمات وقضايا، ومن ثمّ يأتى دور صاحب الترغيب والترهيب، وهو المولى، ومن ثمّ يتبيّن برهان ضروره المولويّه فى حصول المعرفة التصديقيّه، وهذه إحدى الحثثيات الواقعيّه لتأثير مقام الربوبى وهيمنته وقاهريّته ورحمانيّته فى حصول الكمال للبشر بالمعرفه.

وهناك حيثيه اخرى وهى أنّ القدره البشريّه فى إدراك الحقائق ذات وسع محدود، ومن ثمّ عرّفت الفلسفه بأنّها إدراك الواقعيّه بحسب وسع القدره البشريّه، مع أنّ الواقعيّه لا تتضيّق بضيق الإدراك البشرى، وكان من اللازم لتكميل معرفه البشر من العنايه الإلهيّه واللفظ لإفاضه العلم عليه بما لا قدره له عليه بنفسه، وهذه ضروره اخرى للافتقار إلى الوحي ومتابعته، فمع وجود مساحه من الواقعيّه غائبه عن المخلوق، وهو ما يعبر عنه بالغيب، بل إنّ ما غاب أعظم ممّا يشهده المخلوق بحسّه أو ما يشهده بوهمه وخياله أو يشهده بعقله أو ما يشهده بقلبه وسرّه، فإنّها بمنزله قطره فى محيطات لا متناهيه، فلا بدّ له أن يدعن بهذا الفقر والافتقار الدائم للواقعيّه الأزليّه اللامتناهيّه، وهذا معنى العبوديّه من المخلوق والمولويّه من قبل الخالق.

النقطه الرابعه كيفيه العلاقه بين كاشفيّه العقل وهدايه الوحي

ما ذكره علماء اصول الفقه عن كيفيه العلاقه بين كاشفيّه العقل وهدايه الوحي من وجوه متعدده بعينها، تتأتى فى المعارف.

ومن تلك الوجوه أنّ مجال العقل فى البديهيّات والسعى إلى زياده دائرتها عبر عمليّه تبديه النظريّات بالاستعانه بمدد الوحي فى المساحات النظريّه،

ومنها أيضاً كون العقل والقلب هو المتلقى والمخاطب الأصلي لبيانات الوحي دون بقيه مراتب الذات، مع أنّ العقل أو القلب يتلقى من تلك البيانات بحسب سعته، مع أنّ العقول والقلوب تتفاوت في السعه والاتّسع.

كما أنّه قد ذكر أنّ اليقينيّات في الأدلّه العقليه، أو في الدلائل العقليه، إنّما هي في دائره البديهيّات أو ما يقرب منها، وأمّا ما توغّل في الجانب النظري، فإنّه يهبط عن اليقين إلى درجات الظنون النازله كلّما توغّل في النظريّات، ومن ثمّ يكون للظنون النقليه مصدر معرفي مهمّ.

والحاصل: أنّ ما ذكر من كيفيه التوفيق بين الإدراكات العقليه وأنوار هدايه الوحي، ككون العقل قابل المستفيض وأنوار الهدايه فائض منير، وغيرها من الوجوه كلّها بعينها تتأتّى في رسم النسبه بين إدراكات العقل والحاجه إلى بيانات الوحي في أبواب المعارف، وهو بعينه يرسم الحلّ في قاعده توقيفيه الأسماء، أي أنّ هناك مقدار من المساحه البديهيّه يدركها العقل والقلب من الأسماء بنحو جملي إجمالي، وأمّا التفاصيل فتستدعي وتتوقّف على بيانات الوحي (١)، وربّما تكون تلك الموارد من الأمّهات، كما هو الحال في المعاد والرجعه وغيرها من الموارد الأخرى.

النقطه الخامسه وما استدلّ على التوقيفيه في الأسماء جمله من الأمور منها:

الأوّل: قوله تعالى: (سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ) (٢)،

ص: ٤٩

١- (١) يلاحظ ما ذكر من الوجوه الأخرى في كيفيه التوفيق في آخر الفصل الأوّل من الجزء الأوّل من كتاب الإمامه الإلهيه.

٢- (٢) الصافات ٣٧: ١٥٩ و ١٦٠.

باعتبار أن الوصف عين الاسم، والآية تنزهه البارى تعالى عن توصيف المخلوقين، وقصر صلاحية التوصيف بالمخلص - بالفتح - وهو فوق المخلص - بالكسر - أى المصطفين من الأنبياء و الرسل و الأوصياء و الحجج، و هم الذين يتلقون التوصيف من قناه الوحي و العلم اللدنى و الأوصاف هى الأسماء حقيقه و الاختلاف بالاعتبار.

الثانى: ما بنى على أن الأوصاف بما لها من مفاهيم كمالها دون كمال الذات الإلهية، فإنها جامعها لما فوق كمالات الصفات.

فإذا كان البرهان و بيان الوحي قائم على أن الصفات التى تليق بذاته هى دون الذات الإلهية، لأن «فمن و صفه فقد قرنه، و من قرنه فقد ثناه، و من ثناه فقد جزأه، و من جزأه فقد جهله، و من جهله فقد أشار إليه، و من أشار إليه فقد حده، و من حده فقد حده...»(١).

فإذا كان هذا حال الأوصاف التنزيهية، أى الأوصاف التوقيفية، و التى جاءت فى لسان الوحي، فما ظنك بحال الأوصاف النابعة من قدره درك البشر المحدوده، فإنها أبعد عن أن تليق بجلاله تعالى، و متى ما قرّر أن الأوصاف توقيفية، فالأسماء توقيفية أيضا.

الثالث: و منها ما رواه الصدوق فى كتاب «التوحيد» بسنده عن حنان بن سدیر، قال: «سألت أبا عبد الله عليه السلام عن العرش و الكرسي، فقال:

... إنه قال تبارك و تعالى: (رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) (٢) وهو وصف عرش

ص: ٥٠

١- (١) نهج البلاغه: الخطبه ١.

٢- (٢) الأنبياء ٢١:٢٢. الزخرف ٤٣:٨٢.

الوحدانيه، لأنّ قوماً أشركوا كما قلت لك قال تبارك وتعالى ربّ العرش ربّ الوحدانيه عمّا يصفون، وقوم وصفوه بيدين فقالوا: (يُدّ الله مَغْلُوبَهُ) (١)، ومأً وصفوه بالرجلين فقالوا: وضع رجله على صخره بيت المقدس، ومنها ارتقى إلى السماء، وقوماً وصفوه بالأنامل، فقالوا: إنّ محمّداً صلى الله عليه وآله قال: إنّى وجدت برد أنامله على قلبي، فلمثل هذه الصفات قال (ربّ العرش عمّا يصفون).

يقول ربّ المثل الأعلى عمّا به مثّله ولله المثل الأعلى الذى لا يشبهه شيء، ولا يوصف ولا يتوهّم، فذلك المثل الأعلى.

ووصف الذين لم يؤتوا من الله فوائد العلم فوصفوا ربّهم بأدنى الأمثال وشبهوه بالمتشابه منهم فيما جهلوا به، فذلك قال: (و ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) (٢)، فليس له شبه، ولا مثل، ولا عدل، وله الأسماء الحسنى التى لا يسمّى بها غيره، وهى التى وصفها فى الكتاب فقال: (فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ) (٣) جهلاً بغير علم، فالذى يلحد فى أسمائه بغير علم يشرك وهو لا يعلم ويكفر به، وهو يظنّ أنّه يحسن، فذلك قال (و ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) (٤)، فهم الذين يلحدون فى أسمائه بغير علم فيضعونها غير مواضعها.

يا حنان، إنّ الله سبحانه وتعالى أمر أن يتخذ قوم أولياء فهم الذين أعطاهم الله الفضل، وخصّهم بما لم يخصّ به غيرهم، فأرسل محمّداً صلى الله عليه وآله، فكان الدليل على الله بإذن الله عزّ وجلّ حتّى مضى دليلاً هادياً، فقام من بعده وصيّيه دليلاً هادياً على ما كان هو دلّ عليه من أمر ربّه من ظاهر علمه، ثمّ الأئمّه الراشدون عليهم السلام» (٥).

ص: ٥١

١- (١) المائدة ٥: ٦٤.

٢- (٢) الإسراء ١٧: ٨٥.

٣- (٣) الأعراف ٧: ١٨٠.

٤- (٤) يوسف ١٢: ١٠٦.

٥- (٥) التوحيد: ٣٢٣ و ٣٢٤، باب العرش وصفاته، الحديث ١.

ففى هذه الروايات إشاره إلى أنّ الآيه الكريمه وهى قوله تعالى: (فَسَيُبْحَثُ لِلّهِ رَبُّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُ فُون) (١) إلى امتناع وصف مقام الوحدانيه الإلهيه.

وأنّ له تعالى المثل الأعلى الذى لا يشبهه ذلك المثل شىء ولا يوصف ذلك المثل ولا يتوهم، وبين عليه السلام أنّ الذين ليس لهم علم لدنى من الله عزّ وجلّ يصفون البارى بأدنى الأمثال، كما بين عليهم السلام أنّ من يضرب لله المثل الأدنى فقد قال لله بالمثل - بالكسر - وقال له بالتشبيه، بخلاف من يجعل لله المثل الأعلى، فقد نفى المثلثيه عن الله تبارك وتعالى، ولا يتمّ أعلايته المثل لله إلاّ أن يكون ذلك المثل لا يوصف ولا يشبه ولا يحدّ، وبذلك يتبين ضابطه الأسماء الحسنى للبارى تعالى، وقد عيّنها عليه السلام، بالتى وصف بها نفسه بالقرآن الحكيم، وذلك توقيف منه تعالى للأسماء، وأنّ اللازم أن يدعى بها لا غيرها.

فمن وصف البارى تعالى بغيرها وسماه بها فقد أهدى في الأسماء جهلاً بغير علم، فظنّوا أنّه يحسن وهو يسىء الوصف لتسميته البارى، ثمّ بين عليه السلام أنّه لذلك قال تعالى: (وَ مَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ) (٢)، فهذه الآيات تبيّن ضروره الوحي فى الهدايه إلى المعارف الحقه، وللتوقيف على الأسماء الحسنى.

الرابع: ومنها ما قرّر من أدلّه كثيره على ضروره الشريعه والوحي والحاجه إليه، وتلك الأدلّه وإن صاغها المتكلمون على ضروره الشريعه، أى فى مجال الفروع، لكن تلك الأدلّه المتعدده بعينها قائمه على ضروره الدين، أى فى مجال

ص: ٥٢

١- (١) الزخرف ٤٣: ٨٢.

٢- (٢) يوسف ١٢: ١٠٦.

بل الحاجه والضروره فى المعارف أمس وأبين منها فى الفروع، لأنّ متعلّقها وموضوعها أمر خارج عن حيّطه الحواسّ، فمن الغريب تخصيص تلك الأدلّة والوجوه بالفروع أو تخصيص واستنتاج النتيجة بها، وكان الذى أوهم ذلك هو وضوح لزوم حكم وإدراك العقل لمبدأ العقيدة كى يتمّ الإذعان بمؤدّى الوحي، إلما أنّ الصحيح أنّ ذلك هو فى اسس العقائد دون التفاصيل المتراميه، بل دون جمله من الضروريات العقائديه.

الخامس: أنّ للعقل مساحه بديهيه ونظريه، وهو ما تقرّر من أنّ دائره إدراك العقل والأحكام العقليه تنقسم إلى بديهيات ونظريات، وكلّ من الدائرتين على مراتب ودرجات، فإنّ البديهيات ليست على درجه واحده من البدايه، وكذلك الحال فى المسائل النظرية، فتبدأ من البديهيات الشديده الوضوح إلى المتوسّطه إلى الأقل وضوحاً، وكذلك النظريات، فإنّ منها ما يقرب من البديهيات، ثمّ كلّما ابتعدت المسأله وترامت عن البديهيات، ازدادت ولوجاً وإيغالاً فى النظرية فى الابتعاد عن البديهيات.

فإدراكات العقل متوزّعه على هذه الدرجات والأنماط، وقد حقّق أخيراً فى المباحث العقليه أنّ الدليل النظرى فى المسائل النظرية هو بدرجه الظنّ، وإن كان بصوره القطع والقالب اليقيني، وكذا مادّة، ولا سيّما إذا تراها فى النظرية مبتعداً عن البديهيات، وعلى ذلك فالمساحه النظرية اللامتناهيه تقصر إدراكات العقل عن استجلائها وإدراكها بتمامها، كما يعجز فى الوصول إلى معرفتها بدرجه اليقين، وهذا هو شأن العقل البشرى المحدود فى المعارف أيضاً، حيث إنّ اسس اصول العقائد يدركها العقل فى البدايه أو بشيء من التأمل والتدبّر، وأما تفاصيل

كل أصل فيحتاج إلى ترتيب مقدمات وأدله ترشده إلى النتائج، ومن ثم تنبع الحاجة إلى تعليم الوحي وكشفه للعقل ما عجز، ولا يعني هذا إقصاء العقل وإلغاءه، بل هو صاحب الدور الرئيسي، فإنه هو الذي يقرأ تعاليم الوحي ويفهمها، وهو المخاطب في الأصل بتلك التعاليم، فالوحي بمنزلة النور المضيء للطريق إلى الحقائق والعقل بمنزلة العين الباصرة لذلك.

ولك أن تقول: إن حججه العقل بمعنى الفهم غير محدود بحد، وهي على طول المسير، وهو ما تقوم به القوة العاقله.

وأما حججه العقل بمعنى ذات الدليل، وهو الذي يسمّى بالعلم، فالعلم نوره ذاتي وكاشفيته ذاتيه، غايه الأمر أن قدره الإنسان بلحاظ القوى الإدراكية التي تستحصل مواد ومقدمات العلم ومعطياته ونتائجه، كالقوة المفكره والقوة المتصرفه، هي قوة محدوده لمحدوديه حواس الطبيعة الإنسانيه، سواء حواسه الظاهره أو حواسه الباطنه، ومن ثم احتاج الإنسان إلى قوة الوحي الإلهي أو النبوات والرسالات.

فالوحي ليس بديل العلم، إذ العلم حججه ونوره ذاتي، وهو انكشاف تكويني للحقائق والواقعيات، سواء كان بقدره الإنسان أو بقدره الوحي، كما أن الوحي لم يكن بديلاً عن فهم العقل وذوق القلب إذا حججه الفهم العقلي وذوق القلب حججه مطلقه لا تعطل بحال من الأحوال.

وإنما الوحي قدره من ملكوت السماء تتمكن منها النفس النبويه أو الولويه تكون مسعفاً ومكملاً للقصور الموجود في قدرات قوى الإنسان الاعتيادي.

وعلى ذلك فيتبين أن حججه العقل بمعنى الفهم والذوق غير مقيد، بل مطلقه، ولا تعطل بحال، وهو بمنزلة العين الباصرة، كما أن حججه العلم الذي هو بمنزله

النور أيضاً مطلقاً، وإنّ العلم حقيقته واحده، سواء استحصل من هذا المنبع أو ذاك، غايه الأمر أنّ قدره الإنسان وقوته محدوده فى استحصال العلم، فمن ثمّ لا بدّ له من مكمل وهادى، وهو الوحى.

فتحصّل: أنّ الأوفق فى مسأله توقيفيه الأسماء ومسأله توقيفيه المعارف هو القول الوسط، أى لا يصار إلى التوقيفيه المطلقه ولا إلى نفي التوقيفيه مطلقاً، بل الصحيح فى دائره البديهيات العقلية هى المبدأ بخلاف دائره ومساحه النظريات، فإنّه لا بدّ من الاستعانه بالوحى بضميمه محكمات العقل وهى البديهيات، هذا مع عدم تعطيل العقل فى الفهم مطلقاً والقلب فى ذوق الحقائق.

الأسماء والتوسل

إنّ هناك صله وثيقه بين الأسماء الإلهيه والتوسل والتوجّه بها إلى الساحة الربوبيه، كما قال تعالى: (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا) (١).

فأفرد الضمير الراجع إلى الذات الإلهيه، وجعل الضمير العائد للأسماء يفيد الجمع، وأنّ دعاءه تعالى والتوجّه إليه والقصد نحوه لا بدّ أن يستعان فيه ويتوسل إليه بالأسماء، وأنّ هذه الأسماء هى مملوكه له تعالى، فذاته المسمّى وهى دوالّ عليه، وهذا ما يفيد دخول الباء فى البسملة على اسم الله فلم تكن أوّل آيه فى كلّ سوره وفى مطلع الفاتحه وفى مطلع القرآن بصوره (بالله) أى ذكر لفظه الاسم للتنصيص والتأكيد على إرادته الاسم.

فإنّ استعمال لفظ الجلاله والأسماء الحسنى كما مرّ أنّ استعمالها تارة يراد به المسمّى، كما هو المنسب لاستعمالها، وأخرى يراد من استعمالها نفس الأسماء،

ص: ٥٥

فالاستعمال الأوّل آلى، والاستعمال الثانى موضوعى، لكن الآليّه والموضوعيّة ليست فى اللفظ ولا- فى المعنى، بل فيما وراء المعنى من واقع الاسم ووجوده، فإنّه تارة ينظر إليه كآيه وعلامه لذات الإلهيّة، وأخرى ينظر إليه بما هو هو.

وإرادته النحو الأوّل وتميّزها عن إرادته النحو الثانى فى الآيات والسور، وما يذكر من شؤون وصفات للأسماء، أمرٌ بالغ الأهميّة.

ولأجل عدم الإيهام فقد نصّ فى البسملة بتعلّق الاستعانة والتوسّل بالاسم، وهو حقيقة التوسّل بعدما عرفت من المباحث السابقة أنّ الأسماء فى واقعها وجودات وآيات مخلوقه عظيمه دالّه على العظمة الإلهيّة.

وبذلك يظهر أنّ التوجّه إلى الذات الإلهيّة لا يمكن إلّا بالتوسّل أو التوجّه إلى هذه الأسماء، فلولا الاسم لما أمكن التوجّه إلى الغيب المطلق، وكذلك يشير إلى ذلك قوله تعالى: (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) (١)، حيث اسند الدعاء إلى الاسم، وأنّ الدعاء والتوجّه إلى الاسم يؤدّى إلى التوجّه إلى الله، فعلّل دعاء أى من الأسماء فى التسويه بأنّها مملوكة له تعالى، وخاصّه به، ومن شؤونه المؤدّيه إليه.

ففى الآيه دلالة على أنّ الدعاء لا يتمّ إلّا بالتوسّل بالأسماء، ودعائه تعالى هو بدعاء أسمائه والتوسّل بها، كما أنّه فى ذيل الآيه الكريمة: (وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

أى أنّ الصدّ عن التوجّه والتوسّل بالأسماء إلى الذات الإلهيّة إلحاد فى الأسماء وذلك بإنكار الصلّه بين الأسماء والذات الإلهيّة وإنكار أنّ الأسماء الحسنى هى له

ص: ٥٦

تعالى، إذ مقتضى الإقرار بأن الأسماء له تعالى هو التوجه والتوسل بها إليه، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ) (١).

وكذلك يشير إليه قوله تعالى: (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا) (٢).

وكذا قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ) (٣).

فبين الباري تعالى أن التصديق والخضوع للآيات والتوجه والإقبال عليها لا الصدد عنها هو فتح لأبواب السماء لصعود الدعاء والأعمال، فأياته العظيمة المخلوقه جعلها أبواباً لسماء رحمة وأبواباً للوقوف على ساحه قربه.

ومن ثم ندب للتوجه والمجىء واللواذ بنبيه لأنه أعظم أبوابه، كما قال تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) (٤)، فجعله رحمه لكل العالمين، فهو رحمه الله الواسعه وباب نجاتهم، كما وصفه بأشرف أسمائه فى قوله تعالى:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَّحِيمٌ) (٥).

ص: ٥٧

١- (١) المنافقون ٥:٦٣.

٢- (٢) النساء ٤:٦٤.

٣- (٣) الأعراف ٧:٤٠.

٤- (٤) الأنبياء ٢١:١٠٧.

٥- (٥) التوبه ٩:١٢٨.

والاسم والآية والعلامة والدلالة من باب واحد في المعنى، وقد جعل الله الرسول الدليل عليه والداعي إليه والسراج المنير.

وكذلك أهل بيته من بعده، حيث قال تعالى: (إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلكلِّ قَوْمٍ هَادٍ) (١)، فصداره القرآن بالبسملة، وكذلك كلُّ السور يدلُّ على أهميته ودور التوسُّل بالأسماء الإلهية والأبواب الإلهية في الهدايه إلى ساحة التوحيد، وأنَّه من دون التوسُّل بها لا يتمُّ إقامه معرفه التوحيد.

وذلك لأنَّ الذات الإلهية من فرط العظمه والتعالى لا تقرُّ بالحدود ولا بالنهايات، فلا يكتنفها شيء ولا يحيط بها ولا يحدّها أمر، ومع هذا الحال فيمتنع سبيل المعرفه ويلزم التعطيل فيها.

إلّا أن يقام سبيل المعرفه والتوجّه إلى الذات الإلهية عبر الآيات التي هي الدلالات والعلامات.

فيتبين من ذلك ضروره التوسُّل بها والتوجّه إليها، فهي الركن الركين للإيمان، ومن ثمَّ أنذر الباري تعالى المستكبرين والصادقين عن أسمائه وآياته، وأعظمها رسوله المصطفى باستحاله دخول الجنّه، واستحاله الغفران لهم، وامتناع فتح أبواب سماء الرحمه لهم.

وإلى هذا البرهان العقلي تشير بضعه المصطفى عليها السلام في خطبتها: «واحمدوا الله الذي لعظمته ونوره يبتغي من في السماوات والأرض إليه الوسيله، ونحن وسيلته في خلقه، ونحن خاصّته، ومحلّ قدسه، ونحن حجّته في خلقه» (٢).

ص: ٥٨

١- (١) الرعد ١٣:٧.

٢- (٢) السقيفه وفدك: ١٠١. شرح نهج البلاغه لابن أبي الحديد: ١٦:٢١١.

وتتمه الكلام ستأتى إن شاء الله فى ذيل تلك الآيات.

نظام الأسماء الإلهيه فى عالم الخلقه

ومن البحوث الهامه فى الاسم والأسماء الإلهيه ما يرسمه القرآن الكريم فى جملة من الآيات من إسناد الفعل الإلهى إلى تلك الأسماء كأسباب فى نظام الخلقه، كما فى قوله تعالى: (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَ الَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى) (١).

فأسند هذه الأفعال بجملتها إلى الاسم الأعلى، إلى الربّ تعالى.

وكذا قوله تعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ) (٢).

فهنا الإسناد متمازج، وأن الإسناد إلى الاسم عينه الإسناد إلى الذات الإلهيه.

وكذا قوله تعالى: (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَ بَاقِيَ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَ الْإِكْرَامِ) (٣).

فهنا الجلال والإكرام وصف لوجه الربّ، وهو ما يتوجه به تعالى، وهو الاسم، وهذا التوصيف فى هذه الآيه فى قبال التوصيف فى آيه اخرى فى نفس السوره (تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَ الْإِكْرَامِ) (٤).

فالجلال والإكرام جعل وصف الربّ.

وكذا قوله تعالى: (أَمْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ) (٥).

ص: ٥٩

١- (١) الأعلى ١٧:١-٥.

٢- (٢) العلق ٩٦:١ و ٢.

٣- (٣) الرحمن ٥٥:٢٦ و ٢٧.

٤- (٤) الرحمن ٥٥:٧٨.

٥- (٥) يس ٣٦:٧١.

فأسند الخلق إلى الأيدي الإلهية، فهنا وصفت الأسماء الإلهية التي أسند إليها الخلق في آيات أخرى وصفت أنها أيدي إلهية، فهي مظاهر قدره الله وتصرفه.

وقوله تعالى: (وَ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَ تَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً) (١).

وقوله تعالى: (وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ) (٢).

وكذا قوله تعالى: (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) (٣).

فأسند التنزيه لاسم الرب، وكذلك الذكر لاسم الرب، وكذلك ما مضى في سورة الرحمن أسند التبارك لاسم الرب.

وكذلك اسندت الاستعانه في جمله من الآيات، كما في آيه البسملة، وكما في قوله تعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) (٤).

وقوله تعالى على لسان نوح: (وَ قَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَ مُرْسَاهَا) (٥).

وقوله تعالى: (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) ، أى التسييح والاستعانه بسم الرب.

كما أنه وصفت الأسماء تارة بالاسم الأعلى، كما مضى في سورة الأعلى، وتارة بالعظيم كما في الآيه الأخيره.

إشارات أخرى في البسملة

منها: أن مجيء اسم الرحمن الرحيم بعد اسم الجلاله يفيد إفاده تامه أن الحاكم

ص: ٦٠

١- (١) المزمل ٧٣:٨.

٢- (٢) الحج ٢٢:٢٨.

٣- (٣) الواقعة ٥٦:٧٤، ٩٦. الحاقه ٦٩:٥٢.

٤- (٤) العلق ٩٦:١.

٥- (٥) هود ١١:٤١.

فى عالم الخلقه وأفعال الذات الإلهيه هو ناموس الرحمه الإلهيه.

فأفعال البارى تعالى كلها مظهر رحمه، وأن هذا هو الأصل فيها المهيمن عليها، ومن ثم فإن غاية كل فعل إلهى هو الرحمه، كما مرّ فى البحث الروائى.

ويشير إليه قوله تعالى: (قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) (١).

وقوله تعالى: (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ) (٢).

وكذا قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) (٣).

وكذلك قوله تعالى: (فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) (٤).

وكذا قوله تعالى: (أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ) (٥).

وبين ذلك أيضاً البرهان العقلي أن الذات الأزليه غنى بالذات، ومن غناه الذاتى يتقرّر معنى الجود، حيث يفيض ما يفيض من الكمال والجود والقدرة والنعم لا لطمع غايه يستكمل بها، وهذا معنى الجود الحقيقى، فهو تعالى مصدر وجود كلّ ممكن - كما ورد فى الروايات - هو الجواد إن أعطى، وهو الجواد إن منع، وإن بسط، وإن أمسك فإمساكه وقبضه وتقديره ليس لنفاد الخير عنده، ولا لخوف

ص: ٤١

١- (١) الأنعام ١٢:٦.

٢- (٢) غافر ٧:٤٠.

٣- (٣) الأنبياء ١٠٧:٢١.

٤- (٤) يوسف ٦٤:١٢.

٥- (٥) ص ٩:٣٨.

افتقار، وإنما حكمه في تدبير المخلوق، ومن ثم يتقرر أنّ اسم الرحمن الرحيم مهيم على بقيه الأسماء الراجعة إلى صفات الفعل.

كما أنّ اسم الله مهيم على الأسماء الراجعة إلى صفات الذات، وأسماء الذات صفات الذات مهيمه على الأسماء المشتقه من صفات الفعل، أي غير خارجه عن مقتضاها بل إنّ تقررها مشتقّ تكويناً من أسماء الذات.

وعلى ضوء ذلك، فكلّ فعل هو بمقتضى الاسم الإلهي الفرع، لا بدّ أن يكون متناسباً مع الاسم الإلهي الركن، ومتناسباً مع معناه ومقتضاه، ومن ثمّ تفسّر البطشه الإلهيه والنقمه والعذاب بأنّ حكمتها وغايتها هي الرحمن، بمعنى أنّ العذاب والنقمه والجحيم هي بنفسها رحمه، سواء في نظام مجموع الخلقه أو لنفس المداوي بذلك العذاب، كما سنبيّن بيان ذلك في محلّه مفصّلاً.

فاقتران الأسماء الثلاثه في البسملة التي مرّ أنّها جمع فيها الكتاب يشير إلى هيمنه هذه الأسماء على بقيه الأسماء، كما أنّ مقتضى هيمنه اسم الجلاله (الله) على بقيه الأسماء هو أنّ أيّ فعل إلهيّ يصدر، لا بدّ أن يكون متناسباً مع اسم الجلاله بما له من معنى، أي متناسب مع الكمال الإلهيّ والصفات الذاتيه العليا، كما أنّ كلّ الأسماء لا بدّ أن تكون كاسم الله، وتبارك وتعالى متناسبه مع اسم الواحد والأحد.

وممّا يشير إلى نظام مراتب الأسماء ما في آخر سورة الحشر من الترتيب الذكريّ للأسماء، سواء بلحاظ طبقات الأسماء، أو بلحاظ مراتب الطبقة الواحد.

فجعل اسم (هو) وهو الذي يشير إلى غيب الذات، مهيم على اسم الجلاله (الله)، كما أنّ اسم الجلاله مهيم على اسم الرحمن الرحيم، كما أنّ هذه الطبقة

مهيمنه على الطبقة الثانيه وهى (الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ) (١)، وهذه الطبقتين تأثيراتها فى عالم الملكوت كما أنّها مهيمنه على الطبقة الثالثه، وهى (الخالق البارى المصوّر) الحاكمه مقتضياتها على عالم المادّه الغليظه من دار الدنيا.

)

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

معانى الحمد

روى الصدوق فى «الخصال»: عن على بن الحسين عليهما السلام، قال: «ومن قال:

الحمد لله فقد أدى شكر كل نعمه لله عزّ وجلّ عليه» (٢).

ونظيرها: روى الكلينى فى صحيحه صفوان الجمّال، عن أبى عبد الله عليه السلام، قال: «قال لى: ما أنعم الله على عبد بنعمه صغرت أو كبرت، فقال الحمد لله إلّا أدى شكرها» (٣).

بيان: الظاهر أنّ المراد أنّ بالحمد والتحميد يتأدى ويتحقّق الشكر، لا أنّ حقيقه الحمد هى الشكر.

وفى روايه اخرى رواها الكلينى، عن أبى عبد الله عليه السلام أنّ شكر الله حقّ شكره هو قول: الحمد لله (٤)، ويظهر من هذه الروايه أنّ هذا القول هو أتمّ ما يمكن أن يؤدى به الشكر، وإن كان لازم الإقرار بقول: الحمد لله هو الالتزام ببقية مراتب

ص: ٦٣

١- (١) الحشر ٥٩: ٢٣.

٢- (٢) الخصال: ٢٩٩، الحديث ٧٢.

٣- (٣) الكافى: ٢: ٩٦، الحديث ١٤.

٤- (٤) الكافى: ٢: ٩٧، الحديث ١٨.

وروى علي بن إبراهيم في تفسيره في الموثق عن أبي عبد الله عليه السلام، في قوله (الْحَمْدُ لِلَّهِ)، قال: «الشكر لله»، وفي قوله: (رَبُّ الْعَالَمِينَ)، قال: «خلق (خالق) المخلوقين»^(١).

وصدر الحديث محمول على تأديه الشكر بالحمد.

وروى الصدوق في «الخصال» عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «إِنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ عَالَمٍ، كُلُّ عَالَمٍ مِنْهُ أَكْبَرُ مِنْ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ وَسَبْعِ أَرْضِينَ، مَا يَرَى عَالَمٌ مِنْهُمْ أَنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَالَمًا غَيْرَهُمْ، وَأَنَا الْحَجَّةُ عَلَيْهِمْ»^(٢).

وقد ذكر في تعاريف الحمد لغةً أقوال كثيرة، فقد قال السيد علي خان المدني في «رياض السالكين»: «الحمد هو الثناء على ذي علم بكماله، ذاتياً كان كوجوب الوجود والاتصاف بالكمالات والتنزه عن النقائص، أو وصفيًا ككون صفاته كاملة واجبه، أو فعليًا ككون أفعاله مشتملة على حكمه، فأكثر تعظيمًا له، وآثره على المدح الذي هو الثناء على الشيء بكماله ذا علم كان أو لا»^(٣).

أقول: ما ذكره السيد من الفرق بين الحمد والمدح من أن الحمد أكثر تعظيمًا من المدح، قد أشارت إليه الروايات:

وهو أن الحمد وصف للكمالات العظيمة ومعالي الفضائل بخلاف المدح، فهو أعم من هذه الجهة والحمد أخص، ومن ثم فالمحمود أعلى شأنًا من الممدوح.

ص: ٦٤

١- (١) تفسير القمّي: ٢٨:١.

٢- (٢) الخصال: ٦٣٩، الحديث ١٤.

٣- (٣) رياض السالكين: ١: ٢٦٠.

والفارق الثاني: أنّ الحمد خاصّ بذى علم، بخلاف المدح فإنّه أعمّ.

وقد فرّق بينهما بالعلم دون الاختيار، وفي الجمع جعل الحمد نقيض الذمّ، والمدح نقيض الهجاء، والشكر نقيض الكفران.

والحمد قد يكون من غير نعمه، والشكر يختصّ بالنعمه، وذكر أنّ الشكر هو اعتراف بالنعمه مع ضرب من التعظيم، وأنّ الأصل فيه أن يكون في القلب، وعلى ضوء هذه المقابله فإنّ المدح إنشائي بالأصل وإن تضمّن الإخبار بالالتزام بخلاف الحمد، فإنّه إخبار في الأصل، وإن تضمّن الإنشاء، كما أنّ من هذه التفرقه يظهر أنّ الحمد يكون بدواعي عقلية بخلاف المدح، فإنّه يكون بعموم دواعي الإنشاء.

وفي «الكشاف»: «الحمد والمدح أخوان، وهو الثناء والنداء على الجميل من نعمه وغيرها. تقول: حمدت الرجل على إنعامه، وحمدته على حسبه وشجاعته»^(١).

وقيل: إنّ الحمد هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري^(٢).

وعلى أوسع تعاريف الحمد، فيكون هو الإخبار أو الوصف أعمّ من الذاتيه أو في مقام الأفعال.

وفي «مصباح الشريعة»: «أدنى الشكر رؤيه النعمه من الله من غير علّه يتعلّق القلب بها دون الله عزّ وجلّ والرضا بما أعطى، وأن لا يعصيه بنعمته وتخالفه بشيء من أمره ونهيه بسبب نعمته»^(٣).

ص: ٦٥

١- (١) تفسير الكشاف: ٤٦: ١.

٢- (٢) روض الجنان (ط. ق): ٤. جواهر الكلام: ١٠: ١٠٠.

٣- (٣) مصباح الشريعة: ٢٤.

ثم إن لفظه الرب قد استعملت في القرآن بمعنى مطلق المدبر، كما في سورة يوسف: (وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ) (١).

(فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسئَلُهُ مَا بِالْأَنْسَوَةِ اللَّاتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ) (٢).

جامعيه الحمد

وحيث أن معنى الحمد يتضمّن معنى الشكر - كما مرّ -، ومعنى الشكر منطوق الاعتراف بالنعمة من المنعم فضلاً عن الاعتراف بالمنعم كما يتضمّن نحو تعظيم للمنعم، ومن ثم قيل في تعريفه أيضاً: مقابله الإحسان بالإحسان بالابتداء بالحمد لله إشارة إلى وجوب الشكر الواجب للمنعم وهو يتضمّن الإقرار بالتوحيد بالذات والصفات والأفعال والإقرار بجمله الدين من الطاعة والعبودية له تعالى، حيث إن مقام الإحسان بعد الاعتراف بمقام العبودية لله تعالى إنما يكون لقيام العبد بخدمه وطاعه مولاه، ومن ثم قوبل الشكر بالكفر في قوله تعالى: (إِذَا شَاكِرًا وَإِذَا كَفُورًا) (٣)، وإلى ذلك تشير الآيات في سورة لقمان أن أول أمر كان في حكمه لقمان هو الشكر لله، كما في قوله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ) (٤).

وهذا الذيل إشاره إلى أن شكر العبد للبارى نفعه أيضاً راجع إلى العبد،

ص: ٦٦

١- (١) يوسف ١٢:٤٢.

٢- (٢) يوسف ١٢:٥٠.

٣- (٣) الإنسان ٣:٧٦.

٤- (٤) لقمان ٣١:١٢.

ولا ينتفع البارى منه بشىء لأنه غنى حميد.

فالشكر كما ورد فى الروايات يقتضى شكراً.

ومن ثم كان مقام الحمد هو مقام الطائعين، وحال العصيان مقام سخط، ومن ثم قيل: إن الحمد يتضمن الرضا، فمقام الحمد مقام جامع للدين كله، مبتدئه ومنتهاه، فهو مفتتح الأمور وختامها، ولعل إليه الإشارة: (وَ آخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (١).

ومن هنا يفهم معنى كون لواء الحمد لواء النبى وبيد على عليه السلام.

وفيه إشارة إلى أن منهاج على هو طريق النجاه، وهو باب مدينته، فلفظ (الْحَمْدُ لِلَّهِ) ذكر جامع لجمله ما فى القرآن الكريم.

المقارنه بين البسملة والحمد

فإنه قد جعل مفتتح الأشياء البسملة، ويشير إليه أيضاً قوله تعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ) (٢)، فإنه جعل مبتدأ القراءة مستعين بيسم الرب، ثم جعلت القراءة مصاحبه بالتحميد والتوصيف له تعالى بالكمال: اقْرَأْ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ

وقد أخرج السيوطى فى «الدر المنثور» جملة من مصادرهم، قوله صلى الله عليه وآله:

«كل أمر ذو بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أقطع» (٣).

وهذه الروايه قد رويت مستفيضه فى البسملة، ولعل الاشتباه من الرواه، وعلى تقرير صحه صدورهما، ففيها إشارة إلى نحو تطابق بين معنى البسملة

ص: ٦٧

١- (١) يونس ١٠: ١٠.

٢- (٢) العلق ٩٦: ١-٣.

٣- (٣) الدر المنثور: ١٠: ١.

والحمد، وقد يقرّر بأنّ في البسملة اعتراف ضمنى بإنعام الله تعالى والتعظيم له.

وفي «نهج البلاغه»: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْحَمْدَ مِفْتَاحاً لِذِكْرِهِ، وَسَبَباً لِلْمَزِيدِ مِنْ فَضْلِهِ، وَدَلِيلًا عَلَى آلَائِهِ وَعَظَمَتِهِ» (١)، ولعلّ مفاده ما تقدّم.

حقيقه الحمد و الحسن و القبح العقليين

فإنّ واقعیه الحمد تقتضى واقعیه المدح، وهى تقتضى واقعیه الحسن العقليّ، ومن تعريف الحمد بأنّه النعت بالكمال يتقرّر تعريف المدح بأنّه الثناء بالجميل، والكمال، والكمال أمر واقعيّ وليس اعتباريّ، فالوصف به مع مطابقه الواقع يكون كالصدق على خلاف الذنب، فإنّه الوصف بالنقص، ومنه يظهر زيف ما ادعى من أنّ المدح والذمّ أمران اعتباريان تتطابق عليهما آراء العقلاء ويتباينون عليهما كأداب المصالح العامه، وكآراء محموده، فإنّما الكمال والنقص واقعيان بغضّ النظر عن الآراء والتوافقات العقلانيه.

وكذلك الوصف بهما الذى هو حقيقه ماهيه المدح والحمد، وماهيه الذمّ والهجاء، ومن ثمّ يقال: مدح صادق ومدح كاذب، وكذلك بالذمّ والهجاء، أى يجعل واقع مدار لمطابقته وعدمها.

ومن ثمّ فإنّ صفه الحمد واسمه من الأسماء الحسنى له تعالى بغضّ النظر عن نشأه النظام الاجتماعى.

كما ورد فى دعاءه عليه السلام: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الْأَوَّلِ قَبْلَ الْإِنشَاءِ وَالْإِحْيَاءِ، وَالْآخِرِ بَعْدَ فَنَاءِ الْأَشْيَاءِ» (٢).

ص: ٦٨

١- (١) نهج البلاغه: الخطبه ١٥٧.

٢- (٢) بحار الأنوار: ١٣٤: ٨٧، الحديث ٢.

وبذلك تظهر المغالطه فى التفكيك بين المدح والحمد، وبين الكمال والملائم، أو بين الذمّ والنقص والمنافر، كما ارتكبه الأشعري ووافق عليه ابن سينا، ومن ذلك يظهر أيضاً أنّ الحمد عنوان لفطره العقل، أو لإدراك فطره العقل، ومن ثمّ يتطابق مع ما مرّ من وجوب شكر المنعم المستفاد من الحمد، إذ هو من مدركات العقل العمليّ، أو يمكن تقريره أنّه من مدركات العقل النظرى، فالابتداء بالحمد إشاره إلى أنّ مبدأ الإقرار بالدين هو إدراك العقل للمنعم وإنعامه، ووجوب شكره وقبح الجحود، وأنّ كمال المخلوق فى شكر المنعم ونقصه وترديّه فى الجحود والكفر.

)

رَبِّ الْعَالَمِينَ

إشاره

وقال تعالى: (وَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا) (١).

وقد تقدّمت الروايه من أنّ العوالم التى خلقها الله عزّ وجلّ اثنى عشر ألف عالم، كلّ منها أكبر من سبع سموات وسبع أرضين. والروايه عن أبى عبد الله عليه السلام: «إنّ لله عزّ وجلّ اثنى عشر ألف عالم، كلّ عالم منهم أكبر من سبع سموات وسبع أرضين، ما يرى عالم منهم أنّ الله عزّ وجلّ عالم غيرهم، وأنا الحجّه عليهم» (٢). وروى الصدوق فى «التوحيد» عن أبى جعفر عليه السلام فى حديث: «لعلّك ترى أنّ الله إنّما خلق هذا العالم الواحد أو ترى أنّ الله لم يخلق غيركم، بلى والله خلق ألف ألف وألف ألف آدم أنت فى آخر تلك العوالم وأولئك الأدميين» (٣).

ص: ٦٩

١- (١) الزمر ٣٩: ٦٩.

٢- (٢) الخصال: ٦٣٩، الحديث ١٤.

٣- (٣) التوحيد: ٢٧٨، الحديث ٢.

بيان: قد وردت لفظه العالمين فى قوله تعالى: (وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) (١).

وقوله تعالى: (فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ رَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (٢).

وفى صفة القرآن: (وَ مَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ) (٣).

فالعالمين سواء حملت على الأمم بحسب الأزمنة، أو على العوالم، فإن فى الآيات إشاره إلى أن البعثه لسيد الرسل هى إلى الجميع، ومن هنا يكون مقام أوصيائه كذلك، وإليه الإشاره فى قوله عليه السلام: «وأنا الحجة عليهم».

وهذا المقام من عموميه بعثه الرسل من خواص سيد الأنبياء، وبذلك يفضل أوصياؤه.

ومن الموارد التى استعملت العالمين فى امم شعوب البلدان قوله تعالى:

(وَ لَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَ الْحُكْمَ وَ النَّبُوَّةَ وَ رَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَ فَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ) (٤)، فإن المراد امم بلدانهم، أى أمم البلدان فى زمانهم بقرينه قوله: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) (٥).

وكذا قوله تعالى فى شأن مريم: (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَ طَهَّرَكِ وَ اصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ) (٦).

ص: ٧٠

١- (١) الأنبياء ٢١: ١٠٧.

٢- (٢) الجاثية ٤٥: ٣٦.

٣- (٣) القلم ٦٨: ٥٢.

٤- (٤) الجاثية ٤٥: ١٦.

٥- (٥) آل عمران ٣: ١١٠.

٦- (٦) آل عمران ٣: ٤٢.

ثمَّ إِنَّ تَعْقِيبَ (الْحَمْدُ لِلَّهِ) بِصِفِهِ (رَبِّ الْعَالَمِينَ) ، ثُمَّ بَعْدَهَا بِصِفِهِ (الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) ، ثُمَّ بَعْدَهَا بِصِفِهِ (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) بِمِثَابِهِ التَّعْلِيلَ لِلْحَمْدِ، وَيُمْكِنُ أَنْ تُجْعَلَ صِفُهُ (رَبِّ الْعَالَمِينَ) : بِمَعْنَى الْمَبْدِءِ لِعَوَالِمِ الْخَلْقِ، وَ (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) إِشَارَةً إِلَى الْمُنْتَهَى، وَأَنَّهُ إِلَيْهِ الْمَعَادُ وَالْمُنْتَهَى، وَأَنَّ غَايَةَ خَلْقِهِ الْخَلْقَ مَبْدَأً وَمُنْتَهَى هُوَ الرَّحْمَةُ وَالْإِنْعَامُ وَالْجُودُ وَالْكَرَمُ وَظُهُورُ صِفَاتِهِ صِفُهُ (الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) بِهَذَا الْفِعْلِ وَهُوَ الْخَلْقُ.

نَذَكُرُ صِفَهُ (الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) فِي الْبَسْمَلَةِ وَهِيَ الْآيَةُ الْأُولَى، وَبَعْدَ الْآيَةِ الثَّانِيَةِ الْمَتَضَمِّنَةِ لِلْخَلْقِ كَأَنَّهُ بَيَانٌ لِكُونَ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ مَنشَأً لِلْخَلْقِ وَمُنْتَهَى وَغَايَةَ لَهَا، كَمَا أَنَّهُ يَحْتَمِلُ فِي ذِكْرِ (الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) أَنَّ الْأُولَى صِفُهُ فِي مَرْتَبَةِ الصِّفَاتِ الذَّاتِيَةِ وَالْأَخِيرَتَيْنِ فِي مَرْتَبَةِ الصِّفَاتِ الْفَعْلِيَّةِ.

)

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ

إِشَارَةٌ

إِنَّ مِنَ الْمُرْتَكِزِ فِي عُمُومِ الْأَذْهَانِ أَنَّ الْآيَةَ تُشِيرُ إِلَى الْمَعَادِ، وَأَنَّهُ الْمُرَادُ بِيَوْمِ الدِّينِ، أَيْ يَوْمِ التَّدَايِنِ وَالْحِسَابِ، وَالْمَالِكُ لَهُ يَوْمَانِ هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ * يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ * الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) (١).

وَلَكِنْ فِي سُورَةِ عَدِيدِهِ أَكَّدَ عَلَى أَنَّ الْمَلِكَ مُطْلَقًا هُوَ لِلَّهِ تَعَالَى، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ

ص: ٧١

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبُرَهُ تَكْبِيرًا (١).

وقوله تعالى: (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ) (٢).

وقوله تعالى: (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (٣).

وقوله تعالى: (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (٤).

وقوله تعالى: (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ) (٥).

وقوله تعالى: (لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) (٦).

ففى هذه الآيات بيان أنّ الملك فى مطلق العوالم هو لله وهو برهان على أنّ المعاد إليه تعالى، لأنه هو الذى بيده إعطاء العقاب لكلّ شىء، وإفاضه كلّ غايه على كلّ ذات بحسب صفاتها وأفعالها، فبراهين ودلائل المبدأ هى بنفسها مقتضيه لكونه المنتهى، فليس ملكه منحصر بيوم القيامة.

وكذا قوله تعالى: (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ) (٧)، وهى أيضاً تبين أنّ المجازات وإيصال كلّ شىء إلى غايته هى بيده

ص: ٧٢

١- (١) الإسراء ١٧: ١١١.

٢- (٢) آل عمران ٣: ٢٦.

٣- (٣) آل عمران ٣: ٢٦.

٤- (٤) المائدة ٥: ١٧.

٥- (٥) النور ٢٤: ٤٢.

٦- (٦) الحديد ٥٧: ٥.

٧- (٧) الفتح ٤٨: ١٤.

تعالى، بدليل أنّ الملك مطلقاً له، نظير تعليل الشفاعة، وأنها بيده، كما في قوله تعالى: (قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (١).

إلّا أنّ في جملة من الآيات تخصيص إسناد الملك يوم الدين إليه تعالى، وهذا ليس من تخصيص ملكه ليوم الدين، بل من تخصيص ملك يوم الدين به تعالى من قبيل حصر الصفه بالموصوف لا الموصوف بالصفه، كما في قوله تعالى: (وَ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَ لَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) (٢).

وقوله تعالى: (حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ * الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ) (٣).

وقوله تعالى: (وَ يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَ نُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلاً * الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ لِلرَّحْمَنِ وَ كَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً) (٤).

إلّا أنّه يقع الكلام في وجه هذا التخصيص، فإنّ في ذلك اليوم أيضاً قد أسند جملة من الأفعال إلى الملائكة، كما أنّ الشأن في دار الدنيا وبقية العوالم أيضاً هو كونه تعالى مالك الملك، فأى وجه يبقى للتخصيص حينئذ؟

ولعلّ الوجه في ذلك أنّ في دار الدنيا حيث أنّها دار امتحان، فقد تتخلّف المشيئة الإلهية التكوينية عن الإرادة التشريعية بحسب المقاييسه إلى ذات الفعل المحدود، فتختلف إرادته العبد عن الإرادة التشريعية الإلهية، وأمّا في دار الآخرة

ص: ٧٣

١- (١) الزمر ٣٩: ٤٤.

٢- (٢) الأنعام ٦: ٧٣.

٣- (٣) الحج ٢٢: ٥٥ و ٥٦.

٤- (٤) الفرقان ٢٥: ٢٥ و ٢٦.

فلا مجال لذلك التغير، وتكون إرادته العبد دائماً منطبقه مع الإرادة الإلهية، فضلاً عن المشيئة الإلهية، كما في قوله تعالى: (بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) (١)

وكما في قوله تعالى: (نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) (٢).

وكما في قوله تعالى: (لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ) (٣).

فهذا شأن أهل الجنة بأن مشيئتهم وإرادتهم مرضية له تعالى، وأمياً أهل النار فإنهم بتوسط ما يجرى عليهم من ألوان العذاب فيوصفون بقوله تعالى: (وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ) (٤)، ووصفوا بأوصاف أخرى، كما في قوله تعالى:

(وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ) (٥).

وكذا قوله تعالى: (لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤْسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ) (٦)، فيوم الدين هو يوم اللقاء، وهو دار القرب الإلهي، وليس يجوز فيها العصيان والتمرد على المشيئة الإلهية، وإن لم تنعدم إرادته المخلوق، كما يشير قوله تعالى لإبليس عندما عصى الأمر بالسجود، قال:

(فَأهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا) (٧).

ص: ٧٤

١- (١) الأنبياء ٢١: ٢٦ و ٢٧.

٢- (٢) التحريم ٦٦: ٦.

٣- (٣) ق ٥٠: ٣٥.

٤- (٤) الغاشية ٨٨: ٢ و ٣.

٥- (٥) عبس ٨٠: ٤٠ و ٤١.

٦- (٦) إبراهيم ١٤: ٤٢ و ٤٣.

٧- (٧) الأعراف ٧: ١٣.

ويستفاد من هذه قاعده وسننه كونيه وهي أنّ العوالم كلّما قربت من الحضرة الإلهيه كلّما كان التسليم للإراداه والمشيه الإلهيه أشدّ، فكلّما كان القرب أقرب كلّما كانت الطاعه أشدّ، وكلّما كانت أقلّ كان المقام أبعد، ومن ثمّ كان عالم الدنيا والأرض من أبعد العوالم عن الحضرة الإلهيه وأهبطها وأدناها، فتوصيف عوالم القرب والزلفى الإلهيه بأنّها عوالم الملك الإلهي، بهذا اللحاظ، أى أنّه يكون ظهور الملك الإلهي وتوحد الإراده الإلهيه أجلى، ويشير إلى ذلك قوله تعالى:

(أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ * جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ) (١).

هذا، وقد روى في «نور الثقلين» عن أهل البيت عليهم السلام كلّ من قراءه (مالك) وقراءه (ملك) (٢)، وإن كانت الأولى أكثر روايه، وأمّا القراءات العشر فالأشهر عندهم قراءه (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)، وقرؤها أيضاً ب (ملك) يوم الدين، وهناك قراءات شاذّه اخرى نظير قراءه (ملك) بصيغه الفعل الماضى، و (مليك) بصيغه فعيل، وغيرها من القراءات الشاذّه.

)

يَوْمِ الدِّينِ

روى في «الفقيه» روايه الفضل للعل عن الرضا عليه السلام أنّه قال: «(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) إقرار له بالبعث والحساب والمجازاه، وإيجاب ملك الآخره له، كما ييجاب ملك الدنيا» (٣).

ص: ٧٥

١- (١) ص ٣٨: ١٠ و ١١.

٢- (٢) نور الثقلين: ١٩: ١، الحديث ٧٩ و ٨٠.

٣- (٣) نور الثقلين: ١٩: ١، الحديث ٨١. من لا يحضره الفقيه: ٣١٠: ١، الحديث ٩٢٦. علل الشرائع: ١: ٢٦٠، الحديث ٩.

ويقع الكلام في إطلاق وتسميه اليوم في مقابل الليل على مشهد الحساب والبعث، وقد اطلق عليه اليوم في موارد عديده من الآيات والسور.

فسمى باليوم الآخر: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ مَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ) (١).

وسمى بيوم القيامة: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (٢).

و (يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ) (٣).

وأضيف اليوم إلى نعوت أحوال القيامة، كما اطلق اليوم على المشاهده الحافله بالأحداث العظيمه، كقوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ) (٤).

وقوله تعالى: (وَ ذَكَرْتُهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ) (٥).

وقوله تعالى - في مشهد غدیر خم - : (الْيَوْمَ يَنْسَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَ أَحْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصِهِ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (٦).

ص: ٧٦

١- (١) البقره ٢:٨.

٢- (٢) البقره ٢:١٧٤.

٣- (٣) الأنعام ٦:٧٣.

٤- (٤) آل عمران ٣:١٥٥.

٥- (٥) إبراهيم ١٤:٥.

٦- (٦) المائده ٥:٣.

وقوله تعالى: (يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ) (١).

وقوله عن بدر: (يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ) (٢).

وقوله تعالى: (يَوْمَ الْحُجِّ الْأَكْبَرِ) (٣).

وقوله تعالى: (وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ) (٤).

وقوله تعالى: (يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) (٥).

وفى قوله تعالى: (وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ) (٦).

وقوله تعالى فى طوفان نوح: (قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ) (٧).

وقوله تعالى فى شأن إبليس: (قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ) (٨).

وقوله تعالى عن الرجعة: (وَ يَوْمَ نَبَعْتُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ) (٩).

وقوله تعالى: (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ) (١٠).

ص: ٧٧

١- (١) الأعراف ٧: ١٥٨.

٢- (٢) الأنفال ٨: ٤١.

٣- (٣) التوبة ٩: ٣.

٤- (٤) التوبة ٩: ٢٥.

٥- (٥) التوبة ٩: ٣٦.

٦- (٦) هود ١١: ٣.

٧- (٧) هود ١١: ٤٣.

٨- (٨) الحجر ١٥: ٣٧ و ٣٨. ص ٣٨: ٨٠ و ٨١.

٩- (٩) النحل ١٦: ٨٤.

١٠- (١٠) الأنبياء ٢١: ١٠٤.

كما اطلق الليل على ليله القدر، فاستظهر أنّ هناك نزول للمقادير والقضاء الإلهي في ألواح القضاء، والقدر يُطلق عليه الليل بلحاظ عوالم الخلقه، واليوم يُطلق على العروج وما يتعاقب من العوالم عقب الآخر، كما يشير إليه قوله تعالى:

(تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) (١).

وقوله: (وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ) (٢)، وتقييد اليوم عند ربك إشاره إلى مقام القرب الإلهي لذلك العالم، فهو أيضاً يسير إلى قوس العروج في قبال النزول.

وقوله: (ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ) (٣).

وعلى ذلك تكون كلّ نشأ متأخره هي بمثابة اليوم للنشأ المتقدمه التي هي بمثابة الليل، باعتبار أنّ النشأ المتقدمه بما تحتوى من أحوال وأحكام ووقائع تكون بمثابة التقادير والقضاء في التأثير على النشأ اللاحقه، وكأنما الآثار الحقيقيه لكلّ نشأ إنما تظهر في النشآت اللاحقه والمتعقبه لها، فكلّ نشأ بمثابة السكن بالقياس إلى آثار النشأ اللاحقه، واللاحقه معاش وانبعثت عن ليل النشأ السابقه، ولعلّ إليه يشير الحديث النبوي: «الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا» (٤).

فكأنّ دار الدنيا منام ليلي، والموت والآخره انتباه ويقظه ويوم متعقب، وكذلك قوله تعالى: (وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (٥)،

ص: ٧٨

١- (١) المعارج ٧٠:٤.

٢- (٢) الحج ٢٢:٤٧.

٣- (٣) السجده ٣٢:٥.

٤- (٤) بحار الأنوار: ٤:٤٢، الحديث ١٨.

٥- (٥) العنكبوت ٢٩:٦٤.

وكأنما الحياه الدنيا كحياه الجنين في الرحم يبعث منها إلى الحياه الحقيقيه وهى الآخره، وكما فى قول سيد الشهداء الحسين بن على عليهما السلام: «الدنيا حلوها ومرها حلم» (١)، أى أن الإدراك الموجود فى هذه النشأه بالقياس إلى الإدراك الموجود فى عالم الآخره إدارك ضعيف، كما أن الوصول إلى الأشياء بحقائقها ليس متحققاً فى هذه النشأه، بل الأشياء وجواهرها فى النشأه اللآحقه أشد وجوداً وقوه وكمالاً، والوصول إليها أتم وإدراكها أحد، وإلى كل ذلك الإشاره فى قوله تعالى:

(لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَكُمْ فَبَصَرُكُمْ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) (٢).

فمن ثم يمكن تلخيص هذا المعانى بأن اليوم يستعمل فى المشهد الأقوى والأتم الحافل بالأهميه فى قبال الليل، حيث يستعمل فى الحال الممهّد والذى يُعدّ لما بعده. وعلى ضوء ذلك وعلى ما يقرّر من أن الجنه والنار مخلوقتان بالفعل كما هو المأثور فى روايتهم عليهم السلام، ويمكن أن يستظهر من بعض الآيات. بمقتضى ذلك كله يقدر أن نشأه يوم الدين قائمه بالفعل، إنما الخلق يسرون إليها بالانتقال من عالم ونشأه إلى اخرى، وهى نشأه من نشأت الملكوت، وبالتالى فيقرّر ما مرّ سابقاً من أن نشأت القرب الإلهي أشدّ مظهرًا للولايه الإلهيه وأكثر تجلياً للمشيئه والإراداه الربانيه، أو لظهور الملك الإلهي.

الدّين

فى «تفسير القمى» صحيحه أبى بصير عن أبى عبدالله عليه السلام فى حديث (مالِكِ

ص: ٧٩

١- (١) بحار الأنوار: ١١: ١٥٠.

٢- (٢) ق ٥٠: ٢٢.

يَوْمِ الدِّينِ) ، قال: «يوم الحساب، والدليل على ذلك قوله: (وَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ) (١) يعنى يوم الحساب» (٢).

وقد مرّ روايه «الفقيه» أنّ يوم الدين يوم الحساب، وقد ورد الدين واستعماله فى الآيات والسور، كما ذكر له اللغويون معانى عدّه، وهى منظويه فيه بنحو ما، منها الحساب والجزاء والعاده والخضوع والانقياد قبال المقرّرات والتشريع، ودان نفسه: أى أدلّها واستعبدها إن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٣) ، أى غير مملوكين، وقيل: غير مجزيين، ودان الرجل: إذا عزّ، أو إذا ذلّ، أو إذا أطاع، أو إذا أعطى، أو إذا اعتاد خيراً أو شراً، أو إذا أصابه الدّين، والدّين - بالكسر - اسم مصدر، والدّين المعنى فى المقام من قوله تعالى: (فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ * أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ) (٤) ، حيث تفسّر من جهه مآلى الأمور أنّها كلّها بيده تعالى، سواء فيما يقع فى دار الدنيا أو صيروره الأمور فى العوالم الأخرى إليه تعالى، فلا يخرج عن حاكميته وسلطانه وقهره شىء، ومن ثمّ فالمعاد مظهر من مظاهر توّحده فى القدره والسلطان والحكم، لا سيّما وأنّ اصول الدين كلّ أصل منها مظهر من مظاهر التوحيد كما سيأتى بيانه فى ذيل السوره، فإنّ المعاد توحيد لله فى الغايه والمنتهى، كما هو توحيد فى الحاكميه والمالكيه والقاهريّه والقدره والسلطان، بل إنّ فى هذه الآيه إشاره إلى أحد براهين المعاد، وكذا نظيراتها من الآيات التى سبق الإشاره إليها، وهى أنّه ما دام أنّ القدره والقيومه هى لله تعالى، فلا بدّ من كون الغايه هى العله الفاعليه، فبداهه خالقيه

ص: ٨٠

١- (١) الصافات ٣٧: ٢٠.

٢- (٢) تفسير القمى: ١: ٢٨.

٣- (٣) الواقعه ٥٦: ٨٦.

٤- (٤) التين ٩٥: ٧ و ٨.

اللّٰه تعالى وقيّاضيّته وقدرته تستلزم كونه الغايه، أى تستلزم المعاد إليه.

وبيان آخر، أنّ حاكميّته تعالى لها وجوه متعدّده من سلطانه التكويني وقيوميّته، ومن كونه مشرّعاً، وعن كونه قاضياً تكوينياً وتشريعاً، وسائساً كذلك، فثبوت هذه الصفات له تعالى بعينها تستلزم إطلاقها وعمومها ودوامها يستلزم الدين والهدايه والحساب والمجازاه التكوينيّته بألوانها ودرجاتها بيده تعالى، وكما يكون مفيض الكمال ومبدأ الفيوضات منه تكون غايه تكامل المخلوقات بالاقتراب من كماله بتوسط تلك الفيوضات، ومن ثمّ اشير في سوره التين إلى وجه التصديق وعدم التكذيب بيوم الدين إلى أنّه تعالى أحكم الحاكمين، وكذلك في سوره الفاتحه، حيث أنّه اضيف مالك إلى يوم الدين من إضافه الدليل إلى الدعوى، وهى مالك إلى القول والمعتقد وهو يوم الدين، فصفه مالك هى بنفسها برهان المعاد، فمن يستبين ويتبين لديه إطلاق مالكيه اللّٰه وحاكميّته وسيطرته وقدرته على كلّ المخلوقات والعباد، يستبين لديه أنّه رقيب عليهم، ولا يفلت من قدرته وسيطرته أحد منهم بأى عمل من أعماله، ومآل ونتائج أعمالهم وأحوالهم وصفاتهم إليه تعالى، لأنّه لا يخرج عن سيطرته وقت من الأوقات ولا عالم من العوالم، ولا أجل من الآجال ولا قدر من الأقدار.

وقد اشير إلى هذا البرهان فى سُور وآيات عديده بألفاظ مختلفه، وانطلاقاً من صفات وأسماء متعدّده منشعبه من وصف واسم القدره للتدليل على المعاد ويوم الحساب، وصيغه هذا البرهان لُمّيّه كما هو واضح، بخلاف جمله من صياغات البراهين الأخرى التى اعتمدها الفلاسفه ممّا مشار إليها فى الآيات والسور بالأحاديث انطلاقاً من الأعمال أو سير النفوس بأطوار وتكاملها، فإنّها أشبه بالبراهين الإتيّه.

روى الطبرسى فى «الاحتجاج» عن النبىِّ صلى الله عليه و آله: «(إِيَّاكَ نَعْبُدُ) أى واحداً، لا نقول كما قالت الدهريّه: إنّ الأشياء لا بدو لها، وهى دائمه، ولا- كما قالت الثنويّه الذين قالوا: إنّ النور والظلمه هما المدبران، ولا كما قال مشركو العرب: إنّ أوثاننا آلهه، فلا- نشرك بك شيئاً، ولا ندعو من دونك إلهاً، كما يقول هؤلاء الكفار، ولا نقول كما تقول اليهود والنصارى: إنّ لك ولداً، تعاليت عن ذلك علواً كبيراً»(١).

وروى فى «الفيقه» عن الفضل، عن الرضا عليه السلام: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ رَغْبَهُ وَ تَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ذَكَرَهُ، وَإِخْلَاصَ لَهُ بِالْعَمَلِ دُونَ غَيْرِهِ، وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ استزاده من توفيقه وعبادته، واستدامه لما أنعم الله عليه ونصره»(٢).

وروى العياشى عن بعض أصحابنا، قال: «اجتمع أبو عبدالله عليه السلام مع رجل من القدرية عند عبد الملك بن مروان، فقال القدرى لأبى عبدالله عليه السلام: سل عما شئت.

فقال له: اقرأ سورة الحمد.

قال: فقرأها، فقال الأموى (وأنا معه): ما فى سورة الحمد علينا، إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، قال: فجعل القدرى يقرأ سورة الحمد حتى بلغ قوله تعالى: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ، فقال له جعفر: قف، مَنْ نَسْتَعِينُ، وما حاجتك للمعونه؟! إنّ الأمر إليك، فَجَبَّتْ الَّذِي كَفَرَ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٣)»(٤).

ص: ٨٢

١- (١) الاحتجاج: ٢٥:١.

٢- (٢) من لا يحضره الفقيه: ١: ٣١٠، الحديث ٩٢٦.

٣- (٣) البقره ٢: ٢٥٨.

٤- (٤) تفسير العياشى: ١: ٢٣، الحديث ٢٤.

وروى فى «مجمع البيان»، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن الله تعالى من على بفتح الكتاب (إياك نعبد) إخلاصاً للعبادة، (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) أفضل ما طلب به العباد حوائجهم»^(١).

والعبادة فى اللغة هى الذلّ والانقياد والخضوع والطاعة، كما فى قوله تعالى:

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ (٢)، وقيل هى أعلى مراتب الخضوع والتعظيم وضرب من الشكر على اصول النعم.

وعن الراغب فى مفرداته، قال: «إنّ العبوديّة إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها لأنّها غاية التذلل ولا يستحقّها إلّا من له الإفضال، وهو الله تعالى»^(٣).

وهل العبوديّة فى مقابل الربوبيّة أو مقابل الألوهيّة أو غيرهما كمقابلتها بالمولى ذى الولاية.

التوحيد فى العبادة والاستعانة

ثمّ إنّ تقديم الضمير المفعول للفعل يفيد الحصر، وحينئذٍ فالآية مسوقة لحصر العبادة، وكلّ أنواعها لله تعالى، وكذلك حصر الاستعانة به بأنواع الاستعانات، إلّا أنّ الكلام يقع فى كَيْفِيَّةِ الأنواع، العبادات والاستعانات، وقد يقال بأنّ هذه السورة بتضمّنها لهذه الآيه من حصر العبادة بالله تعالى وهو توحيد العبادة وحصر الاستعانة لله، وهو توحيد الاستعانة، تعبير عن إتجاه الإسلام فى

ص: ٨٣

١- (١) مجمع البيان: ٧٢:١.

٢- (٢) يس ٣٦:٦٠.

٣- (٣) مفردات غريب القرآن: ٣١٣.

رفض الوسطاء بين الله والإنسان، هؤلاء الوسطاء الذين أفتعلتهم المذاهب، فتعلم السوره البشر أن يرتبط بالله بدونما واسطه وتبلور هذا الارتباط الوثيق بين الله والإنسان وبين الخالق والمخلوق دونما واسطه، وإن كان نبياً مرسلًا أو ملكاً مقرباً، ومن ثم صار لهذه السوره الصداره فى الكتاب العزيز، وهذا المضمون يحزر الإنسان عن أى موجود من الموجودات ويربطه بالله وحده.

ولو تحرك الإنسان فى دائره استنطاق الأسباب إنما يتحرك بدائره أمر الله تعالى وهو مسبب الأسباب.

والصحيح: أن العباده لله تعالى هى على أنماط بقدر ما للعباده من معانى، فمنها الطاعه والخضوع والانقياد والتذلل والتأليه والتوجه وغيرها، وهذه الأنماط منها ما قد فضّله البارى فى كتابه، فجعل من بنود طاعته طاعه رسوله، فإن اقتران طاعه الله مع طاعه الرسول فى موارد كثيره عديده للتأكيد على أن طاعه الله لا تنفك، بمعنى أن طاعه الله لا يمكن أن يتفرد بها عبد من دون أن تقترن بطاعه الرسول صلى الله عليه وآله، فجعل الله تعالى طاعه رسوله طاعه له، فقال: (مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) (١).

ولذلك جعل طاعه اولى الأمر مقرونه بطاعه الرسول وطاعته تعالى، فقال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ) (٢)، فلا تتم طاعه الله تعالى إلا باستكمال طاعه رسوله وأولى الأمر.

فتوحيده تعالى بالطاعه وهى نمط من العباده لا يتم إلا بطاعه من نصبهم الله سفراء بينه وبين خلقه، بل لو تمرد عاص على طاعه الرسول وأولى الأمر من أهل بيته، لما وحد الله فى الطاعه ولا كان موحداً لله فى هذا النمط من العباده، وكذلك

ص: ٨٤

١- (١) النساء ٤: ٨٠.

٢- (٢) النساء ٤: ٥٩.

الحال فى الانقياد والاتباع، لأن الطاعة تتضمنهما.

وكذلك الحال فى التعظيم، فإنه تعالى قد أمر بتعظيم رسوله وجعل تعظيمه من تعظيم الله، كما قال تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) * يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يُعْضُونَ آذَانَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى) (١).

وقال تعالى: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) (٢).

وغيرها من الآيات الدالة على عظام صفات النبى صلى الله عليه وآله، فمن رفع صوته فوق صوت النبى صلى الله عليه وآله فقد حبط إيمانه، ومن صغر قدر الرسول صلى الله عليه وآله واستهان بمقامه فقد تعدى على ساحه الربوبية، والأمر الإلهى بتعظيم الرسول صلى الله عليه وآله.

وكذلك الحال فى ما ذكره القرآن الكريم من مدائح وفضائل دالة على تعظيم أهل بيت النبى صلى الله عليه وآله، فلا يتم تعظيم الله عز وجل إلا بتعظيم من عظمه الله، فتعظيم الله الذى هو ضرب من العبادة لا يتم إلا بتعظيم الله وتعظيم كل من ندب الله إلى تعظيمه، فتوحيد الله فى هذا النمط من العبادة لا يتم إلا فى ذلك، فلا يمكن التفريق بين الله ورسوله، كما يقول القرآن: (وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) (٣).

وكذلك الحال فى التوجه إلى الله، فإنه كما أمر الله بالتوجه إليه كما فى قوله على

ص: ٨٥

١- (١) الحجرات ٤٩: ١-٣.

٢- (٢) التوبة ٩: ١٢٨.

٣- (٣) النساء ٤: ١٥٠.

لسان نبيّه إبراهيم: (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) (١).

وقوله تعالى: (بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ) (٢).

وقوله تعالى: (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) (٣)، فإنَّ التوجّه يعنى الاتّجاه بالوجه والتوجه إلى وجه الله تعالى، وهذا التلازم ذاتى معنى التوجّه، فالتوجّه - بالكسر - يتّجه إلى جهه المتوجّه - بالفتح - ويواجه وجهه.

وكذلك أمر الله بالتوجّه إلى نبيّه بغيه التوجّه إليه، فقال: (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا) (٤)، فاشتراط تعالى التوبه والإياب إليه بالتوجّه إلى رسوله، ومن ثمَّ يحصل التوجّه إلى الله والاستغفار.

وقال تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُؤُسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصِيدُونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ) (٥)، فذكر تعالى لزوم المجيء إلى رسول الله لحصول أوبتهم إلى الله تعالى.

وقال تعالى: (وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلٰى عَقْبَيْهِ) (٦)، فذكر تعالى أنّ الغايه من الأمر بالاتّجاه إلى قبله بيت

ص: ٨٤

١- (١) الأنعام ٦: ٧٩.

٢- (٢) البقره ٢: ١١٢.

٣- (٣) الأنعام ٦: ٥٢.

٤- (٤) النساء ٤: ٦٤.

٥- (٥) المنافقون ٦٣: ٥.

٦- (٦) البقره ٢: ١٤٣.

المقدس ثلاث عشر سنه، الغايه من هذا التوجه والعباده هو طاعه الله وطاعه رسوله واتباعه، لكي يعلم من يتمرد على طاعه الرسول وينقلب على عقبيه، كما ورد نظير ذلك فى قوله تعالى: (وَ مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَ فَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَ مَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَ سَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) (١).

حيث أنذر الله تعالى من ينبذ طاعه الرسول بعد وفاته، ويقول: من كان يعبد محمداً فمحمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ففكك بين طاعه الرسول وطاعه الله، ووصف حاله المسلمين عند وفاه الرسول من الانشداد والتعلق الشديد برسول الله بأنها عباده للرسول، وهى عباده طاعه وليس عباده تأليه وعباده حب، فكان ذلك التفكيك بين الطاعتين شعاراً استهله به تلك المسيره، ولذلك ندب الله عز وجل بالتوجه إلى أهل بيت النبى صلى الله عليه وآله فى قوله تعالى: (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) (٢).

وقال تعالى: (قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ) (٣).

وقال تعالى: قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٤)، فكانت مودّه أهل البيت والتوجه إليهم سبيل إلى الله تعالى.

فهذه دعوى من القرآن إلى مودّه أهل البيت عليهم السلام وولايتهم، وأنه بالتوجه إليهم هو اتخاذ سبيل إلى الله تعالى، والتوجه نمط من العباده فلا يتم توحيد الله تعالى

ص: ٨٧

١- (١) آل عمران ٣: ١٤٤.

٢- (٢) الشورى ٤٣: ٢٣.

٣- (٣) سبأ ٣٤: ٤٧.

٤- (٤) الفرقان ٢٥: ٥٧.

فى هذا النمط من العباده إلابالتوجه إلى النبى صلى الله عليه وآله وأهل بيته، لأنهم الأبواب التى نصبهم الله لعباده، كما مرّ فى الآيات.

ويشير إلى ذلك كله قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ) (١).

وكذلك فى العباده (بمعنى التولى لصاحب الولاية)، فإنه تعالى قد بين أن ولايته تعالى تنسحب وتنزل إلى ولايه رسوله وأوصيائه من أهل بيته عليهم السلام، وحصر هذه الولاية بهم، فقال تعالى: (إِنَّمَا وَكَّلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ) (٢)، فتوحيد الله فى الولاية التى هى ضرب من العباده لا يتم إلا بتولى الله ورسوله وأمير المؤمنين على بن أبى طالب وولده الطاهرين.

ولا يخفى أن هذه الضروب من العباده وتوحيد الله فيها من الطاعة والانقياد والتعظيم والتوجه والتولى إنما هى ثابتة بالذات لله تعالى، وثابتة بالتبع لرسول الله صلى الله عليه وآله فى المرتبة الثانية، وثابتة لأوصيائه من أهل بيته فى المرتبة الثالثة، وهذا الثبوت له ولأهل بيته كأبواب وآيات إلهية، وسبل إليه تعالى، وليسوا أنداداً من دونه تعالى، لأنّ الندّ ومن يكون من دون الله هو الذى يصدّ عن سبيل الله ويكون جتاً أو طاغوتاً، وأمياً من يصفه الله تعالى بأنه باب رحمته وسبباً إليه، كما مرّ فى الآيات السابقة، فهؤلاء هم وجه الله والسبيل إليه، وصراط هدايته، والأدلاء عليه، والهادين إلى رضوانه، وهم الذين يسوقون عباده إلى عبادته.

ص: ٨٨

١- (١) الأعراف ٧: ٤٠.

٢- (٢) المائدة ٥: ٥٥ و ٥٦.

وأما العبادة بمعنى التأليه والربوبيه والخضوع الخاصّ للخالق المستحقّ لأصول النعم بالذات، فهي خاصّه به تعالى، وإن كانت كيفيتها بدلاله هدايه النبي وأهل بيته، وبطاعتهم في كيفيته الخضوع لله تعالى.

وعلى ضوء ذلك يتبين أنّ الدين الحنيف ليس قائماً على نفى الوسائط وعلى نفى الارتباط بها، بل هو قائم على إقامه تلك الوسائط، كآيات ودلالات وأبواب منها يتّجه إلى الساحة الربوبيه، وأنّ بدونها لا تفتح أبواب السماء، وأنّها الأسماء الإلهيه التي يدعى بها الباري تعالى، كما مرّت الإشارة إلى ذلك في البسمله، والمقاله السابقه قد حصل فيها الخلط بين الوسائط التي تصدّ عن سبيل الله من العجب والطاغوت، والوسائط التي هي طرق إلى الله والآيات الداله على رضوانه ونعيمه.

فخلطوا بين أبواب الجحيم وأبواب الجنان، وبين الصراط المستقيم وصراط الجحيم، وإلا كيف ينفي الصراط وهو من ضروريات الدين.

ثم إنّ الحال في التوحيد في الاستعانه بالله تعالى، كما مرّ في التوحيد في العباده، وحصرهما به تعالى أي أنّ المراد منها أنّ المستحقّ للعباده بكلّ معانيها بالذات هو الباري تعالى، وأما غيره تعالى فثبت له بعض المعاني كالطاعه والاتباع والتولّي بالتبع، ولا ينافي ذلك التوحيد بعدما كانت تلك الموارد أبواباً وطرقاً إليه تعالى، فكلّها مظاهر توحيد الله في العباده، في قبال الموارد التي تصدّ عن سبيل الله وعن التأديه إليه.

كذلك الحال في التوحيد في الاستعانه، فإنّ العون منه تعالى بالذات، وهو الغنى المطلق وغيره فقير إليه تعالى مهما تعاظم خلقه، ولكن بتبع الله تعالى وإغنائه وإقداره للمكزمين تكون الاستعانه بهم بالتبع هي من مظاهر الاستعانه به

تعالى، وتوحيده بالاستعانه فى قبال الاستعانه واللواذ بأعدائه تعالى، ومن لم يأذن، كقوله تعالى: (وَ مَا نَقْمُوا إِلَّا أَنْ أَعْنَاهُمْ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ) (١).

وكقوله تعالى: (وَ لَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمْ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ رَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ) (٢).

وكقوله تعالى فى شأن يوسف ويعقوب: (أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بِصِيرًا) (٣).

وكقوله تعالى: (هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ) (٤).

والاستعانه نحو من التولى والولاية، ومن ثم فسرت الولاية بالنصره والمحبه فى بعض معانيها، كما فى قوله تعالى: (وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ تُمَّ لَا تُنصَرُونَ) (٥).

وقوله تعالى: (وَ إِنْ اسْتَنْصَرُواكُمْ فِى الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ) (٦).

فبين الله تعالى من خلال هاتين الآيتين أن من يجوز توليه واتخاذه ولياً يسوغ استنصاره والاستعانه به بحدود ما جعل الله له من ولايه، كما قال تعالى: (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ * وَ مَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ) (٧)، والتي قد نزلت

ص: ٩٠

١- (١) التوبه ٧٤:٩.

٢- (٢) التوبه ٥٩:٩.

٣- (٣) يوسف ٩٣:١٢.

٤- (٤) الأنفال ٦٢:٨.

٥- (٥) هود ١١٣:١١.

٦- (٦) الأنفال ٧٢:٨.

٧- (٧) المائده ٥٥:٥ و ٥٦.

فمن نهى تعالى عن ولايته وتوليه ينهى عن الاستعانه والاستنصار به، كقوله تعالى: (لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ) (١).

فهؤلاء الذين فى قلوبهم مرض كانوا يجعلون ولاءهم السياسى لليهود والنصارى بغير الاستنصار والاستعانه والاستغاثة بهم إذا تصدع كيان المسلمين، فمن ثم الآيات تزجرهم عن ذلك، وتبين أن مركز الولاة والتولى هو لله، ومن بعده للرسول، ومن بعده لأمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام، وأن الله ورسوله ووصيه هم الذين يحتوى بهم ويستنصر بهم ويستغاث ويلاذ بهم، لأن الرسول صلى الله عليه وآله ووصيه عليه السلام أبواب الله التى يلتجأ إليها، وهو التجاء إلى الله تعالى، فأبواب الاستعانه بالله كما بينها الله تعالى، وهى من توحيد فى الإستعانه لها مظاهر متعدده.

وكقوله تعالى فى الطرف الآخر: (وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ * لَا يَسْتَطِيعُونَ نصيرهم وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُخَضَّرُونَ) (٢)، أى أن تولى أولياء من دون الله ومن دون من أمر الله بولايتهم هو استعانه واستنصار بمن لا يضر ولا ينفع، وهو خلاف توحيد الله تعالى فى الاستعانه.

وكذا قوله تعالى: (يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئاً وَ لَا هُمْ يُنصَرُونَ) (٣) ،

١- (١) المائدة ٥١ و ٥٢.

٢- (٢) يس ٣٦:٧٤ و ٧٥.

٣- (٣) الدخان ٤٤:٤١.

فبيّنت أنّ من مقتضيات التولّي والولاية الاستنصار والاستعانة، إلّا أنّ ولايه الباطل لا توجب نفعاً ولا تركها يوجب ضرراً بخلاف ولايه الحقّ.

وكقوله تعالى: (وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصِرَكُمْ وَلَا أَنْفُسِهِمْ يَنْصِرُونَ) (١)، والآيه في سياق آيات قبلها: (أَيُّ شَرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ * وَ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ نَصراً وَ لَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصِرُونَ) (٢).

وقد مرّ أنّ المراد ب (مِنْ دُونِهِ) كلّ شيء يصدّ عن سبيل الله من الجبت والطاغوت من البشر أو الحجر، وهذا بخلاف ما يكون سبيلاً إلى الله ودالماً وهادياً إليه تعالى، وأمر بتولّيه ووصاله والمسارعه فيه، لأنّه يؤدّي إلى الله تعالى، فلا يكون من الله بل سبيلاً إليه وباب إلى رحمته وصراط إلى جنانه، ومن ثمّ كان أئمه أهل البيت يدعون إلى الجنّه وأئمه الضلال يدعون إلى النار، فقال تعالى عن النمطين:

(وَ جَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَ كَانُوا بآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) (٣).

(وَ جَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ) (٤).

وعن مَنْ هو دون الله قال تعالى: (وَ جَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصِرُونَ) (٥).

ص: ٩٢

١- (١) الأعراف ٧: ١٩٧.

٢- (٢) الأعراف ٧: ١٩١ و ١٩٢.

٣- (٣) السجده ٣٢: ٢٤.

٤- (٤) الأنبياء ٢١: ٧٣.

٥- (٥) القصص ٢٨: ٤١.

القراءات (١) حكي في «الكشاف» عن عليّ وأبي إهدنا ثبتنا - وقرأ عبدالله - أرشدنا (٢) انتهى.

والظاهر أنها ليست قراءة بل هي تفسير.

وفي «الدر المنثور»: عن ابن عباس، أنه قال: «اهدنا السراط المستقيم، وكذلك عن عبدالله بن كثير، وعن الفراء قال: قرأ حمزه: زراط، قال الفراء:

الزراط - لغه - لعذره و كلب وبنى عين» (٣)، وهذه ليست من القراءات التي يعول عليها، وذكر في «التبيان» أنه في ما روى عن أهل البيت عليهم السلام قراءة صراط من أنعمت عليهم، وذكره عن غيرهم أيضاً (٤).

وقد ورد في روايات أهل البيت عليهم السلام روايات مستفيضه في تفسير الصراط

ص: ٩٣

١- (١) قال الشيخ الطوسي في التبيان: ٤٠: «قرأ ابن كثير في روايه ابن مجاهد عن قنبر والكسائي من طريق ابن خلدون، ويعقوب من طريق روى وكذلك في «صراط» في جميع القرآن. الباقون ب (ص) وأشتمّ ال (ص) (ز) في الموضوعين، خاصه في روايه عليّ بن سالم، وفي روايه الدوري وخلاد إشمامها (الزاي) ما كان فيها (ألف ولام) وأما (الصاد) إذا سكنت وكان بعدها (دال) نحو (يصدر)، (فاصدع)، (يصدفون) فأشتمّ (الصاد) الزاي، حيث وقع، حمزه والكسائي وخلف ورويس. وفي مجمع البيان: ١٣٠: ذكر السين في الصراط.

٢- (٢) تفسير الكشاف: ١: ٦٧.

٣- (٣) الدر المنثور: ١: ١٤.

٤- (٤) تفسير التبيان: ١: ٤٣.

بولاً-يتهم عليهم السلام، ففي «معاني الأخبار» بإسناده إلى جعفر بن محمد عليهما السلام، قال: «قول الله عز وجل في الحمد (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) يعني محمداً وذريته عليهم السلام»^(١).

كذا في «معاني الأخبار»: «أن الصراط المستقيم أمير المؤمنين»^(٢).

وفي «معاني الأخبار» عن تفسير العسكري عليه السلام في قوله: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) ، قال: «أدب لنا توفيقك الذي به أطعناك في ماضى أيامنا حتى نطيعك كذلك في مستقبل أعمارنا، والصراط المستقيم هو صراطان: صراط في الدنيا، وصراط في الآخرة.

فأما الطريق المستقيم في الدنيا فهو ما قصر عن الغلو، وارتفع عن التقصير واستقام، فلم يعدل إلى شيء من الباطل، وأما طريق الآخرة طريق المؤمنين إلى الجنة الذي هو مستقيم، لا يعدلون عن الجنة إلى النار ولا إلى غير النار سوى الجنة»^(٣).

وفي «معاني الأخبار» وصحيح ثابت الثمالي عن سيد العابدين علي بن الحسين عليهما السلام: «نحن أبواب الله، ونحن الصراط المستقيم»^(٤).

وفي «تفسير علي بن إبراهيم»: عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) قال: «الطريق معرفه الإمام»^(٥).

وفيه أيضاً صحيح حماد: عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله: (الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) قال: هو أمير المؤمنين عليه السلام ومعرفته، والدليل على أنه أمير المؤمنين قوله: (وَإِنَّهُ فِي

ص: ٩٤

١- (١) معاني الأخبار: ٣٣-٣٦، الحديث ٧.

٢- (٢) معاني الأخبار: ٣٢، الحديث ٢.

٣- (٣) معاني الأخبار: ٣٣، الحديث ١.

٤- (٤) معاني الأخبار: ٣٦، الحديث ٥.

٥- (٥) تفسير القمي: ٢٨:١.

أَمَّ الْكِتَابِ لَمَدِينَا لَعَلِّي حَكِيمٌ (١) ، وهو أمير المؤمنين عليه السلام في أم الكتاب والصراط المستقيم» (٢)، وذيل الروايه الظاهر أنه من كلام القمّي باعتبار أن أحد أسماء الفاتحه هو أم الكتاب.

وفى «تفسير فرات الكوفى»: بسنده عن محمد بن الحسين، عن أبيه، عن جدّه، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله فى قوله عزّ وجلّ: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) : دين الله الذى نزل به جبرئيل على محمد صلى الله عليه وآله (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ) شيعه على الذين أنعمت عليهم بولايه على بن أبى طالب عليه السلام لم تغضب عليهم ولم يضلّوا» (٣).

وروى الصدوق فى «إكمال الدين»: عن أبى جعفر عليه السلام: «... ونحن الطريق الواضح، والصراط المستقيم إلى الله عزّ وجلّ، ونحن من نعمه الله على خلقه» (٤).

بيان: وما فى الروايات من تعدّد تفسير الصراط متطابق فى المآل لأنّ تفسيره بدين الله ينطبق أيضاً على ولايه النبى وأهل بيته، لأنّ اسس الدين فى قول تعالى:

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ) (٥) ، ومفاد الآيه جمله الدين كله، كما فى قوله تعالى: (إِنَّمَا وَئِيكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ...) (٦) ، ومن ثمّ ينطبق على معرفه على وولايته عليه السلام.

ص: ٩٥

١- (١) الزخرف ٤٣:٤.

٢- (٢) تفسير القمّي: ١: ٢٨.

٣- (٣) تفسير فرات: ٥٢، الحديث ١٠.

٤- (٤) إكمال الدين: ٢٠٦، الحديث ٢٠.

٥- (٥) النساء ٤: ٥٩.

٦- (٦) المائدة ٥: ٥٥.

وهاهنا جمله من المحاور التي لا بدّ من التعرّض لها، وهي الهدآيه والصراط والذين انعم عليهم.

وتقريب المعنى إجمالاً أنّ سورة الفاتحة وهي امّ الكتاب قد مرّ أنّها عدل القرآن كلّ فيما منّ الله عزّ وجلّ على نبيّه بقوله: وَ لَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (١).

وقد مرّ أيضاً في الروايات أنّ من فضائل هذه السورة أنّ القرآن جمع فيه كلّ، وعلى ضوء ذلك فلا بدّ أن تكون اصول الدين قد بينت فيها برمتها، وقد مرّ أيضاً في صدر السورة بيان مقامات التوحيد والصفات والمعاد، وأمّا النبوه فقد مرّ في (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) أنّ توحيد العباده والتوحيد في الاستعانه لا يتمّ إلّا بالإقرار بطاعه وولايه الرسول صلى الله عليه وآله واتباعه والانقياد والتسليم إليه وتعظيمه والتوجه إليه وبه إلى الله، إذ لا تقبل الطاعه والعباده إلّا بدلاله وهدايه الرسول صلى الله عليه وآله فيما أتى به عن الله من تشريعات وفرائض وسنن، ورغم أنّ ظاهر الإسلام يتمّ بذلك لم تكتف بمجرّد ذلك، بل بينت أنّ طريق النجاه في الآخرة مرهون ومتوقّف على ما يزيد على ذلك، وهو الاهتداء بسلوك الصراط المستقيم اهتداءً بثله وصفهم الله بثلاث صفات: الأولى أنّهم منعم عليهم، والثانية أنّهم لم يغضب الله عليهم، والثالثة أنّه لم يضلّهم.

وبذلك تبين السورة أنّ في هذا الدين هناك ثله هداه لا بدّ من اتّباعهم والائتمام بهم كي يفوز المسلمون بالنجاه في الآخرة، وبهذا المفاد للسورة بيان يفيد أنّ الدين لا يقتصر على ظاهر الإسلام من الشهادتين، بل هناك درجه من الدين أعمق، وهي الهدايه باتباع الهادين من هذه الأمّه، وهم الأئمّه عليهم السلام، لأنّ من أركان

ص: ٩٦

معنى الإمامه فى اللغة الهدايه، فإنّ المأموم يتبع الإمام ويقتدى به، فتبين السوره حقيقه هامه وهى أنّ هناك درجتان فى التدين بالدين الحنيف:

الأولى: ما يتم به انتحال النسبه بالإسلام من الإقرار بالتوحيد والنبوه والمعاد.

والثانيه: هى درجه الإيمان الحاصله من الاهتداء والاقتراء والتولّى بالهداه الذين أنعم الله عليهم، وهذا تعليم لكلّ مسلم إذا قرأ هذه السوره المباركه فى صلوات يومه عشر مرّات أو أكثر، أن يفحص عن طريق الهدايه والنجاه، ولا- يكتفى بظاهر الإقرار باللسان، لتصدق عليه نحلّه الإسلام، بل لا بدّ أن يسعى لينتهج نهج الإيمان.

وهذا تأكيد فى أعظم سوره فى الكتاب العزيز على خطوره الاهتداء باتّباع الهداه (أى تولّى أئمّه دعاه إلى الرضوان)، ومن ثمّ يتبين مدى خطوره الإمامه فى اصول الاعتقاد الإيمانيه.

الهدايه عنوان للإمامه

ثمّ إنّ عنوان الهدايه قد قرن فى آيات وسور عديده بالإشاره للإمامه، كقوله تعالى: (إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلكلِّ قَوْمٍ هَادٍ) (١).

وقوله تعالى: (أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) (٢).

فتشير الآيه إلى أنّ الهادى الذى يستحقّ الاتّباع هو الذى تكون هدايته من ذاته من لدن الله تعالى، والاتّباع هو عبارته اخرى عن الائتمام، ومن ثمّ مرّ أنّ الهدايه من المعانى الذاتيه لمعنى الإمامه.

ص: ٩٧

١- (١) الرعد ١٣: ٧.

٢- (٢) يونس ١٠: ٣٥.

وكذا قوله تعالى: (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى) (١).

وتبيّن الآيه أنّ المغفره والنجاه مشروطه بالهدايه زياده على أصل الإيمان والعمل الصالح، وهي تتطابق مع مفاد الذى مرّت الإشارة إليه من هذه السوره.

الصَّراطُ

الملاحظ فى الروايات الوارده عنهم عليهم السلام أنّ جُلّها يفسّر (الصَّراطُ) بالنبيّ وأهل بيته الأئمّه عليهم السلام، ويفسّر (الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) بمن أقرّ بولايتهم وطاعتهم، فمضافاً إلى ما مرّ فى الروايات فقد روى فى «تفسير العسكرى عليه السلام».

ورواه فى «معانى الأخبار» أيضاً عنه الشيخ الصدوق رحمه الله، قال الإمام عليه السلام:

«صِراطُ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ» أى قولوا: اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم بالتوفيق لدينك وطاعتك، وهم الذين قال الله تعالى: (وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا) (٢).

وحكى هذا بعينه عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: ثمّ قال: «ليس هؤلاء المنعم عليهم بالمال وصحّحه البدن، وإن كان كلّ هذا نعمه من الله ظاهره. ألا- ترون أنّ هؤلاء قد يكونون كفّاراً أو فساقاً، فما ندبتم إلى أن تدعوا بأن ترشدوا إلى صراطهم، وإنما امرتم بالدعاء بأن ترشدوا إلى صراط الذين أنعم الله عليهم بالإيمان بالله والتصديق برسوله وبالولاية لمحمّد وآله الطيبين» (٣).

ص: ٩٨

١- (١) طه ٨٢:٢٠.

٢- (٢) النساء ٦٩:٤.

٣- (٣) تفسير الإمام العسكرى عليه السلام: ٤٧ و ٤٨. معانى الأخبار: ٣٦ و ٣٧، الحديث ٩.

وفى الروايه إشاره إلى أنّ ما فى الآيه من سوره النساء تطابق مع ما فى ذيل سوره الفاتحه من أنّ النعمه المنعم بها عليهم هى طاعه الله وطاعه الرسول، وأنّ بطاعه الله وطاعه سيّد الرسل انعم على جميع النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وهذا مقام عظيم لسيد الأنبياء، لا سيّما وأنّ لفظ (النبيّين) فى آيه النساء محلّى ب (ال) وبصيغه الجمع، ويفيد العموم والاستغراق، وأنّ ذلك هو الموجب لرضا الله عليهم، وأنّ ذلك هو رأس الهدايه لديهم، فضلاً عن الصدّيقين والشهداء والصالحين.

وهذا المعنى يتطابق مع ما فى آيه آل عمران: (وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ) (١)، وسيأتى بيان لطائف هذه الآيه فى موضعه.

وحجّل الروايات الوارده فى تفسير من أنعمت عليهم هى فى من آمن بالله وصدّق الرسول وصدّق بالولايه ولأهل بيته عليهم السلام، وفى بعضها بلفظ شيعه علىّ عليه السلام.

نعم، فى ثلاث روايات يستظهر منها أنّ الذين أنعمت عليهم هم أهل البيت عليهم السلام، وإن كانت غير آيه عن التأويل والحمل على مفاد سائر الروايات من كون الصراط هو ولايه الله ورسوله وأهل بيته، والذين أنعم عليهم هم الذين أقروا بولايتهم.

منها ما رواه الكراجكى بسنده عن الفضيل بن يسار، عن أبى جعفر عليه السلام، قال:

ص: ٩٩

«تلا هذه الآية - وهو ينظر إلى الناس - : (أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (١)، قال: يعنى والله علياً والأوصياء عليهم السلام» (٢)، وهى وإن احتملت تفسير من يمشى سويًّا، ولكن محتمله أيضاً لتفسير الصراط المستقيم.

وكذا ما رواه الصدوق فى «معانى الأخبار»: بإسناده إلى جعفر بن محمد عليهما السلام، قال: «قول الله عز وجل فى الحمد (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) يعنى محمداً وذريته عليهم السلام» (٣).

وهذا وإن كان ينسب إلى تفسير (أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ)، ولكنه لا يأتى أن يكون تفسيراً للصراط.

وروى الكراجكى أيضاً: بسنده عن أبى جعفر عليه السلام فى قوله تعالى: (هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (٤)، قال: «هو أمير المؤمنين عليه السلام يأمر بالعدل، وهو على صراط مستقيم» (٥).

وهذه وإن كانت أظهر الثلاثة، إلا أنها أيضاً لا دلالة فيها على كون الذين أنعم عليهم هم أهل البيت عليهم السلام وأن الصراط غيرهم، إلا بنحو التلازم، وعلى أى تقدير يستخلص من مجموع الروايات بما تتضمن من الإشارة إلى مجموعه ومنظومه من الآيات المتعرضة إلى الصراط المستقيم وإلى سبيل الله وسبله، كما يأتى

ص: ١٠٠

١- (١) المُلْك ٦٧:٢٢.

٢- (٢) كنز الفوائد للكراجكى: ١٨١. بحار الأنوار: ٢٢:٢٤.

٣- (٣) معانى الأخبار: ٣٦، الحديث ٣.

٤- (٤) النحل ١٦:٧٦.

٥- (٥) عن الكراجكى، بحار الأنوار: ٢٤:٢٤.

البحث عنها أنّ النبيّ وأهل بيته عليهم السلام هم الصراط الأقوم، والسبيل الأعظم إلى الله تعالى، بل وأنّ الصراط بقريته أنّه طاعه الله وطاعه رسوله وطاعه أولى الأمر من أهل بيته، وهو ولايته الله وولايه الرسول وولايه أهل البيت، فهو على مراتب ودرجات، ومنه يظهر أنّه بمقتضى سُودد خاتم النبيّين على جميع الأنبياء، فيكون هو الصراط لهم، وأنّ طاعته وولايته منهاج وسبيل لهم، كما مرّ في آية النساء.

وحيث أنّ ولايته أهل بيته تتبع ولايته صلى الله عليه وآله، كما في آية الولاية (١) وآية الطاعة (٢)، فهم يتبعون رسول الله في الرتبة، ومن ثمّ يصحّ أن يقال: إنّ أهل البيت عليهم السلام هم الصراط، وهم على صراط الله ورسوله، كما أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله على صراط الله، أي على طاعه الله وولايته، ومن ثمّ يتوجّه تفسير دعاء النبيّ وأهل البيت عند قراءته هذه الآيه، ومن هذا المقطع من السوره يتبين وجود هداه لهذه الأمة في كلّ زمن إلى يوم القيامة يهدون الأمة إلى النجاه، وأنّ هدايتهم عاصمه من الضلال، كما أنّها عاصمه من السخط الإلهي، ولا محاله يكون هؤلاء الهداه هم معصومين في جانب العلم وفي جانب العمل.

فالآيتان من آخر سوره الحمد تؤكّدان على أصل الإمامه، وأنّ الإمام الهادي هو الصراط الذي نصبه الله لهذه الأمة ولكلّ جيل منها في كلّ زمان يهتدون بهديه وسيرته ونهجه وطريقته إلى سلوك الصراط المستقيم، ومن ثمّ ورد في الروايات تفسير الصراط المستقيم هو معرفه الإمام، وهي في كلّ زمان.

فسوره الفاتحه تؤكّد على أنّ في كلّ زمن إذا ابتليت الأمة بالفتن والمنعطفات

ص: ١٠١

-
- ١- (١) إِنَّمَا وَدَّعْتُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ) المائدة ٥: ٥٥.
٢- (٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ) النساء ٤: ٥٩.

الخطيره من وجود هادى لهذه الأئمه إلى صراط الله وسيله، ومن ثم تكون هذه السوره المباركه تحثّ عموم المسلمين على البحث والفحص عن معرفه ذلك الإمام كى يعتصموا بالتمسك به وباتباعه عن الوقوع فى الغضب والسخط الإلهي، وعن الوقوع فى الضلال كى يحبوا بنعمه الهدايه الإلهيه، فمفاد الآيتين دالّ على أن لا تخلو الأرض من حجّه إلى يوم القيامه.

وإذا كان هذا الأصل بهذا المثابه من الخطوره، فلا محاله تدلّ الآيتان على كونه من اصول الاعتقاد الإيمانيه لما هو مقرّر من أنّ النجاه هو بالإيمان لا بصرف الإقرار بالإسلام لساناً.

ثمّ إنّه قد ورد الصراط فى جمله من الآيات الأخرى، كقوله تعالى: (قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا) (١).

وقوله تعالى: (مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَّتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (٢).

وقوله تعالى: (لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) (٣).

وقوله تعالى: (قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ) (٤) (وفى قراءه أهل البيت عليهم السلام لفظ علىّ ليس حرف جرّ وضمير متكلم) بل اسم علم لابن أبى طالب عليه السلام (٥).

ص: ١٠٢

١- (١) الأنعام ١٦١:٦.

٢- (٢) هود ٥٦:١١.

٣- (٣) إبراهيم ١:١٤.

٤- (٤) الحجر ١٥:٤١.

٥- (٥) بحار الأنوار: ١٥:٢٤، عن تفسير فرات الكوفى، وأيضاً الكراجكى فى كنز الفوائد، والعياشى، وقد ذكر فى معجم القراءات، قراءه جمله من القراء الكثرين علىّ - بالضم - معجم القراءات القرآنيه: ٣:٢٥٤.

وقوله تعالى: (فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى) (١).

وقوله تعالى: (وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ) (٢).

وقوله تعالى: (اخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ) (٣).

وقوله تعالى: (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ) (٤).

وهذه صفات متعدده للصراط، تارة يقسم إلى الصراط المستقيم وإلى صراط الجحيم، وأخرى يضاف إلى الباري تعالى، وثالثه يوصف بالسوي، ورابعه يفسر بالدين القيم، وخامسه يضاف الصراط إلى علي عليه السلام، كما أنه في مجمل الآيات توصيفه بأنه الطريق الذي يؤدي إلى الله تعالى، وأن مصير الأمور إليه تعالى.

وأما صلة الصراط بسبيل الله، لا سيما وأن السبيل اضيف إليه كما اضيف الصراط إليه، وأن السبيل يؤدي إلى الله تعالى كما أن الصراط يؤدي إليه، ففي جملة من الآيات كقوله تعالى: (وَ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) (٥).

وقوله تعالى: (وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا) (٦).

ص: ١٠٣

١- (١) طه ٢٠:١٣٥.

٢- (٢) الحج ٢٢:٢٤.

٣- (٣) الصافات ٣٧:٢٢ و ٢٣.

٤- (٤) الشورى ٤٢:٥٢ و ٥٣.

٥- (٥) العنكبوت ٢٩:٦٩.

٦- (٦) إبراهيم ١٤:١٢.

وقوله تعالى فى وصف الرسول: (يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ) (١).

وقوله تعالى: (وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) (٢).

وقوله تعالى: (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي) (٣).

وقوله تعالى: (فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ) (٤).

وقوله تعالى: (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (٥).

وقوله تعالى: (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا) (٦).

وقوله تعالى: (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا) (٧)، وهذه الآية بضميمه ما ورد من قوله تعالى: (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ) (٨)، فتكون الآيتان ناصتين على أنّ السبيل إلى الله مودّه

ص: ١٠٤

١- (١) المائدة ٥: ١٦.

٢- (٢) الأنعام ٦: ١٥٣.

٣- (٣) يوسف ١٢: ١٠٨.

٤- (٤) آل عمران ٣: ١٩٥.

٥- (٥) الأنعام ٦: ١١٧. النمل ٢٧: ١٢٥.

٦- (٦) الفرقان ٢٥: ٢٧ و ٢٨.

٧- (٧) الفرقان ٢٥: ٥٧.

٨- (٨) الشورى ٤٣: ٢٣.

قربى النبىِّ صلى الله عليه وآله وولائيتهم.

وقوله تعالى: (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) (١)، وظاهر هذه الآية أنّ هناك سبيلين:

١ - سبيل الشاكرين، وهو إلى الجنّة.

٢ - سبيل الكافرين، وهو إلى النار.

ومثلها قوله تعالى: (مَنْ نُطْفِئْهِ حَلَقَهُ فَعَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ) (٢)، ومقتضى هذه الآية والسابقه عليها أنّ معرفه الله وولائته ومعرفه الرسول وولائته وولايه قربى الرسول أهل بيته عليهم السلام مركزه فى فطره الإنسان.

وقوله تعالى فى شأن مؤمن آل فرعون (حزقيل): (وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ) (٣).

وقوله تعالى: (وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِزٌ) (٤).

وقوله تعالى: (وَيُضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ) (٥)، وظاهر هذه الآية وصف سبيل الله بالاستقامه، كما وصف الصراط بالاستقامه.

وكذلك قوله تعالى: (الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) (٦).

ص: ١٠٥

١- (١) الإنسان ٣:٧٦.

٢- (٢) عبس ١٩:٨٠ و ٢٠.

٣- (٣) غافر ٣٨:٤٠.

٤- (٤) النحل ٩:١٦.

٥- (٥) إبراهيم ٣:١٤.

٦- (٦) هود ١٩:١١.

وكذلك قوله تعالى: (قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) (١).

وقوله تعالى: (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصِِّلِهِ جَهَنَّمَ وَ سَاءَتْ مَصِيرًا) (٢)، وفي هذه الآية دلالة على أنّ مجرد الإقرار بالشهادتين لساناً من دون اتباع سبيل المؤمنين لا يضمن النجاة في الآخرة، وأنّ من شرائط النجاة في الآخرة اتباع سبيل المؤمنين، ولا يمكن أن يكون هذا الشرط من أحكام الفروع، بل لا بدّ أن يكون من الأركان وأصول الإيمان، وهذا ما مرّ استفادته من الآيتين الأخيرتين من هذه السورة.

وقد مرّ أنّ مودّه قريبي النبي صلى الله عليه وآله هي السبيل إلى الله تعالى، فسماهم في آية النساء بالمؤمنين، كما سماهم مرّه اخرى بالمؤمنين في قوله تعالى: (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ) (٣)، والقرينه على إرادته أهل البيت عليهم السلام من آية رؤيه الأعمال، وأنهم شاهدون لأعمال العباد، ما ورد في آخر سورة الحجّ من قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) (٤)، فبيّنت الآية أنّ الشهداء على الناس

ص: ١٠٦

١- (١) يونس ١٠: ٨٩.

٢- (٢) النساء ٤: ١١٥.

٣- (٣) () التوبه ٩: ١٠٥.

٤- (٤) الحجّ ٢٥: ٧٧ و ٧٨.

هم من ذرّيه إبراهيم عليه السلام، وهم الذين سمّاهم المسلمين في دعوته في سورة البقره بأن يكون من ذرّيته أمّه مسلمه (١) وهى التى دعا لها بأن تكون الإمامه فيها (٢)، فالشهداء على أعمال الناس سمّاهم بالمؤمنين، والمراد بذلك ليس عموم المؤمنين، بل أمّه المؤمنين من قربي النبي صلى الله عليه و آله الذين هم محلّ دعوه النبي إبراهيم في ذرّيته.

و كقوله تعالى: (وَ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (٣).

وقوله تعالى: (وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ) (٤).

فيلاحظ أنّ السبيل قد ورد بأوصاف متعدده، منها ما فى الآيه ٦٩ من سورة العنكبوت المتقدمه أنّ للهدايه سبل لا سبيل واحد، وكذلك ما فى سورة إبراهيم، وكذلك ما فى آيه المائده.

نعم، قد يفرد السبيل إليه تعالى فى مقابل السبل التى لا تؤدى إليه، كما فى آيه الأنعام، والملاحظ أنّه إذا اضيفت الذات الإلهيه بالضمير المفرد، أفرد السبيل، وإذا اضيفت إلى ضمير الجمع (الذى قد يفسّر بالتعظيم، وقد يفسّر بالجنود الإلهيه) تكون بصيغه الكثره، ولا يخفى المناسبه حينئذ من كون كلّ جند إلهى باب إليه تعالى، كما أنّ ما فى سورة إبراهيم من إضافه كثره السبل إلى المؤمنين قد يفيد ما اشتهر من أنّ الطرق على عدد أنفاس الخلائق، ولكنّ المراد حينئذ

ص: ١٠٧

١- (١) (رَبَّنَا وَ اجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَ أَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَ تَبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) البقره ١٢٨:٢.

٢- (٢) (وَ إِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) البقره ١٢٤:٢.

٣- (٣) الأنعام ٥٥:٦.

٤- (٤) النساء ٧٦:٤.

ليس ما بينى عليه بعض الصوفيّيه من أنّ عابد الوثن سبيله ذلك، بل ظاهر الآيه فى وصف المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله والمعاد ودين الإسلام؛ أنّ هؤلاء لكلّ منهم سبيل، وتكثر السبل بتكثر الجنود المقربين إليه تعالى هو الظاهر من قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ) (١)، فإنه وصف ارتباط بين الآيات والحجج الإلهية وأبواب السماء وأنّ للسماء الإلهية أبواب.

كما أنّ السبيل قد يضاف إليه تعالى، وقد اضيف إلى السلام، والظاهر أنّ المراد منه دار السلام، وتاره اضيف إلى ضمير الغائب العائده إلى الذات الإلهية، ورابعه اضيف إلى النبي صلى الله عليه وآله، وخامسه وصف السبيل بالمعنى للرسول صلى الله عليه وآله، كما أنّ السبيل اطلق على الفطره الإلهية المودعه فى الإنسان، الهاديه له إلى طريق الفلاح، كما فى آيه الدهر: (إِنَّا هَدَيْنَا السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) (٢)، كما أنّ فى تلك الآيه اطلق على غرائز الشهوه ونحوها أنّها سبيل وهدايه إلى الدركات، نظير قوله تعالى: (وَ هَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) (٣)، وفى آيه عبس أيضاً بين أنّ سبيل الهدايه مركز فى فطره الإنسان (مَنْ نُطِفَهُ خَلْقَهُ فَقَدَرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ) (٤)، ومن هنا يظهر من مجموع النمطين من الآيات نوع ارتباط بين الفطره الروحانيه والقلبيّه كسبيل هادٍ، ومن الرسول وأهل بيته كسبيل هاد إلى الله تعالى كما مرّ

ص: ١٠٨

١- (١) الأعراف ٧: ٤٠.

٢- (٢) الإنسان ٧٦: ٣.

٣- (٣) البلد ٩٠: ١٠.

٤- (٤) عبس ٨٠: ١٩ و ٢٠.

إطلاق السبيل على مودّه أهل البيت عليهم السلام، أى أنّ هدايه الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته للمؤمنين لا تقتصر على السنن الظاهره، بل تتصل بسلوك الروح منازل الكمال.

ثم عُرِفَت الهدايه بالإمامه والإمام فى بعدها الملكوتى، بأنّه رائد وهادى النفوس إلى المنازل المعنويّه، وبذلك يفسر قولهم عليهم السلام: «نور الإمام فى قلوب المؤمنين أضوء من الشمس المضيئه بالنهار، وهم والله ينورون قلوب المؤمنين، ويحجب الله عزّ وجلّ نورهم عمّن يشاء فتظلم قلوبهم.

والله يا أبا خالد، لا يحبنا عبد ويتولانا حتّى يطهر الله قلبه، ولا يطهر الله قلب عبد حتّى يسلم لنا ويكون سلماً لنا، فإذا كان سلماً لنا سلّمه الله من شديد الحساب، وآمنه من فزع يوم القيامة الأكبر»(١).

وإلى ذلك اشير إلى ارتباط بين الفطره العقلية فى الإنسان (أى العقل النظرى مع النبوه والرساله)، كما فى قوله تعالى: (فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) (٢)، فجعل الارتباط بين فطره الإنسان ودين الله.

وكما فى جمله من الآيات من وصف الرسول بالمدكر، ووصف القرآن بالذكر، وكما فى قوله عليه السلام: «وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ، لِيَسْتَأْذُوهُمْ مِثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَيَذَكِّرُوهُمْ مَنْسَى نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّلْبِيحِ، وَيُثَبِّرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ».

وكذلك إلى ارتباط بين العقل العملى (كهادٍ فى باطن الإنسان محدود) مع الإمام، باعتبار أنّ العقل النظرى هو مجرد إراءه من دون أن يكون سير وطىّ للسبيل والطريق، بينما العقل العملى هو الذى يكون فيه طىّ للطريق

ص: ١٠٩

١- (١) الكافى: ١: ١٩٤.

٢- (٢) الروم ٣٠: ٣٠.

ومن ثم كان العقل العملي هدايه إيصاليه للمطلوب، كما في قوله تعالى:

(أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) (١).

ومره اضيف السبيل إلى المؤمنين، وأنه منطبق على ولايه أهل البيت بقريته الآيات التي مرّت، وأنه من الأركان وأصول الإيمان، كما أنه مرّ في:

(وَيُضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ) (٢).

(الَّذِينَ يُضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) (٣).

(قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) (٤) وصف السبيل بالاستقامه نظير وصف الصراط بالاستقامه.

ويتحصّل من ذلك: أنّ السبيل تاره يُطلق على نفس الصراط، سواء كان صراط الهدايه للخير أو صراط الشرّ (صراط جهنّم)، وأخرى يطلق على السبيل المؤدّي إلى الصراط، ولعله بلحاظ مراتب الصراط، فإنّه كلّما تتعالى درجاته تتوخّد سياقاته، وكلّما تنزّل درجاته تكثر سبله، كما مرّ أنّ لكلّ نفس سبيل يؤدّي بها إلى الصراط، كما أنّ الأوصياء عليهم السلام كلّ منهم سبيل أعظم يؤدّي إلى صراط النبوّه والتوحيد، وقد ورد في الزيارة: «أنتُم السبيل الأعظم، والصراط الأقوم» (٥)،

ص: ١١٠

١- (١) يونس ١٠: ٣٥.

٢- (٢) إبراهيم ١٤: ٣.

٣- (٣) هود ١١: ١٩.

٤- (٤) يونس ١٠: ٨٩.

٥- (٥) الزيارة الجامعة

مما يشير إلى الدرجات في الصراط والسبل أن منها قيم ومنها أقوم، ومنها عظيم ومنها أعظم.

وقد عبّر عن سنن المعصومين بالطريقه في قوله تعالى: (وَ أَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا) (١)، (وَ أَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَ مِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا * وَ أَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا) (٢)، والطريق والطريقه قد ورد في آيات عديدة، كما في قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَ لَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَ كَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا) (٣).

فها هنا اطلق على صراط جهنم (طريق جهنم).

وقوله تعالى: (وَ لَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَ مَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ) (٤)، والطرائق جمع طريقه، فاستعملت الطرائق على أبواب السماء، وقد مر الارتباط بين أبواب السماء وحجج الله تعالى الذين هم آياته الذين يُصدّق ولا يكذب بهم، ويتوجه إليهم ولا يعرض عنهم، في الآية ٤٠ من سورة الأعراف.

وقوله تعالى: (وَ أَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَ مِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا) (٥).

ص: ١١١

١- (١) الجن ٧٢:١٦.

٢- (٢) الجن ٧٢:١٤ و ١٥.

٣- (٣) النساء ٤:١٦٨ و ١٦٩.

٤- (٤) المؤمنون ٢٣:١٧.

٥- (٥) الجن ٧٢:١١.

وقوله تعالى: (إِذْ يَقُولُ مُثَلِّهِمْ طَرِيقَهُ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا) (١)، وفي هاتين الآيتين اشير إلى أن لكل ذي روح طريقه للهدايه وطريقه للغوايه، نظير ما مرّ في السبيل.

وفي قوله تعالى: (قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَجِعْنَا كِتَابًا أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ) (٢)، فوصف الطريق بالمستقيم نظير ما مرّ في الصراط والسبيل.

ويتبين من ذلك أن الطريق والطريقه يشار بها إلى السلوك والاتباع والهدايه بحسب أعمال البدن وأحوال الروح وأفعال القلب، وأنها بلحاظ الوصول والإيصال للمطلوب، وأن الطريقه مرتبطه بالهدايه والهادى والاتباع للهداه، وأن هذه الهدايه بمعنى الإيصال والحركه نحو المطلوب، وليست بمعنى مجرد الإجراء، ومن ثم كانت الطريقه مرتبطه بالإمام، وبالتطابق بين الطريق والطريقه والصراط والسبيل؛ يتبين تفسير الطريقه والاستقامه عليها في سوره الجن بولايه على عليه السلام.

ويقرب منه قوله تعالى: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا) (٣)، والطريف في تطابق هذه المعانى من الصراط والسبيل والطريقه والحبل، أن طرفا منه بيد الله و هو غايته، و طرف منه بيد الإنسان، فمبدأه مركز في فطرت الإنسان و منتهاه عند الله.

و مثل قوله تعالى: (فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ

ص: ١١٢

١- (١) طه ٢٠:١٠٤.

٢- (٢) الأحقاف ٤٦:٣٠.

٣- (٣) آل عمران ٣:١٠٣.

أَلُوْتَقَى لَا اِنْصَامَ لَهَا وَ اَللّٰهُ سَمِيعٌ عَلِيْمٌ (١)، و على اى تقدير، فالملحوظ فى معنى كل من الصراط و السبيل و الطريقه و الحبل و الاستمساك بالعره الوثقى انه يرتبط بالسير و العمل و الحركه، و لا يقتصر على ظاهر البدن، بل يرتبط بأعمال الروح و أفعال القلب، و رقى و ترقى روح الإنسان و سيرها فى منازل الملكوت.

و من ثم يؤدى فى المنتهى إلى ما هو باطن الدنيا و هو عالم الآخره، و لأجل ذلك يستعرض القرآن الكريم جملة من مقامات و لايه أهل البيت عليهم السلام، مرتبطه بأحوال الآخره كما فى شهادتهم لأعمال العباد، و وصفهم بالشهداء، كما فى قوله تعالى: (هُوَ اَجْتَبَاكُمْ وَ مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ اَبِيكُمْ اِبْرَاهِيْمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِيْنَ مِنْ قَبْلُ وَ فِى هَذَا لِيَكُوْنَ الرَّسُوْلُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَ تَكُوْنُوْا شُهَدَاءَ عَلٰى النَّاسِ) (٢)، و غيرها من الآيات الواردة فى الشهداء.

و كقوله تعالى: (وَ قُلْ اَعْمَلُوْا فَسَيَرَى اللّٰهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُوْلُهُ وَ الْمُؤْمِنُوْنَ) (٣).

و من ثم سيأتى فى السور العديده أنهم المهيمنون على مقام الأعراف، يميزون بين أهل الجنه و أهل النار، و أنهم الموازين القسط، و يوكل إليهم من قبل الله تعالى مقامات مهمه فى الحشر و النشر، و كما مرّ أنّ قبول الأعمال مشروط بولايتهم، و هو المستفاد من سوره الحمد أيضا، حيث اشترطت النجاه بالاهتداء إلى الصراط المستقيم و أصحابه، من دون كفايه الإقرار بالتوحيد و المعاد و النبوه فى ظاهر اللسان.

مضافا إلى تعقب طلب الهدآيه و الاهتداء بالهداه، و أن ذلك به النجاه إثر الإقرار بتوحيد الله فى العباده، و الاستعانه فى الآيه (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ)، و هذا معاضد لما مرّ من أنّ التوحيد فى العباده و الاستعانه إنّما هو بطاعه من أمر الله

ص: ١١٣

١- (١) البقره ٢: ٢٥٦.

٢- (٢) الحج ٢٢: ٧٨.

٣- (٣) التوبه ٩: ١٠٥.

بطاعته و الانقياد له، و أن توحيد الله فى الاستعانه إنّما يتم بالتوجه بمن أمر الله بالتوجه به إلى الله تعالى، و أن صراط التوحيد هو بالاهتداء و الاتباع للهداه الهادين لهذه الامه.

الهدآيه و الضلال، و الإيمان و ظاهر الإسلام

ثم إن هذه السوره - و هى ام الكتاب - تجدر ميزانا و مفهوما عقديًا و اعتقاديًا مهمًا، و هو تمييز أهل المله و النحله الواحده، إلى أهل هدآيه و أهل ضلال، و أهل الرضا الإلهي و أهل الغضب و السخط الإلهي، حيث بينت أنّ من انتسب و انتمى إلى المله و النحله الإسلاميه بالإقرار بالتوحيد و النبوه و المعاد، لسانا، و التزم بالطقوس و الرسوم فى دين الإسلام، إنّما يتصف بكونه من أهل الهدآيه إذا اقتدى و اهتدى و ائتم بالهادين أصحاب الصراط المستقيم، و إلّا فإنه سوف يكون من أهل الضلال، أى ممن ضلّ عن طريق الجنه و النجاه، و ضلّ سعيه فى الآخره، و تفرقت به السبل عن سبيل الله و عن السبيل الذى جعله الله مسلكا إلى رضوانه، كما مرّ بإفصاح من القرآن و هى موّده و ولايه قربي النبي صلى الله عليه و آله.

و السوره تؤكّد على أن المراد من الموّده ليس صرف المحبه، بل الاتباع و الانتهاج و اتّخاذ سننهم و سيرتهم سبيلا متبعا، و ليس مجرد المحبه لأن الله قد و صف الموّده لهم بالسبيل إليه كما مرّ فى الآيتين (آيه الشورى ٢٣، و آيه الفرقان ٥٧).

و إثبات نهج الهدآيه و نهج الضلال فى هذه الامه تثبتته آيات فى سور عديده، كقوله تعالى: (وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا) (١)، كما أن التفرقه

ص: ١١٤

بين ظاهر الإقرار بالدين لسانا و اعتناقه بحقيقه الإيمان بهذا التصنيف و التقسيم تثبته آيات في سور عديده، كقوله تعالى: (قالتِ الأعرابُ آمنا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) (١)، كما يأتي الإشاره إليها في محلها إن شاء الله.

و أنّ النجاه هو بالإيمان لا- بصرف و مجرد الإقرار بالإسلام في ظاهر اللسان، هذا المفاد هو الآخر مقرّر في جملة من السور، كقوله تعالى: (وَ إِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى) (٢).

المغضوب عليهم و المرضى عنهم

و لا يخفى أنّ هذه السوره الشريفه أيضا تشير إلى تصنيف في هذه الامّه و لأهل هذه الامّه و المله، أنّ من اتّبع الصراط المستقيم منهم و ائتم بأصحاب الصراط، فهو من المرضى عنهم، و أنّ هناك من الامّه من يعند و يعاند اتّباع ذلك الصراط، فهو من المغضوب عليهم، كما أنّ هناك فئه ثالثه و هى التى ليس لديها لجاج و خصام مع أصحاب الصراط المستقيم الهادين له، و لكنّها لم تهتد و لم تعرف صراط الحق المستقيم و أهله، و الذى يفصح عن هذا التقسيم الثلاثى أنّ الآيتين الأخيرتين فى السوره أوردت عنوان الهدآيه لمن اهتدى و عرف الصراط المستقيم و سلوكه، و أنّه يوجب رضى الربّ، و يقابله من عرف صراط الحقّ المستقيم، إلّا أنّه لم يتّبعه، و عنده و عدل عنه إلى غيره، فهذا اقيمت عليه الحجّه بالمعرفه،

ص: ١١٥

١- (١) الحجرات ١٤:٤٩.

٢- (٢) طه ٨٢:٢٠.

فيشتدّ جزاء العقوبه عليه، كما أنّه يقابله من لم يعرف الصراط و السبيل إلى الله تعالى بعد دخوله في الإسلام، فهو ضالّ عن الهدآيه، و هو ممّن فيه المشيئه الإلهيّه، و يكون من (المرجون لأمر الله)، فهذا تقسيم ثلاثيّ في هذه السوره.

و بالجملة: فإن كثيرا من المفسرين ذكروا أن المراد بأصحاب الصراط المستقيم المنعوتين بأنهم منعم عليهم، و أنّهم غير مغضوب عليهم و لا ضالّين، هم جميع الامه الإسلاميه، و كل من تشهد الشهادتين، مع أنّ صدر السوره كما مر تبين أن من أقر بالشهادتين أى بالتوحيد و المعاد و النبوه، فإنّ اللازم عليه بحسب ذيل السوره أن يطلب الهدآيه، و لا يكتفى بمجرد اعتناق ظاهر الإسلام و بصرف الإقرار بالشهادتين، ممّا يدلّ بوضوح أنّ النجاه فى الآخره مرهونه بصفه الإيمان و بشرائط تزيد على أصل صفه ظاهر الإسلام، و قد بينت الآيات الكثيره أن للإيمان مراتب كما أنّ للهدآيه مراتب، كما فى قوله تعالى: (وَ يَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى) (١).

و منه يعلم أن الهدآيه المطلوبه فى ذيل سوره الحمد هى درجه تزيد على أصل الاهتداء إلى ظاهر الإسلام من الإقرار بالتوحيد و النبوه و المعاد لسانا، و لا يمكن حمل طلب الهدآيه فى ذيل السوره على أصل اعتناق الإسلام، بل على طلب المزيد من الهدآيه، و هى التى علقت النجاه عليها، و أن النجاه لا تحرز بمجرد الاعتناق فى الظاهر للإسلام، و أنّ الهدآيه فى تلك الدرجه اللآحقه لا بدّ أن تكون من الاصول الاعتقاديّه فى الإيمان، حيث علقت عليها أصل النجاه فى الآخره، و لعلّه لا اختلاف بين مذاهب المسلمين فى أنّ النجاه متوقّفه على الإيمان، و لا يكفى فيها الاعتناق فى الظاهر للإسلام، و إنّما الخلاف واقع فى تحديد و تعداد الامور المآخوذه فى اصول الإيمان.

ص: ١١٤

وكقوله تعالى: (وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَ آتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ) (١).

وقوله تعالى: (وَ إِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (٢).

فجمله هذه الآيات تكشف عن أن الانتماء إلى النحلة الإسلاميه بمجردّه لا يوجب الهدآيه المطلوبه للنجاه و لسلك الصراط المستقيم ما لم ينضمّ إلى ذلك الاتباع و الاهتداء بهداه هادين في هذه الامّه، كما هو مفاد هذه السوره.

و ممّا يوضّح أن أهل النجاه في الامّه الإسلاميه إنّما هم خصوص من اهتدوا إلى الصراط المستقيم، و اتبعوا الهداه أصحاب الصراط، مضافا إلى ما تقدّم، أن في العديد من الآيات و السور التعرّض إلى تقسيم المسلمين إلى أقسام متعدّده، منهم المسلم غير المؤمن، و منهم المؤمن، و منهم المنافق، و منهم المستضعف، و منهم المرجون لأمر الله، و منهم أهل الضلال في مقابل أهل الهدآيه، و منهم من غضب الله عليه، و منهم من رضى عنه، و غيرهم من الأصناف التي استعرضتها الآيات حول صفات المسلمين الذين كانوا في عهده صلى الله عليه و آله.

ظاهرة التمدّهب في عصر الرساله

فهذا التصنيف و التقسيم في القرآن الكريم يشير إلى حقيقه مهمّه، و هي أن ظاهره المذهبيّه العقائديه و التمدّهب العقائدى قد نشأ في عهد الرساله الأوّل في عهد الرسول صلى الله عليه و آله، بل سيأتى في سوره البقره في آيه: (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) أن ذلك نشأ - كما في سوره المدّثر - في أوائل بعثه الرساله، رغم أنّ ظاهر الإسلام يحتضن الجميع، و يكفل للجميع حقوق المواطن الإسلامى، كما يقّرر على

ص: ١١٧

١- (١) محمّد صلى الله عليه و آله ١٧:٤٧.

٢- (٢) الحجّ ٥٤:٢٢.

الولاء و البراءة

هذا، و قد بين فى آيات عديده حرمه تولى من غضب الله عليه، و لزوم التبرى منه و هى الموالاه و البراءة لما فى قوله تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ) (١).

و قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ) (٢).

و قد و صف من غضب الله عليه بأنه أضل عن سواء السبيل من الضال، كما فى قوله تعالى: (قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مُمْتَوًةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَ غَضِبَ عَلَيْهِ وَ جَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَ الْخَنَازِيرَ وَ عَتِيدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَ أَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ) (٣).

و كذلك و صف أهل النفاق من مله الإسلام بأنهم مغضوب عليهم، كما فى قوله تعالى: (وَ يَعِذُّبُ الْمُنَافِقِينَ وَ الْمُنَافِقَاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لَعَنَهُمْ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ سَاءَتْ مَصِيرًا) (٤).

ص: ١١٨

١- (١) الممتحنه ١٣:٦٠.

٢- (٢) المجادله ١٤:٥٨.

٣- (٣) المائده ٥:٦٠.

٤- (٤) الفتح ٦:٤٨.

وكقوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ مَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَهَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١)).

و كقوله تعالى: (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ إِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢)).

و كقوله تعالى: (وَ آخِرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَ إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٣)).

و كقوله تعالى: (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصِيدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ) (٤)، فهذه الآيات تبين أن بعض من هو من فئات المسلمين لا يحمل صفة الإيمان، بل صفة النفاق، أى أنهم يظهرون الحقّ و يبطنون الباطل، و أن تمرد هذه الفئة ليس فى الإقرار بالله تعالى كما يشهد له قوله تعالى: (وَ لَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) (٥)، و إنما إباؤها و جحودها لمقام الرسول صلى الله عليه و آله

ص: ١١٩

١- (١) البقره ٢: ٨-١٦.

٢- (٢) الحجرات ٤٩: ١٤.

٣- (٣) التوبه ٩: ١٠٦.

٤- (٤) المنافقون ٦٣: ١-٣.

٥- (٥) لقمان ٣١: ٢٥.

وولايته، فلم تكن تسلم قلبا لطاعه الرسول صلى الله عليه وآله و كانوا يجدون فى قلوبهم حرجا من الاتّباع لو لا يته، و نظيرهم فئه اخرى، و هم الذين فى قلوبهم مرض كقوله تعالى: (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ) (١).

الطبرسى فى «مجمع البيان» عن سعيد بن جبير، قال: «قلت لابن عباس:

سوره التوبه، فقال: تلك الفاضحه.

قال: ما زال ينزل حتى خشينا ألبقى منهم أحد إالذكر، و سميت أيضا بالمدمدمه و المهلكه و الحافره لأنها حفرت عمّا كانوا يسترونه، و المثيره لأنها أثارت مخازيهم و مقابحهم، و سوره العذاب» (٢).

و قد ذكر الطبرسى فى «مجمع البيان»، قال: عن عاصم بن زرّ بن حبيش، عن حذيفه، قال: يسمونها سوره التوبه، و هى سوره العذاب (٣).

بل فى سوره البراءه تعداد لعشر فئات أو يزيد قد ذكرتهم السوره بقوارع فاضحه، و من ثم سميت السوره - كما عن ابن عباس - بأسماء عديده كالفاضحه و المبعثره لأنها تبعثر عن أسرار المنافقين (٤).

ص: ١٢٠

١- (١) محمّد صلى الله عليه وآله ٢٩:٤٧.

٢- (٢) مجمع البيان: ٥:٥ و ٦.

٣- (٣) مجمع البيان: ٥:٦.

٤- (٤) مجمع البيان: ٥:٥.

الم ذٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِيْنَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِيْنَ يُؤْمِنُونَ بِمَا
أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١)

الحروف المقطعه

الم و الذي يظهر من جملة من الروايات - نظير ما رواه الصدوق في أوائل «معانى الأخبار» - أن لها جملة من المعانى:

الأول: أنها حروف لأسماء إلهية، كما فى روايه «معانى الأخبار»: بسنده عن سفيان الثورى، عن الصادق عليه السلام، قال: «قلت له: ما معنى قول الله عزّ و جل:

(أَلَمْ) ؟

قال عليه السلام: أمّا (الم) فى أول البقره فمعناه: أنا الله الملك، و أمّا فى أول آل عمران فمعناه: أنا الله المجيد...» الحديث (٢).

ص: ١٢٣

١- (١) البقره ٢: ١-٥.

٢- (٢) معانى الأخبار: ٢٢، الحديث ١.

الثانى: إنها حروف للاسم الأعظم، فقد روى فى «المعاني»: بسنده عن أبى بصير، عن أبى عبد الله عليه السلام، قال: (الم هو حرف من حروف اسم الله الأعظم المقطع فى القرآن الذى يؤلفه النبى صلى الله عليه وآله والإمام، فإذا دعى به اجيب) (١).

الثالث: إنها حروف أبجد لحساب تواريخ و تواقيت لملاحم و أحداث مستقبلية، فقد روى القمى فى تفسيره، عن الخثعمى، عن أبى جعفر عليه السلام، قال:

«سمعتة يقول: (حم * عسق) (٢) عدد سنى القائم (عج)» (٣).

و روى عن الباقر عليه السلام: «... و ليس من حروف مقطعه ينقضى أيام إلأوقائم من بنى هاشم عند انقضائه» (٤).

الرابع: إنها رمز و إشاره بينه تعالى و بين حبيبه محمّد صلى الله عليه وآله، ففى «مجمع البيان»، قال: «و روت العامّة عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: إن لكلّ كتاب صفوه، و صفوه هذا الكتاب حروف التهجى» (٥).

و روى العياشى عن أبى لييد، عن أبى جعفر عليه السلام، قال: «يا أبا لييد، إن لى فى حروف القرآن المقطعه لعلماء جمًا» (٦).

و روى القمى فى تفسيره عن الخثعمى، عن أبى جعفر عليه السلام: «و علم كلّ شىء فى (عسق)» (٧).

ص: ١٢٤

١- (١) معانى الأخبار: ٢٣، الحديث ٢.

٢- (٢) الشورى ١: ٤٢.

٣- (٣) تفسير القمى: ٢: ٢٦٨.

٤- (٤) تفسير العياشى: ٣: ٢، الحديث ٣.

٥- (٥) مجمع البيان: ١: ٧٥.

٦- (٦) تفسير العياشى: ٣: ٢، الحديث ٣.

٧- (٧) تفسير القمى: ٢: ٢٦٧.

الخامس: إنها إشاره إلى الحروف العربيّة التي نزل بها القرآن الكريم.

السادس: إنّ جملة منها من أسماء النبيّ صلى الله عليه وآله، و قسم بتلك الأسماء، و هي التي ذكر بعدها الكتاب و القرآن، ففي دعاء السجّاد يوم الفطر:

«وقلت جل قولك له حين اختصصته بما سمّيته من الأسماء: (طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) (١).

وقلت عز قولك: (يس * و القرآن الحكيم) (٢).

وقلت تقدست أسماؤك: (ص و القرآن ذي الذكر) (٣).

وقلت عظمت آلاؤك: (ق و القرآن المجيد) (٤).

فخصصته أن جعلته قسمك حين أسميته، و قرنت القرآن به، فما في كتابك من شاهد قسم و القرآن مردف به إلا و هو اسمه، و ذلك شرف شرفته به، و فضل بعثته إليه، تعجز الألسن و الأفهام عن وصف مرادك به، و تكل عن علم ثنائك عليه، فقلت عز جلالك في تأكيد الكتاب و قبول ما جاء به: (هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق) (٥).

و قلت عززت و جللت: (ما فرطنا في الكتاب من شيء) (٦).

و قلت تباركت و تعاليت في عامه ابتدائه: (الرتلك آيات الكتاب الحكيم) (٧).

ص: ١٢٥

١- (١) طه ١:٢٠ و ٢.

٢- (٢) يس ١:٣٦ و ٢.

٣- (٣) ص ١:٣٨.

٤- (٤) ق ١:٥٠.

٥- (٥) الجاثية ٢٩:٤٥.

٦- (٦) الأنعام ٣٨:٦.

٧- (٧) يونس ١:١٠.

وَ: (الر كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ) (١).

وَ: (الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ) (٢).

وَ: (الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ) (٣).

وَ: (الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) (٤) ، وَفِي أَمْثَالِهَا مِنْ سُورِ الطَّوَّاسِينِ وَالْحَوَامِيمِ فِي كُلِّ ذَلِكَ بَيَّنَّتْ بِالْكِتَابِ مَعَ الْقَسَمِ الَّذِي هُوَ اسْمٌ مِّنْ اخْتِصَّصْتَهُ لَوْحِيكَ، وَاسْتَوْدَعْتَهُ سِرًّا غَيْبِكَ» (٥).

ولا يخفى أن في كلامه عليه السلام بيان لجمله من مقامات النبي صلى الله عليه وآله، منها: القسم بأسماء النبي صلى الله عليه وآله، ومنها: أنه قرن به القرآن لا العكس، ومنها: أنه صدر اسمه على الكتاب، وفي هذا إعلاء لمقام النبي على الكتاب، ومنها: أنه وصف النبي بالكتاب الناطق بخلاف المصحف.

السابع: إنها أسماء لحقائق كوثية ملكوتية، كما روى في (ص) أنه نهر في الجنة (٦) ، مع أنه اسم من أسماء النبي، كما مر في السابق، وفي (ق) أنه جبل

ص: ١٢٤

١- (١) هود ١١:١.

٢- (٢) إبراهيم ١٤:١.

٣- (٣) يوسف ١٢:١.

٤- (٤) البقره ٢:١ و ٢.

٥- (٥) الصحيفه السجاديه الجامعه - دعاء عيد الفطر: ٣١٠. رواه في الإقبال: ٢٨٥ بإسناده إلى التلعكبري، بإسناده إلى جابر بن يزيد الجعفي، وأورده في البلد الأمين.

٦- (٦) الأحاديث المختاره: ٨:٥٤.

محيط بالدنيا من زمرد أخضر وخضره السماء من ذلك الجبل (١)، وفي روايه «معاني الأخبار» (ن) اسم نهر في الجنة، وهو اسم ملك (٢).

الثامن: إنه يشار بهذه الحروف إلى تشابه صفات بعضها لبعض صفات الله تعالى، كما ورد في روايه الثعلبي في تفسيره مسنداً إلى الرضا عليه السلام عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن قوله: الم ، فقال: «في الألف ستّ صفات من صفات الله عزّ وجلّ» (٣).

ذِكْرُ الْكِتَابِ

إشاره

والمعروف عند اللغويين أنه اسم إشاره للبعيد، وقد استعمل فيه حرفان للبعد اللام والكاف، ومن ثمّ ذكروا أنّ لفظ (ذاك) للبعد المتوسط، وأمّا لفظ (ذلك) فللبعد البعيد أو الأبعد.

وما ذكره جمله من المفسّرين (٤) من استعمال ذلك للمشار إليه القريب، وذكروا جمله من الشواهد والاستعمالات، فكّلها مخدوشه عند التأمل والتدبر وغير خارجه عن معنى البعد، مضافاً إلى تنصيب اللغويين على ذلك (أى استعمالها للبعيد).

وقد وقع الكلام في معنى البعد في الكتاب المشار إليه في الآيه على وجوه:

١ - ما ورد في «التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام» من أنّ الكتب السابقه من التوراه والإنجيل وصحف إبراهيم وغيرها قد أنبأت بخاتم الأنبياء وبنزول القرآن الكريم عليه، فذلك الذي قد أنبئت به الرسل والكتب السابقه هو

ص: ١٢٧

١- (١) روضه الواعظين: ٤٨. تفسير القمّي: ٢: ٢٦٨.

٢- (٢) معاني الأخبار: ٢٣، الحديث ١، وليس فيه: «اسم ملك».

٣- (٣) مجمع البيان: ١: ٧٥، عن الثعلبي.

٤- (٤) حكاة الشيخ في التبيان عن جماعه من اللغويين، والفخر في تفسيره.

هذا الكتاب، وهو القرآن الكريم(١)، وعلى ضوء هذا المعنى يكون معنى لا رَيْبَ فِيهِ هو التأكيد على أن ما أنبأت به الرسل هو نفس هذا القرآن الكريم، وهذا المعنى متجه ومتسق مع ترتيب لفظ الآية.

٢ - أن تكون الإشارة إلى المقام الغيبي المكنون في القرآن الكريم الذى اشير إليه بقوله تعالى: (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَفِيهِذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ) (٢)، فتشير هذه الآية من سوره الواقعه إلى وجودِ علويّ ملكوتيّ للقرآن الكريم فى كَنٍّ لا يرقى إليه البشر إلّا المطهّرون، وأنّ المصحف الشريف بسوره وآياته تنزِيل من ذلك الموقع، فللقرآن الكريم منزلتان ومقامان أو منازل ومقامات كما يظهر من سور اخرى، جمله منها علويّه، وبعض منها نازله فى متناول أيدي الناس، ثمّ تؤكد الآيات أنّ هذا الحديث عن تعدّد مقامات القرآن الكريم لا يداهن فيه ولا يستراب، فهناك نحو تطابق بين هذه الآيات من سوره الواقعه والآيه فى المقام.

وبالجمله ما يشير إلى وجود مقامات علويّه غيبيّه للقرآن الكريم آيات كثيره، كقوله تعالى فى سوره المعارج: (وَ اللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ * يَلْهُو قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ) (٣)، والتوصيف بالمجيد والمجد يقارب التوصيف بالكرامه، وهما وصفان للمقام الغيبي للقرآن، كما أنّ المحفوظ معنئى يقرب من المكنون، فهو وصف له بلحاظ ذاك المقام.

ومنها: ما فى جمله من السور العديده من وصف القرآن بالكتاب المبين،

ص: ١٢٨

١- (١) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام: ٦٣.

٢- (٢) الواقعه ٥٦: ٧٧-٨١.

٣- (٣) البروج ٨٥: ٢٠-٢٢.

وأنه احصى فيه كل شيء، وغير ذلك من الآيات التي ستأتى لاحقاً.

وهذا المعنى أيضاً متين ومستقيم، وإن كان لا يروق بمذاق جملة من المفسرين الذين يستوحشون منه إثبات المقام الغيبي للقرآن بعيد المنال يختص به ثلثه من هذه الأمة الموصوفين بالمطهرين، وهذا مما يقطع الطريق أمام منهج حسنا كتاب الله، ولا يخفى تناسب هذا المعنى مع تصوير، وسبق هذه الآية بالحروف المقطعة التي مرّ أنّ من أظهر معانيها أنّها أسماء لمقامات النبي صلى الله عليه وآله، فيتناسب ذلك المقام العلوي للقرآن مع ذلك المقام الغيبي للنبي، وأنه ينحدر من مقام غيبي أعلى منه للنبي صلى الله عليه وآله، كما يستشف ذلك من إشاره السجّاد عليه السلام في دعائه ويتطابق مع ما سيأتى من تفسير الكتاب بعلي عليه السلام.

إنّ الإشارة للتعظيم والتفخيم والإكبار، أى لأجل الإشارة إلى علو معاني وفخامه علوم القرآن وخطوره وصاياه، فكأنه كالبعيد عن منال الطالبين، فلا يدرك دقائق ورفائق وإشارات حكمه بمجرد بادره النظر، بل يحتاج إلى إمعان وتدبر وعمق، وهذا التفسير وإن اختلفت صورته عن السابق، إلّا أنّه يؤوّل إليه بنحو ما، ثم لا يخفى أنّ الإشارة على ما تقدّم من المعاني، على درجات، فمنها قلبه عقله، ومنها ذهنيته، ومنها حسّيه.

معاني الكتاب

منها: ما قد ورد في روايات عديده أنّ الكتاب علي عليه السلام، كما في «تفسير القمي»^(١)، كما قد وردت روايات عنه عليه السلام أنّه الكتاب المبين^(٢)، وسيأتى في

ص: ١٢٩

١- (١) تفسير القمي: ١: ٣٠.

٢- (٢) تفسير الصافي: ٢: ١١٣٦.

مباحث لاحقه أنّ القرآن والعتره فى الوجود العلوى والغيبى وجود واحد، عبّر عنه بحبل الله الممدود، طرف منه بيد الله وطرف منه بيد الناس، وأنّ تعدّدهما فى الوجود النازل من المصحف الشريف وأبدانهم الطاهره لا يتنافى مع وحده الحبل الممدود من الله، وهذا معنى من معانى أنّهما لن يفترقا.

ويشير إلى ذلك: (وَ كُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ) (١)، مع أنّه قد قال تعالى: (وَ كُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا) (٢)، وهناك آيات عديده اخرى يظهر منها التطابق، نوكلها إلى محلها المناسب.

وعلى ضوء هذا المعنى يُفسّر المتّقين فى الآيات بشيعة على وأهل البيت عليهم السلام، حيث أنّهم اتّقوا أنواع الكفر والجحود، وسلّموا وأذعنوا وأخبتوا للحقّ، فاتّقوا الذنوب الموبقات، أى استوفوا ما ينبغى أن يتقى منه، فأقاموا فى أنفسهم تمام الحدّ وحدود التقوى، واتّقوا إظهار أسرار المعارف عن غير أهلها.

ومنها: ما مرّ إليه الإشاره إلى المصحف الشريف، ثمّ إنّ المصحف لا يقتصر على الألفاظ بل له معانى، ولمعانيه معانى، وإلى طبقات عديده ومدارج من المعانى، وللمعانى بحور ومحيطات، فالإشاره لا تقتصر على ألفاظه الشريفه، بل تشمل صفاته ومعانيه، وكم حافظ لألفاظ القرآن جاهل بمعانيه، وكم من حافظ لبعض معانيه وجاهل بما وراء ذلك من الطبقات.

ومنها: ما فى «تفسير العياشى» من تفسير الكتاب بكتاب على عليه السلام (٣)، ولعلّه

ص: ١٣٠

١- (١) يس ٣٦:١٢.

٢- (٢) النبأ ٧٨:٢٩.

٣- (٣) تفسير العياشى: ١:٢٥، الحديث ١.

المراد به المصحف الذي جمعه عليه السلام، والذي قد دُون فيه أسباب النزول والتأويل، وأن ترتيب سورة وآياته بحسب النزول.

فالقرآن فيه مفسر تنجلي فيه كلّ المتشابهات، وهو محفوظ مصون عند أهل البيت، بل يتوارثونه ومودع عند الإمام المهدي.

وقد وصفه غير واحد من الصحابه بأنّ فيه علماً جمّاً، وتأوّه غير واحد منهم من عدم استقباله عندما عرضه عليهم فلم يكثرثوا به.

ولا- يخفى أنّ الكتاب لا- يقتصر معناه على الرسم المنقوش في الورق من الصحائف، كما أنّ التدوين لا يقتصر على الرسم بالدواه، كما أنّ الكلمه والكلام لا تقتصر على الحروف المصوّته، كما في قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُشْرِكُ بِكَلِمَتِهِ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ) (١)، وسيأتي البحث فيه مفصلاً.

)

لا رَيْبَ فِيهِ

اشاره

وقد تعددت الاحتمالات في إعراب (لا رَيْبَ فِيهِ) إلى وجوه عديده:

فمنها: كون العامل في الجار هو ماده «ريب».

ومنها: أنّ العامل في الجار (هُدَىً)، كما أنّ (لا رَيْبَ فِيهِ) قد تجعل صفه للكتاب، وقد تجعل صفه ل (هُدَىً)، أي لا ريب في اشتماله على الهدى.

وقيل: إنّ (فيه) للتعليل، كما في (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ) (٢)، أي بسبب القرآن ينتفى الريب، وتكون بمعنى الباء كما في (يَذَرُوكُمْ فِيهِ) (٣).

ص: ١٣١

١- (١) آل عمران ٣: ٤٥.

٢- (٢) البقره ٢: ١٧٩.

٣- (٣) الشورى ١١: ٤٢.

و (لا- رَيْبَ فِيهِ) كما في «البحر المحيط» قلق النفس، والشكّ بتهمة(١)، قيل: إنّ الريب أسوء من الشكّ في صفه اضطراب النفس كما في «مجمع البيان»(٢)، ويشير إلى ذلك وصف الشكّ بالمريب في عدّه آيات(٣).

ثمّ إنّّه قد ذُكرت وجوه إعراب كثيرة في آية (لا رَيْبَ فِيهِ) تارة بجعل ذلكّ خبر ل (الم) ، ولكن هذا الاحتمال مخالف لما مرّ من أنّ الإشارة إلى مقام نبويّ يقرب به ذلك الكتاب.

وتارة يعرب ذلكّ مبتدأ، وخبره إمّا (الكتاب) أو (لا رَيْبَ فِيهِ) ، أو (فِيهِ هُدًى) ، أو (هُدًى) ، والمعنى على جملة هذه التقادير مآله واحد، ثمّ إنّ في هذه الآيات إشارة إلى جملة من معالم نهج المعرفة عند القرآن الكريم في قبال نهج الجهل والجاهليّة.

المعلم الأوّل: تجنّب الريب

حيث أنّ نفي الريب يختلف معناه بحسب اختلاف معنى (فِيهِ) ، فعلى التعليل يكون معنى (لا رَيْبَ) أنّ من يهتدى بنور الكتاب، ويستمسك بتعاليمه وأنواره ينتفى عنه الريب والاضطراب والحيرة، ويتّصف بالطمأنينة والحكمة المورثة للسكينة، فيكون الكتاب علاجاً للريب الذي هو الاضطراب والحيرة والترديد، فإنّ الملاحظ في الآيات الكريمة عموماً ذمّ الريب والشكّ، وجعله من

ص: ١٣٢

١- (١) تفسير البحر المحيط: ١: ١٥٥.

٢- (٢) مجمع البيان: ١: ٧٩.

٣- (٣) هود ١١: ١١٠. سبأ ٣٤: ٥٤. فصلت ٤١: ٤٥. الشورى ٤٢: ١٤.

صفه الجاهلين والكفار، وكذلك الحال فى الشك، ولم يوصف أهل التقوى واليقين بهاتين الصفتين، ولا يخفى أنّ الشك والريب ليسا صفتين تعبّران عن درجه العلم أو الإدراك، كاحتمال والظن واليقين والوهم، بل هما صفتان تعبّران عن حاله العمليه فى جنبه النفس، نظير القطع والاطمئنان والسكينه، فهما من الصفات العمليه للنفس.

وبذلك يظهر أنّ الشك ليس كما درج عليه المناطقه أو الفلاسفه أو فى اصطلاح العلوم المختلفه من تساوى الاحتمالين أو تقاربهما فى النسبه، بل الشك فى حقيقته هو حاله من الاضطراب النفسى والتردد والحيره وانجذاب النفس إلى الاحتمالين أو الاحتمالات، مع عجز فى قدره النفس عن التمييز والفحص.

وكذلك الحال والريب والريبه، لكن بنحو أشدّ كما فى وصف المنافقين فى قوله تعالى: (مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هُوَ لَا إِلَى هُوَ لَا وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا) (١).

وهذه حاله عى وإعياء فى النفس تفقد فيها قدره على إحكام التدبير لرفع الجهاله أو السعى والفحص، فلا يظنّ ظانّ أنّ القرآن يسدّ باب السؤال والفحص وإبداء الاحتمال والتحرى والتنقيب والتفتيش، وكيف القرآن الكريم يدعو فى أمّ المعرفه وهى معرفه الله والتوحيد، إلى التدبّر والتنقيب والفحص والبرهان، ويذمّ التقليد بلا بصيره، ويدعو إلى العلم والتعلم لا إلى الجهل والجهاله، وهذا بخلاف الشك والتشكيك والاستترابه الذى هو منهج سفسطى يتوخّونه ليقدموا إلى الجحود وإنكار الحقائق بمجرد الاضطراب النفسى والترديد مع أنّ كلّاً من الإنكار أو التسليم لا بدّ أن يبنى على الدلائل لا على مجرد الحيره والتردد، وفى الحقيقه إنّ هذه الحاله حاله وقوف وجمود عن الفحص والتنقيب وإيقاف

ص: ١٣٣

لحركة الفكر وانحباس النفس فى طوق الحيره وإياسها عن السير والحركة الفكرية لرفع المجهول وتبديله إلى المعلوم، ومن ثمَّ يحقّق من أنّ الشكّ والريب شعار الجهل والجاهليّة، وهو المنهج السفسطى.

ومما يشير إلى كون الريب حاله توقّف فى الفكر والفحص العلمى ما يشير إليه قوله تعالى الآتى (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) (١)، حيث يتضمّن المقابله بين الريب وبين الفحص والتثبت العلمى، حيث يخاطب القرآن الكريم الكافرين بكون القرآن نازل من عند الله، وأنّه معجزه بأنّ المكث فى الريب والتشكيك والحيره والتردد لا يوجب انكشاف الحقيقه، وليس نهجاً يتحرّى فيه العلم بحقيقه الحال.

فمن ثمّ دعاهم القرآن الكريم للفحص عن كونه معجزاً بمحاولتهم للإتيان بسوره من مثل القرآن كى يتبيّن لهم أنّ ذلك بوسعهم، أو أنّهم عاجزون عن ذلك.

فهذه دعوه إلى الفحص العلمى فى قبال الجمود الموجود فى حاله الريب الذى هو قذف من بعيد عن متناول الحقيقه، ثمّ يدعوهم القرآن الكريم إلى خطوه علميه اخرى إذا عجزوا أو لم يسلكوا الخطوه الأولى، وهى أخذ الحيطه بمراعاة جملة من الاحتمالات والمحتملات، وهذا يغير ما يمارسه المرتاب بسبب حاله الريبه، فإنّ تلك الحاله من الريب أو التشكيك تدفعه إلى الجحود والإنكار بعجله واندفاع من دون استبيان وتثبت وتحزى فاحص، مع أنّ قواعد المنهج العلمى التى يدركها العقل السليم، والتى يتبّه عليها القرآن المجيد، أنّ اللازم عدم النفى

ص: ١٣٤

والإثبات، وعدم الإقدام على التسليم أو الإنكار، إلأعلى وفق دلائل وبيّنات، وإذا لم يقف الإنسان على تلك الدلائل لعجز أو لعدم قدره على التمييز أو لأى سبب آخر، فإنّ اللازم حينئذٍ عدم الركون إلى الحكم والقضاء بأحد الطرفين، والوظيفه حينئذٍ أخذ الحيطة والرعايه للاحمال فى كلا الطرفين.

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: (فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجَارَةُ) (١).

وهذه الخطوه الثانيه إحدى الإخفاقات العظيمه الجهلائيّه فى الغيب يتمسك بها الجاهلون والمنطق الجاهلى القديم والحديث، وهى خطوه علميه عملائيّه يفترط فيها المستمسكون بالريب والمريبون والشكّاك والمنهج التشكيكى يخلدون فيه إلى دعه الكسل الفكرى والعملى بدل الجهد الفكرى والتحرى.

ويتبين من ذلك أنّ المعنى الآخر ل (فيه) وهو الظرفيه أيضاً هو الآخر نعت للقرآن الكريم بصفه العلميه، فإنّ العلم والنهج العلمى الفاحص يقود إلى التسليم بأنّه من عند الله، وأنّه كتاب هدايه.

هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ

المعلم الثانى فى هذه الجملة إشاره إلى قاعده والتوصيه الثانيه للنهج المعرفى عند القرآن

، فقد خصّص الهدايه الحاصله من الكتاب بالمتقين، والهدايه هى الوصول إلى الحقيقه ودرکها، فهى تتضمن لكلّ من المعرفه والانتفاع بها للوصول للغايه،

ص: ١٣٥

فإنّ الهدايه كما تستعمل تاره فى إراءه الطريق للمطلوب، وأخرى فى الايصال والوصول للمطلوب، فها هنا تشير الآيه إلى قاعده مهمّه ونظام مهمّ فى العصمه من الخطأ والخطاء والزلل والضلال.

فالآيه فى صدد بيان نظام وقواعد إذا رُوعيت أوجبت العصمه والاستعصام من الخطأ، فهى إشاره إلى النظام المنطقى الذى يرسمه القرآن الكريم، وإلى مدرسه متميزه فى النهج المنطقى والفكرى تختلف عن المدارس المنطقية الأخرى، سواء المدرسه اليونانيه فى المنطق الأرسطى الذى يقتصر على بعض ضوابط الحركه الفكرية فى بعض قواعد هيئه الاستدلال، أو بعض قواعد موادها من دون تعرّضها إلى قواعد القوّه الإدراكيه الأخرى، كالمخيّله والواهمه وقوى الحواس، فضلاً عن قوى الإدراك القلبيه، وفضلاً عن منظومه قوى العمّاله فى النفس، وغيرها من طبقات ودرجات منازل النفس والروح.

وكذلك الحال فى المنطق الرياضى أو مدرسه المنطق الوضعى أو الاحصائى أو الاستقرائى أو الرقمى أو النفسانى أو الاجتماعى وغيرها من المدارس المنطقية، فإنّها تركّز على جانب من القوّه المؤثّره للنفس فى عمليّه الاستنتاج والإدراك الهيولى الفكرى أو القلبى، والمسير العملى للنفس، سواء كان روحياً أو بدنياً.

وهذا النظام المنطقى الذى تشير إليه الآيه هى منظومه متكامله متراميه بوسع دائره التقوى والعمل بالشريعة الغراء، فكلّ شرعه فى الشريعة وكلّ حكم وتوصيه دخيل فى ازدياد إدراك الإنسان وقوّه تمييزه، نظير ما ورد فى قوله تعالى:

(إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا) (١).

ص: ١٣٦

وقوله تعالى: (وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ يُعَلِّمَكُمُ اللَّهُ) (١)، والآيات الكثيره الوارده فى أَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢).

لا يهدى القوم الفاسقين (وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) (٣).

لا يهدى القوم الكافرين (وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) (٤).

لا يهدى من هو كاذب كفار (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ) (٥).

لا يهدى من هو مسرف كذاب (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ) (٦).

وقوله تعالى: (وَ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِيْنَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) (٧).

وقوله تعالى: (وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ) (٨).

ولا يخفى أَنَّ الهدى والضلاله لغه من لغات العقل العملى الذى يعبر عنه بالإدراك وعدم العلم فى لغه العقل النظرى، بل ان الهدايه سداد وتوفيق علاوه على الإدراك والتنظير لما مرَّ أَنَّ الهدايه تستخدم بمعنيين:

١ - معنى الإراءه.

٢ - الايصال للمطلوب.

ص: ١٣٧

١- (١) البقره ٢: ٢٨٢.

٢- (٢) الجمعه ٦٢: ٥.

٣- (٣) المائده ٥: ١٠٨. التوبه ٩: ٢٤، ٨٠. الصف ٦١: ٥.

٤- (٤) البقره ٢: ٢٦٤. التوبه ٩: ٣٧.

٥- (٥) الزمر ٣٩: ٣.

٦- (٦) غافر ٤٠: ٢٨.

٧- (٧) العنكبوت ٢٩: ٦٩.

٨- (٨) القصص ٢٨: ٥٠.

ونظير هذه الآيه فى الإشاره إلى منظومه التقوى كمنظومه منطقيته تعصم الإدراك، قوله تعالى: (فَبِأَنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) (١).

وقوله تعالى فى شأن الإنجيل: (وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَ هُدًى وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ) (٢).

وكذلك قوله تعالى فى شأن التوراه: (وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَ هَارُونَ الْفُرْقَانَ وَ ضِيَاءً وَ ذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَ هُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ) (٣).

فبين تعالى أن الكتب السماويه لما فيها من علوم وحقائق وضياء وتذكّر لفظه والعقل لا يسدّد لذلك ولا يصيبه إلا المتقون، فهناك شرطيه تلازم ما بين التقوى والسداد فى الإدراك والاستنتاج والوصول إلى الغايه المطلوبه، ونظير الآيه فى المقام: (هذا بيان للناس وهدى و موعظه للمتقين) (٤).

ويشير إلى ذلك أيضاً قوله تعالى: (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) (٥)، حيث تشير الآيه إجمالاً إلى أن هناك ارتباط وثيق بين الطاهره من الرذائل والمعاصى، وبين نيل درجات وصفات معانى القرآن الكريم.

وكذا قوله تعالى: (ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوَاىَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَ كَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤْنَ) (٦).

ص: ١٣٨

١- (١) البقره ٩٧:٢.

٢- (٢) المائده ٤٦:٥.

٣- (٣) الأنبياء ٢١:٤٨ و ٤٩.

٤- (٤) آل عمران ٣:١٣٨.

٥- (٥) الواقعه ٧٧:٥٦-٧٩.

٦- (٦) الروم ٣٠:١٠.

وفى القرآن الكريم بيانات لا- تحصى مبيّنه للارتباط بين ارتكاب كلّ رذيله أو معصيه، وأثرها فى زلل الإنسان وخطائه فى إدراك الأمور، وكذلك العكس والارتباط بين ارتكاب كلّ فضيله وطاعه وقدره الإدراك والسداد للحقائق والأمور.

ولا- تقتصر التقوى على الجانب العملى والعملائى، بل كذلك فى التسليم والاذعان للحقائق، فإنّه يورث قدره إدراك وسداد وقوّه للوصول للحقائق والغايات.

ثمّ إنّ قوله تعالى: **الْم تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** (١) شديد التطابق مع الآيات الخمس فى سورة البقره، أمّا مغايره عنوان المتّقين بالمحسنين، فالإحسان درجه عاليه فوق التقوى بالمعنى الأخصّ، وإن كانت التقوى بالمعنى العام شامله لها، ولا ريب أنّه كلّما ازدادت درجات الإيمان ودرجات التقوى ودرجات الطهاره زادت نسبه الهدايه بالكتاب.

كما يشعر بذلك قوله تعالى: **(فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ)** (٢)، وأنّ مورد الآيه فى المطهّرين من الأئمّه، إلّا أنّه يستفاد منها بالفحوى والالتزام دخاله درجات الطهاره فى درك وإبصار أنوار الكتاب وهدايته.

ص: ١٣٩

١- (١) لقمان ٣١:١-٥.

٢- (٢) الواقعه ٥٦:٧٨ و ٧٩.

المعلم الثالث: الإيمان بالغيب

وهذه توصيه ثالثة فى النهج المعرفى فى القرآن الكريم فى قبال نهج الجهل ألا وهو الإيمان.

ففى هذه الآيات بيان لشرط ثالث للاهتداء للحقيقه وحصول المعرفه من الكتاب، وهو الإيمان بالغيب، وهو عنوان لمساحات من الحقيقه والواقعيه تغيب عن محدوده إدراك الإنسان، وهذه التوصيه والقاعده ضروريه ولا بدّ منها فى كلّ بحث وتنقيب علمي فى أى علم من العلوم، فإنّ المسيره العلميه فى كلّ علم إنّما تتواصل تنقيباً وتحقيقاً واستكشافاً لإيمان الباحثين بأنّ هناك مساحات من الحقيقه لم يدركوها بعد ولم يصلوا إليها.

ولولا- أنّهم بانين على وجود مساحات وراء ما وصل إليه الإنجاز العلمى الذى هم متخصّصون فيه، لما دأبوا على البحث والفحص، بل إنّ فى قراره كلّ النخب العلميه على مرّ الأجيال أنّ مسيره العلوم لم تقف يوماً ما عند حدّ تنتهى إليه، وهذا ممّا يبرهن أنّ مساحه الحقيقه الغائيه أعظم من مساحه الحقيقه المكتشفه.

كما يتبيّن أنّ من ضروره البحث العلمى توطين النفس على وجود حقيقه غائيه ينصبّ الطلب والسعى والبحث نحو اكتشافها، فالإيمان بالغيب شرط أساس فى السعى العلمى والنهج المعرفى، بينما جحود الغيب يعنى جمود الحركه العلميه ومراوحتها فى مكانها.

وربّما يشير إلى هذا الأصل المنطقى المعرفى القرآنى أيضاً، قوله تعالى:

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ) (١)، ومفاد هذه الآية أيضاً اجتناب الإنكار بالمساحات الغائبة من الحقيقة، وإن لم يكن يعنى ذلك ولا يستلزم التسليم بشيء من دون دلائل وبيّنات، فإنّ بين التسليم بدون بيّنات أو الإنكار من دون بيّنات طريق ثالث معرفيّ يحثّ عليه القرآن، وهو السعى والفحص، ولا يمكن البناء عليه إلّا بالإيمان.

فتوطّن النفس على وجود ما غاب عن الإدراك سبب يحثّ على المزيد من التعلّم، بل واستمراره، وهذا عكس الإنكار والمسارعة إلى الاسترابة والتشكيك، فإنّه يحول دون ذلك.

ثمّ إنّ هاهنا تساؤل في مغايره تفسير الآية الكريمة بين (يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) وبين قوله تعالى: (وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)، فلماذا جعل عنوان الإدراك والإذعان المتعلّق بالآخرة إيقان، بينما جعل المتعلّق بالغيب إيمان، كما أنّه كذلك في قوله تعالى: (وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَ مَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ) (٢) في الآيتين، حيث اطلق على الإذعان بالوحي النازل عليه، وعلى الأنبياء من قبله اطلق عليه الإيمان، فما هو الفرق بين العنوانين؟

ومن الملاحظ أنّ اليقين لم يُجعل متعلّق في الآيات والروايات، الذات الإلهيّة، بل جعل متعلّق في الآيات، الآخرة، أو الإيقان بالآيات الإلهيّة، أو اليقين بوجود النار، ويُحذف متعلّقه ويقدر بلحاظ سياق الجملة، بينما الإذعان به تعالى جعل دوماً بعنوان الإيمان.

وقد ذكر في الآيات لليقين مراتب: علم اليقين كلّاً لو تعلّمون علم

ص: ١٤١

١- (١) يونس ١٠: ٣٩.

٢- (٢) البقره ٢: ٤.

الْيَقِينِ» (١)، وعين اليقين: (ثُمَّ لَتَرُونَهَا عَيْنَ الْيَقِينِ) (٢)، وحقّ اليقين (إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ) (٣)، (وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ) (٤).

والإيمان وإن استعمل في مطلق الإذعان الشامل لمطلق مراتب اليقين والظنّ والرجاء إذا روعى الاحتمال والمحتمل وأخذ على جانب الحيطة، كما ورد في الروايات، ففي قول الصادق عليه السلام: «إِنَّ الْإِيمَانَ عَشْرُ دَرَجَاتٍ بَمَنْزِلَةِ السَّلْمِ يَصْعَدُ مِنْهُ مَرْقَاهُ بَعْدَ مَرْقَاهُ» (٥).

وروى في «الكافي» عن الباقر عليه السلام: «إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَنَازِلٍ، مِنْهُمْ عَلَى وَاحِدَةٍ، وَمِنْهُمْ عَلَى اثْنَتَيْنِ... فَلَوْ ذَهَبَتْ تَحْمَلُ عَلَى صَاحِبِ الْوَاحِدَةِ ثَنَتَيْنِ لَمْ يَقُوا...»

وعلى صاحب الستّ سبعا لم يقوا، وعلى هذه الدرجات» (٦).

وهذه الرواية تعطى عدم الحصر في درجات الإيمان.

وفي رواية أخرى عن الصادق عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ أَجْزَاءَ بَلِغَ بِهَا تِسْعَ وَأَرْبَعِينَ جِزَاءً، ثُمَّ جَعَلَ الْأَجْزَاءَ أَعْشَارًا، فَجَعَلَ الْجِزَاءَ عَشْرَةَ أَعْشَارٍ، ثُمَّ قَسَمَهُ بَيْنَ الْخَلْقِ» الحديث (٧).

فيظهر منها أنّ تقسيمه إلى مئات بل الآلاف من الدرجات.

ص: ١٤٢

١- (١) التكاثر ١٠٢:٥.

٢- (٢) التكاثر ١٠٢:٧.

٣- (٣) الواقعة ٥٦:٩٥.

٤- (٤) الحاقّة ٦٩:٥١.

٥- (٥) الكافي: ٢:٤٥، الحديث ٢، كتاب الإيمان والكفر.

٦- (٦) الكافي: ٢:٤٥، الحديث ٣.

٧- (٧) الكافي: ٢:٤٤، الحديث ١.

وفى روايه رابعه عنه عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَضَعَ الْإِيمَانَ عَلَى سَبْعَةِ أَهْهِمْ»^(١).

ورغم إطلاق الإيمان على كل هذه الدرجات، إلّا أنّ بين استعمال الإيمان بمعنى مطلق الإيمان والتسليم يغير استعمال الإيمان بمعنى أخصّ، وهو الإذعان والتسليم بشيء خارج عن حيطه الإدراك التفصيلي، بل يدركه الإنسان من وراء حجاب، أو فقل: يدركه بالآيات والدلائل.

وبعبارة اخرى: أنّ الإيمان بالمعنى الأخصّ ما يفرض فيه عدم الإحاطه بالشىء، بل إدراك وجه الشىء إدراكاً إجمالياً، وهذا بخلاف اليقين (علم اليقين) أو (عين اليقين) أو (حقّ اليقين).

نعم، قد يُفترق بين اليقين وعين اليقين وحقّ اليقين وعلم اليقين بأن يعرف اليقين كما عن «القاموس» (بإزاحه الشكّ)^(٢). ومن المعلوم أنّ معنى الشكّ ليس تساوى الاحتمال، بل هو افتراض النفس وحيرتها وتردّدها، سواء كان مستوى الإدراك لدى النفس عالٍ أو متوسط أو نازل وهو الريب الذى مرّ ذمّ القرآن له، وأنّه منهج غير معرفي، بل نهج جاهليّ جهليّ، وعلى هذا المعنى من اليقين، وهو حاله سلامه النفس فى كفيّته التعاطى مع المعطيات العلميه، سواء توفّرت النفس على حجم وفير من الإدراكات أو مقدار ضئيل، فإنّ لكلّ مقدار ووظيفه علميه ومعرفيه للتعاطى معها، ولا معنى حينئذٍ للاضطراب أو الجمود عن الحركة الفكرية، ولا معنى للابتعاد عن الموقف العمليّ اتّجاه النتيجة العلميه لذلك المطلوب، ولعلّ من هذا الباب ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «الْإِسْلَامُ هُوَ التَّسْلِيمُ، وَالتَّسْلِيمُ هُوَ الْيَقِينُ، وَالْيَقِينُ هُوَ التَّصَدِيقُ، وَالتَّصَدِيقُ هُوَ الْإِقْرَارُ، وَالْإِقْرَارُ

ص: ١٤٣

١- (١) الكافي: ٢: ٤٢، الحديث ١.

٢- (٢) القاموس المحيط: ٤: ٢٧٨.

«إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى يَقِينَهُ فِي عَمَلِهِ، وَالْكَافِرَ يَرَى إِنْكَارَهُ فِي عَمَلِهِ» (٢).

فجعل عليه السلام المقابلة بين اليقين والإنكار حيث أنّ عنوان الإنكار يستعمل في الإباء والرفض من دون دليل وشاهد، ومن الواضح أنّ هذا المعنى من الإنكار ليس هو النفي المسند إلى بينات ودلائل، وإنما هو الإباء من دون بحث ولا تنقيب علمي.

ومما يعزّز هذا المعنى للشكّ ما قيل عن جملة من اللغويين أنّ الريبه والريب في الأصل القلق والاضطراب، وشاع استعمالها في سوء الظنّ والتهمه، ومن ثمّ فسّر قوله تعالى: (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا) (٣)، باليقين، أي فسّر الرجاء في قوله جلّ جلاله باليقين، ونحوه من استعمالات الرجاء في الآيات المتعلقة بالآخرة، والمصحح لهذا الاستعمال هو استناد هذا الراجح إلى موازين تقتضيها الحكمه والعلم، وإن كانت درجة إدراكه نازله، بخلاف الجاحد والمنكر، فإنّه وإن تصاعدت درجة الاحتمال لديه، إلّا أنّه لا يقوم بالوظيفه والمسؤوليّه العلميّه اتّجاه هذه المعطيات العلميّه بخلاف الشخص الموقن، فعلى هذا يكون الوجه المصحح لليقين في مقابل الشكّ هو استناد الشخص إلى موازين يستيقن بجدوائتيّها بغضّ النظر لدرجة الاحتمال التي وصل إليها.

ومن موارد إطلاق اليقين بهذا المعنى على الظنّ في قوله تعالى: الَّذِينَ

ص: ١٤٤

١- (١) الكافي: ٢: ٤٥، الحديث ١. عيون الحكم و المواعظ: ٥٨.

٢- (٢) اصول الكافي: ٢: ٤٥، كتاب الإيمان و الكفر - باب نسبه الإسلام.

٣- (٣) الكهف ١٨: ١١٠.

يُظَنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١)، وغيرها من موارد الاستعمال.

مع أنَّ الظنَّ استعمل في القرآن في موارد اخرى كثيرة في مقابل الحقِّ، بل اطلق الظنَّ على ما يوجب اليقين المنطقي الأرسطي، أى ما ينبع من الحسِّ، كما في قوله تعالى في شأن اليهود والنصارى: (وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا) (٢)، فالمقابلة بين اليقين والظنَّ هاهنا وإطلاق الظنَّ على الحسِّ إنما هو بلحاظ ترك اليهود والنصارى ما هو أقوى في درجة العلم والحجَّية، وهو قول عيسى ومعاجزه، وأنه سيبقى ويساهم في إقامه دوله الحقِّ فى الأرض، وركنوا إلى ما هو أضعف في درجة العلم وهو الحسِّ، ومن ثمَّ اطلق عليه الظنَّ بهذا الاعتبار، وهذا معنى من الظنَّ غير ما هو مستعمل في المنطق اليونانى، مع أنَّ المنطق الأرسطيَّ قد فاوت في درجات أسباب العلم، فجعل الفطريَّات، ثمَّ الأوليات، ثمَّ البديهيات، ثمَّ الحسيَّات، ثمَّ التجريبيَّات، ثمَّ الحدسيَّات، أى بينها هذه الأقسام الستة درجات متفاوتة في أسباب العلم، فلا يمكن للدرجة الأضعف أن تناهض الدرجة الأقوى.

وعلى أىِّ تقدير، فالإيمان بالمعنى الأخصَّ يغيّر عين اليقين وحقَّ اليقين، بل علم اليقين بالمعنى الذى يفرض فيه الإحاطه، ولم نقف - كما مرَّ - على مورد لم يُجعل متعلِّق اليقين - فضلاً عن عامّه وحقّه وعينه - معرفه الله، بل جعل متعلِّقاً للإيمان.

ثمَّ إنَّ ما ورد في الروايات من المغايره بين المؤمنين والمتقين والموقنين

ص: ١٤٥

١- (١) البقره ٢: ٤٦.

٢- (٢) النساء ٤: ١٥٧.

والمخلصين يشير إلى اختلاف مراتب الإدراك في المعرفة الإيمانيّة، وحيث تبين الروايه أنّ الفارق بين المؤمنين والمسلمين، والذي قد بينته الآيات أنّه طورٌ نوعيٌّ متكامل وراء طور ابتداء الإسلام.

هذا الفارق بينهما هو بعينه الفارق بين مقام المتّقين والمؤمنين كذلك الفارق بين الموقنين والمتّقين وبين المخلصين والموقنين.

وفي الحقيقة أنّ هذه الدرجات تابعه لدرجات المعرفة والبصيره، فالمؤمنون حيث يشوب معرفتهم جانب من الإبهام والإجمال، ومن ثمّ تكون الحجّيه لديهم تعبدية، أى علمية مشوبه بإبهام وإجمال.

بينما الحجّيه عند الموقنين حجّيه علمية تفصيلية، وهى فوق الحجّيه التعبدية، أى لا-إبهام فيها ولا إجمال، وإن كان فيها تسليم وانقياد للحقّ والحقيقه، ومن ثمّ تكون طاعه وتسليم الموقن لإبصاره الحقيقه، ويكون استمساكه بطريق الصواب أشدّ من عموم المؤمنين.

وممّا يشير إلى هذا المعلم الثالث فى نهج المعرفة قوله تعالى: (هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ) (١)، فخصّ تعالى حصول المعرفة والهدايه ونزول الرحمه التى هى عباره عن السعاده بالموقنين.

المعلم الرابع: الهدايه واقتراحها عن عموم العلم

إشاره

حيث أنّ القرآن رغم إشادته الكثيره بالمديح للعلم، إلّا أنّه يؤكّد من جانب آخر على الهدايه ويقع الكلام فى المائز بين عموم أنواع العلم والعلوم، وبين حقيقه الهدايه.

ص: ١٤٦

والهدايه كما فى «صحيح الجوهري» و «القاموس»: الرشاد والدلاله (١)، وهذان المعنيان عبارته اخرى عن الايصال إلى المطلوب، وهو الرشاد والرشد، والثاني إراءه الطريق، وهو الدلاله والكاشفيّه، وقريب من ذلك ما ذكره الفتونى فى «مرآه الأنوار»، قال: «الهدايه فى الاستعمال الشرعى: الدلاله إلى الحقّ والدعاء إليه، وإراءه الطريق والإرشاد إليه، والأمر به» (٢).

وبشئ من التدقيق، فإنّ المائز بين المعنيين للهدايه هو الفارق بين فعل قوّه العقل النظرى الذى شأنه الإراءه ومجرّد الإدراك من دون استدعاء عمل ولا حركه، بخلاف فعل قوّه العقل العملى الذى شأنه الدعوه والتحريك والبعث والحاكميه والأمرية والناهيّه بالزجر، وإن لم يصل إلى حدّ الإلجاء. وبالتالي فهذان المعنيان لغتان للعقل النظرى والعملى.

ومن أمثله التعدّد لمعنى الهدايه ما فى قوله تعالى: (إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) (٣)، فالإنذار إراءه للطريق يقوم به الأنبياء والرسل، فهم المنذرون، والهدايه وهى الايصال للمطلوب وهو دور يقوم به الأئمّه، سواء أكانوا من الأنبياء أو الأوصياء.

وعلى أىّ تقدير: فبين الهدايه بمعنيها فرق فارق مع مطلق الآيه، فإنّ كلّ علم لا يتخطى حدود متعلّقه وموضوعه وغايته، فمثلاً علوم الطبيعيات، كعلم الفيزياء يتناول أحوال المادّه، وعلم الأحياء يتناول أحوال الكائن الحىّ الجسمانى، وعلم الكيمياء يتناول التفاعل بين عناصر الموادّ، وعلم الرياضيات يتناول العدد

ص: ١٤٧

١- (١) الصحاح: ٦: ٢٥٣٣. القاموس المحيط: ٤: ٤٠٣.

٢- (٢) مرآه الأنوار مشكاه الأسرار: ٥٤٤.

٣- (٣) الرعد ١٣: ٧.

موالمعدود... وهلمّ جراً، كلّ علم له موضوع يبحث عن اتّصافه بحكم أو بصفه ما يسمّى المحمول، وهذا الحكم أو الصفه هي الغايه من ذلك العلم، ولا ريب أنّ هذه الغايه محدوده لا تتناول ما وراءها، ودوائر مساحات أبعد.

ومن ثمّ صحّ ما يقال من أنّ غايه العلم لا تُحدّد ما وراءها، فقد تُوظّف هذه الغايه إلى غايات مختلفه وراءها، فعلم الفيزياء وعلم الذرّه الذي يُعبّر عنه بعلم الفيزياء النوويّه، قد يُوظّف للمقاصد السلميّه النافعه، وقد يُوظّف للأهداف الحربيه المهلكه للنسل البشريّ.

فالعلم النوويّ من حيث هو، لا يُحدّد المسار والاتّجاه فيما وراء غايته، وكذلك علم الأحياء وما يُعرف بعلم الباحث عن المسائل الجرثوميّه والبكتيريّه أو مسائل المحاليل والعناصر الكيميائيّه الخطره، فإنّ هذه العلوم قد تُوظّف وتُجبر للخدمه البشريّه والتنميه وال عمران والبيئه الكونيه، وقد تُوظّف لهلاك البشريّه والبيئه، فإنّ هذه العلوم بنفسها لا تحدّد مسار الخير والشرّ، بل لا بدّ من علم آخر وراءها يتحدّد به المسار، وليس هذا القصور خاصّ بالعلوم الطبيعيّه كذلك خاصّ بالعلوم الروحيّه والإنسانيّه والنفس، فإنّ غايه هذه العلوم تحديد أحوال النفس وحالات القوّه فيها وحالات الضعف والتدبير والترويض لقوى النفس أو في بيئه الأسره أو في البيئه الاجتماعيه، كما في العلوم الاجتماعيه، كالعلوم السياسيّه والإداريه والاستراتيجيه، وغيرها من العلوم النظميه، فإنّها مهما بلغت فلها غايه محدوده وهي النشأه الأرضيه، وأمّا ما وراءها من الحياه في العوالم الأخرى، فليست في متناولها، ومن ثمّ تقصر هذه العلوم في تحديد المسار في العوالم اللّاحقه، فلا بدّ من علم ومعرفه فوقها يوظّفها في مسار الخير والسعاده والكمال، سواء في النشأه الدنيويّه أو النشآت اللّاحقه، فالعلوم في نفسها

لا تُحدّد الغايات التي وراءها، بل هناك علم جامع يُحدّد خريطه المسار ويكون فوقياً مشرفاً مهيمناً عليها، وهذا هو معنى الهدايه.

ومن ثمّ مرّ في معنى الهدايه إمّا بمعنى إراءه الطريق، وهو المسار أو الإيصال إلى المطلوب، وبالتالي اختلفت الهدايه عن مطلق العلم، فإنّ الهدايه تستهدف بالدرجه الأولى التوظيف والاستثمار الذي يتعلّق بالعلوم، وتجعل من العلوم علوماً هادفه للسعاده والفلاح، ولك أن تقول: إنّ الفارق بين العلم والهدايه نظير الفرق بين إدراكات العقل النظرى حيث يُدرك مطلق وجود المعلومات، وبين العقل العمليّ، فإنّه يُعمل المعلومات والعلوم في مسير الكمال والخير والسعاده، كما في قول الإمام الكاظم عليه السلام في تعريف العقل بأنّه «ما عبّد به الرحمن واكتسب به الجنان»^(١)، وعلى ضوء ذلك فالهدايه أمر أرفع مهيمن على العلوم، ومن ثمّ كانت الغايه المهمّه من الكتاب والصفه العليّه للقرآن أنّه كتاب هدايه، وهذا معلّم مهمّ في نهج المعرفه الذي يهديه القرآن الكريم بينما في المدارس المنطقيه الأخرى لا تتناول الغايات البعيده، بل تقتصر على الغايات المحدوده، وهذا مائز آخر بين نهج المعرفه في القرآن والمناهج البشريّه.

الغيب والانتظار

قد ورد في جملة من الروايات عنهم عليهم السلام في تفسير الغيب في هذه الآيه بالإمام المهدي المنتظر عليه السلام.

ففي روايه أبي بصير، قال: «سألت الصادق عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ...»، فقال: المتّقون

ص: ١٤٩

شيعه عليّ عليه السلام، والغيب فهو الحَجَّه الغائب، وشاهد ذلك قوله تعالى: (وَ يَقُولُونَ لَوْ لَّا - أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةً مِنْ رَبِّهِ فَقُلُتْ إِنَّمَّا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ) (١)«(٢)».

وبيان الروايه بقرينه بقيه الروايات الوارده المفسره للغيب بمطلق الغيب، في صدد بيان أبرز معالم الغيب، وهو الإيمان بمجىء دوله الحق كغايه وحكمه من خلقه الأرض.

ومجموع الآيات فى المقام يعضد بروز هذا المصداق، حيث ذكر فى الآيات الإيمان بالكتب السماويّه واليقين بالآخره، وهو يفترض فيه الإيمان بالله وبالمرسلين، فمع إفراد عنوان الإيمان بالغيب فى مقابل ذلك، يبرز هذا المصداق من الغيب كمورد جليّ يراد من هذا العنوان، لا- سيّما بضميمه ما استشهد به عليه السلام فى قوله تعالى من سوره يونس، حيث إنّ احتجاج المشركين مع النبىّ صلى الله عليه وآله ومطالبتهم بنزول آيه ربّانيه فاصله بين الطرفين، والظاهر من هذه الآيه أنّ سيّمتها تأييد ربّانى للنبىّ صلى الله عليه وآله، لا سيّما وأنّ البيان فى الآيات السابقه على ذلك فى تلك السوره حول اختلاف الناس من بعد ما كانوا أمّه واحده.

ومن البيّن أنّ مجىء دوله الحقّ بحسب الوعد القرآنيّ فى الآيات العديده وروايات الفريقين، هو التأييد العظيم الموعود به النبىّ (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) (٣).

ومن ثمّ يظهر أنّ تفسير المتّقين بشيعه عليّ عليه السلام هو بيان لاستكمال مراتب التقوى.

ص: ١٥٠

١- (١) يونس ١٠: ٢٠.

٢- (٢) كمال الدين: ٢٩.

٣- (٣) التوبه ٩: ٣٣.

إشاره

ولا يخفى أنّ هاتين الجملتين معطوفه على الصلاه لاسم الموصول، وهو فى موضع نعت أو بيان للمتقين، فتكون هذه الجمل الثلاثه فى الصلاه مبينه لأعمده التقوى وهى الإيمان بالغيب وإقامه الصلاه، والإنفاق ممّا يملكه المؤمن، كما لا يخفى أنّ إقامه الصلاه يغير مجرّد أدائها، بل إقامه الصلاه لا يقتصر على أدائها بحدودها، بل يشمل ما فى قوله تعالى: (وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ) (١).

وقوله تعالى: (وَ أَمُرُ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَ اضْطَبِرْ عَلَيْهَا) (٢).

وقوله تعالى: (الَّذِينَ إِذْ مَكَتَاهُمْ فِي الْمَأْزُضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوْا الزَّكَاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَ لِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) (٣)، أى إقامه الصلاه كشعيه فى المجتمع كما أنّ هذه الآيه من الحجّ تبين عمده وظائف الحاكم فى نظام الشريعة، فيظهر من كلّ منهما أنّ إقامه الصلاه وإيتاء الزكاه ركنان فى التقوى وركنان فى وظائف الحكم.

وقد بين أنّ هذين الركنين يؤسسان البنيه الرئيسيه لمجتمع الإيمان، أحدهما فى البعد الروحى، سواء الفردى أو الاجتماعى، والآخر البعد المادى، وهو التكافل فى المادّه والأموال، وفيما ورد عنهم عليهم السلام شمول الإنفاق إلى إنفاق العلم ومعرفة الهدايه، فعن أبى عبدالله عليه السلام، قال: «مِمَّا عَلَّمْنَا هُمْ يَنْبُتُونَ، وَمَا عَلَّمْنَا هُمْ مِنَ الْقُرْآنِ يَتْلُونَ» (٤)، وهو بيان للمصاديق الأكثر خطوره.

ص: ١٥١

١- (١) مريم ١٩: ٥٥.

٢- (٢) طه ٢٠: ١٣٢.

٣- (٣) الحجّ ٢٢: ٤١.

٤- (٤) معانى الأخبار: ٢٣، الحديث ١.

المعلم الخامس: في نهج المعرفة القرآني شرطه العباده في قوه الإدراك والبصيره

حيث أنّ هاتين الجملتين في الآيه من إقامه الصلاه والإنفاق، كما مرّت الإشارة إليه وردتا في سياق تعريف المتقين، وبيان التقوى التي توجد الأهليه لإدراك الهدايه القرآنيه ومعرفتها، ففي هاتين الجملتين بيان لارتباط السلوك الروحي للإنسان في ضمن برنامج ونظام الصلاه وارتباطه بقوه إدراك الإنسان للحقائق، وقد نقل عن كثير من المحققين أنّهم كانوا إذا استعصت عليهم المسائل تنقلوا بركعات بغيه أن تنحلّ لديهم عُقد المسائل العلميه.

والحاصل: أنّ ما للصلاه من خواصّ من أنّها تنهى عن الفحشاء والمنكر في قوله تعالى: (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) (١)، وكذلك في قوله تعالى:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي) (٢)، وأنّها معراج وعروج المؤمن، فإنّ لتهديب قوى النفس الأثر البالغ في عدم مشاغبتها للعقل، والأثر البالغ لعدم تعصّي النفس وتمرّدها، وعدم وجودها أمام الحقائق.

ومن ثمّ أخفقت المدارس المنطقيه الكثيره في عصمه الفكر الإنسانيّ، حيث أغفلت التهذيب الأخلاقيّ، أو أغفلت البرنامج الأمثل في تهذيب الأخلاق الذي هو الصلاه، ومن أهمّ خواصّ الصلاه إيجابها للذكر، والذكر هو من أهمّ معالم نهج القرآن الكريم، كما يشير إليه قوله تعالى: (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ) (٣).

ص: ١٥٢

١- (١) العنكبوت ٢٩:٤٥.

٢- (٢) طه ٢٠:١٤.

٣- (٣) يس ٣٦:٤٩.

وهناك العشرات من الآيات التي تشير إلى هذا النهج في القرآن، وأنه من أهم خواص منهاج السماء والكتب النازله على الأنبياء، وأنه الغايه لجمله من الأحكام فى الشريعة، ويشير إليه قوله تعالى: (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ) (١).

وقوله تعالى: (وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) (٢).

والذكر اسم للنبي صلى الله عليه وآله وللقرآن الكريم أيضاً، كما فى قوله تعالى: (قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ) (٣).

وقوله تعالى: (ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ) (٤).

وقوله تعالى: (وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) (٥).

وقوله تعالى: (وَ هَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ) (٦).

إلى غير ذلك من الآيات الكثيره.

وقوله تعالى: (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ) (٧) فيه بيان لغايه القرآن، مع أن القرآن الكريم قد وصف بأوصاف عديده، كالنور والهدايه والحكمه، وغيرها، إلا أنه من أهم الأوصاف فيه (الذكر).

ص: ١٥٣

١- (١) الغاشيه ٨٨: ٢١ و ٢٢.

٢- (٢) القصص ٢٨: ٥١.

٣- (٣) الطلاق ٦٥: ١٠ و ١١.

٤- (٤) آل عمران ٣: ٥٨.

٥- (٥) النحل ١٦: ٤٤.

٦- (٦) الأنبياء ٢١: ٥٠.

٧- (٧) القمر ٥٤: ١٧.

ومادّه الذكر تشير إلى التذكّر لما هو موجود فى الأصل فى فطره الإنسان، ومن ثمّ يبيّن الهدف من رساله الرسل فى قوله عليه السلام: «فَبَعَثَ فِيهِمْ رَسُولَهُ، وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ، لِيَسْتَأْذِنُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسَى نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمُ بِالتَّنْبِيْغِ، وَيُثْبِرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ، وَيُرُوهُمْ آيَاتِ الْمَقْدَرَةِ»(١).

وإلى ذلك الإشارة فى قوله تعالى: (فَطَرَتِ اللَّهُ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) (٢)، حيث تشير الآية إلى تطابق الفطره مع أحكام الشريعة، وهذا التطابق فى الخطوط العامه بمعنى قضاء الفطره بذلك وإدراكها.

ثمّ إنّ فى منهج التذكير الذى هو من معانى المنهج السماوى والمنهج الوحيانى جملة من الخصائص:

الأولى: اعتماد التنبيه على البديهيات (أى اعتماد الأدلّه الأقرب لإدراك البديهى للفطره)، وهذا بخلاف خطاب الفلاسفه أو المتكلمين، فإنّهم يعتمدون الأدلّه المتوغّله فى النظرية، ممّا يصاحبها الكثير من الإجمال والإبهام، وبالتالى عدم انجذاب عموم الناس إلى أساليبهم وخطابهم.

الثانية: إنّ اسلوب التفكير أبعد عن الخطأ والاشتباه من الأساليب التى تعتمد المنهج النظرى، فإنّ الأدلّه النظرية كلّما ابتعدت عن البديهية أكثر وأكثر، دبّ وكبر احتمال الخطأ.

الثالثة: إنّ فى التذكير سهوله فى تحريك الفطره، وذلك بسبب إثاره مرتكزات مغروزه فى الأصل فى فطره وقوى الإنسان، وهذا بخلاف الخطاب النظرى

ص: ١٥٤

١- (١) نهج البلاغه - الخطبه ١.

٢- (٢) الروم ٣٠: ٣٠.

التجريدى، فإنه أبعد عن انس الفطره وألفها.

الرابعه: إنَّ فى التذكير موازنه بين قوى النفس والحيلولة بين طغيان بعضها على البعض الآخر، وهو شاكلة الفطره فى أصل الخلقه، وهذا بخلاف المناهج النظرية، فإنها توجب الإفراط فى التركيز على قوه الفكر أو بعض القوه الإدراكيه ممَّا يتسبب التغافل عن بقيه القوى وعدم إحكام السيطرة أو الموازنه بينها وبين بقيه القوى، من ثمَّ يُمزج فى الخطاب القرآنى بين الجانب التعليمى والتربوى، كما فى قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَ إِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) (١).

فجمع بين التلاوه والتزكيه والتعليم، والتلاوه هى التعليم الابتدائى.

وكذا فى قوله تعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) (٢)، فجمع بين الخطاب بالحكمه والوعظ الحسن الذى هو ترويض وتهذيب للقوى العمليه فى النفس، بل للقوى الإدراكيه أيضاً، وهذا ما يفتقد بوضوح فى خطاب المدارس البشريه الأخرى.

وقد مرَّ الصلحه بين إقامه الصلاه وحصول الذكر والتذكُّر، حيث أنَّ فى إقامه الصلاه ترويض للقوى النفسائيه والغرائز عن الجموح والطغيان، والذى يسبب انطماس الفطره ودفنها تحت ركام الهيئات الرذيله، فيستعصى على الإنسان إدراك الحقائق والحقيقه لعجزه عن التذكُّر، وهذا رباط خطير تشير إليه الآيات القرآنيه فى ضعف وقصور إدراك كلِّ إنسان بسبب الهيئات الرديئه الظلماتيه التى تنتقش فى النفس، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: (وَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ

ص: ١٥٥

١- (١) الجمعة ٢:٦٢.

٢- (٢) النحل ١٦:١٢٥.

وقوله تعالى: إِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٢).

وقوله تعالى: أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَ سَمِعِهِمْ وَ أَبْصَارِهِمْ وَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (٣) ، وفي الآيه إشارة إلى أن الطبع على القلب حصول حجاب على سمع القلب وبصيره وإبصار القلوب، فتحصل غفله عن التذكّر.

وقد صرّح بذلك في قوله تعالى: (أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ) (٤).

وقوله تعالى: (ذَلِكُمْ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ) (٥).

وغيرها من الآيات التي تشير إلى تأثير إدراك الإنسان الفطريّ بنتيجة الأعمال الرديّة التي يرتكبها، بل لا يقتصر هذا الأثر السلبيّ على الأعمال الرديّة، بل قد بيّن في الآيات أنه ينجم عن الفعل الإدراكيّ الخاطيّ للإنسان أيضاً الذي هو نحو من العمل العلميّ الذي تمارسه النفس، كما في قوله تعالى: (فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكُمْ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ) (٦).

بل أنّ هناك إشارة هامّة اخرى في الآيات إلى أنّ كمال التذكّر لا يحصل في

١- (١) التوبة ٩: ٩٣.

٢- (٢) المطففين ٨٣: ١٣ و ١٤.

٣- (٣) النحل ١٦: ١٠٨.

٤- (٤) الأعراف ٧: ١٠٠.

٥- (٥) المنافقون ٦٣: ٣.

٦- (٦) يونس ١٠: ٧٤.

فطره الإنسان إلأبذكر مبدأ الوجود ومنبعه ومصدر الواقعيه، فإذا جهل أكبر حقيقه وواقعيه، ينجز ذلك إلى جهل جمله من جمود الفطره، كما يشير إليه قوله تعالى:

(نَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ) (١).

ويته على ذلك ما ذكر في الأبحاث العقلية من براهين الصديقيين على وجوده تعالى انطلاقاً من التسليم بأصل الواقعيه، وأن ذلك عين التسليم بالواقعيه الأزليه الأبدية السرمديه، إذ كل واقعيه لا بد أن تستند إليها، وإلا لفقدت واقعيته.

فالركون إلى أى واقعيه ما، ينطوى على الركون إلى الواقعيه الأزليه، وقد ذكروا ذلك بصياغات وتقارير عديده رشيقة فائقة لا تحتاج إلى مقدمات نظريه، بل تستند إلى أبده البديهيّات.

وعلى ضوء ذلك فتكون البيانات الوحيانيه الوارده فى التوحيد وشؤون الألوهيه ما هى إلتذكير بهذه البديهيته على الإطلاق، والظريف اللطيف فى هذه البراهين أنها تبين أن أول التصورات كما أن أول التصديقات هو البارى تعالى، لا ما قيل من أن أول التصورات مطلق الوجود أو الوجود المطلق، وأن أول التصديقات بطلان التناقض، وذلك لأن مطلق الوجود أو الوجود المطلق ينطوى فيه تصور الوجود الأزلى، وأما اجتماع النقيضين فيفترض فيهما التقييد فى الوجود والعدم، والتقييد فى كلا الطرفين يستند إلى الإطلاق فى الواقعيه، فتكون الواقعيه المطلقة سابقه عليهما.

أو لك أن تقول: إن صدق بطلان اجتماع النقيضين كقضيه صادقه فى الأزل أن تستند إلى واقعيه أزليه مطلقه، فهيمنه تلك الواقعيه المطلقة وإحاطتها وقيوميتها

ص: ١٥٧

على كل شيء.

ثم لا يخفى الإشاره واللطفه الموجوده فى تسميه النبى صلى الله عليه وآله بالذكر فى قوله تعالى: (قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ) (١)، فإن أول الذكر - كما مر - هو البارى تعالى، وثنى بعد ذلك بالنبى صلى الله عليه وآله.

وفى «مرآه الأنوار» للفتونى: «أنه قد ورد فى تأويل الذكر فى الآيات، بالقرآن» (٢)، وقد مرّت الإشاره إلى تلك الآيات، ولا يخفى أن هذا المعنى أيضاً يشير إلى أن مهمّات علوم الفطره كلّها مودعه فى القرآن الكريم، هذا وقال أيضاً:

«أنه ورد تأويل الذكر بعلى عليه السلام أيضاً، وبالائمه من آل محمّد عليهم السلام» (٣)، ولا يخفى أن هذا التسلسل فى مراتب الذكر بالبده به تعالى، ثم بالرسول صلى الله عليه وآله، ثم بالقرآن، وعلى، ثم بالائمه من ولده عليهم السلام.

ص: ١٥٨

١- (١) الطلاق ١٠:٦٥ و ١١.

٢- (٢) مرآه الأنوار ومشكاه الأسرار: ٢٤٧.

٣- (٣) مرآه الأنوار ومشكاه الأسرار: ٢٤٧.

اشاره

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ لَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ

وَ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (١)

قد جرى لغط شديد حول مفاد هذه الآيه، وهى من اصول المناهج التى يجنّدها القرآن كمحكم من الآيات، وقد اتّخذ منها نبزاً فى كفيته التحرّى عن العقيدة، ودور السلف السابق فى تحديد المسار العقائدى، فهناك عدّه تفاسير لمفاد الآيه:

تفسير أول للآيه: التحريف الأموى لمعنى الآيه

اشاره

وهذه الآيه قد احتجّ بها أهل سنّه الجماعه والخلافه على عدم لزوم تحديد الموقف تجاه الصحابه، وما جرى منهم وما جرى بينهم، وأنهم امّه قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عمّا كانوا يعملون، فلن نُسئل عن أعمالهم، ولسنا مطالبين بتقييمها، ولا بتعيين الصائب منها من الخاطى، ولا الحقّ منها والباطل.

والمستبج فى روايات أهل السنّه يجد أنّ تاريخ الروايات حافل عندهم على احتجاج بنى اميه بدءاً من معاويه بن أبى سفيان، وأنهم قد جنّدوا الرواه للاحتجاج

ص: ١٦١

بهذه الآيه على غلق باب مساءله الولاه، وعدم مساءلتهم ومراقبتهم، وعدم محاسبتهم عمّا يفعلون، ولكي لا تقوم الرعيه بردعهم عن المنكر السياسى والمالى والأخلاقى، فيتخلص ولاه بنى اميه بهذا التعريف لمفاد الآيه عن مقاومه ومعارضه الناس لما يفعلون، ولئلا تتفطن الأمه لما جرى بين الصحابه كي لا يهتدوا إلى المسير الهادى لدى أهل البيت عليهم السلام.

مع أنّ اللفظ الوارد فى الآيه (وَ لَا تُسَيِّئُونَ) ليس - بفتح التاء - أى ليس فيها نهى عن السؤال عمّا كانوا يعملون، وإنما فيها نفى مسؤوليتنا عن أعمالهم التى كانوا قد عملوها، ولو من باب (وَ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) (١).

قواعد مسؤوليته الموقف تجاه أعمال الأمم

القاعده الأولى: من أحبّ عمل قوم اشرك معهم، ومن أحبّ شيئاً حشر معه

مع أنّ هناك أصل عظيم مروى فى الحديث النبوى عند الفريقين، وهو قاعده شريفه مهمه، وهى قوله صلى الله عليه وآله:

«من أحبّ عمل قوم اشرك معهم، ومن أحبّ شيئاً حشر معه» (٢)، وهذه القاعده الشريفه ربّما يتراءى منها

ص: ١٦٢

١- (١) الأنعام ١٦٤:٦. الإسراء ١٥:١٧. فاطر ١٨:٣٥. الزمر ٧:٣٩.

٢- (٢) قد ورد هذا الحديث النبوى الشريف بألفاظ مختلفه، وصيغ متنوعه متعدده المعنى، فهو من المستفيض، بل من المتواتر، معنى عند الفريقين، ونذكر نذه من المصادر والبقية لا تخفى على الباحث المتتبع، فمن مصادرنا: بشاره المصطفى للطبرى: ٢٧٨. مستدرک الوسائل: ١٢: ١٨٠. بحار الأنوار: ٣٨: ٥٣ و: ١٣١: ٦٥ و: ٨١: ٦٦. العمده لابن بطريق: ٢٧٨، وغيرها. وأمّا المصادر الأخرى: صحيح البخارى: ٤: ٢٠٠، باب مناقب المهاجرين و: ٧: ١١٢ و ١١٣، كتاب الأدب. وصحيح مسلم: ٨: ٤٢، كتاب البرّ والصله والآداب - باب المرء مع من أحبّ. مسند أحمد بن حنبل: ٣: ٢٢٢، فيما رواه عن أنس بن مالك. سنن الدارمى: ١: ٩٢ -

التضارب مع ظاهر الآيه، حيث إنّ أعمال الآخرين يسأل الإنسان عنها من جهة المحبّه لها أو الكراهه والبراءه منها.

القاعده الثانيه: مطلوبيه ورجحان حبّ المعروف على صعيد المحبّه القلبيه ولزوم الكراهه والنفره من المنكر على صعيد القلب

بل أنّ هناك قاعده دينيه مهمّه تابعه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي: «مطلوبيه ورجحان حبّ المعروف على صعيد المحبّه القلبيه ولزوم الكراهه والنفره من المنكر على صعيد القلب، وموضوع المعروف والمنكر في هذه المرتبه لا يختصّ بالمعروف والمنكر المعاصر لزمان المكلف، بل يتّسع بوسع ما لروح الإنسان من افق فوق الزمان، أي على الإنسان المكلف أن يحدّد موقفه تجاه كلّ معروف ومنكر وقع في تاريخ وأدوار البشر منذ آدم إلى يومنا هذا، بل كذلك ما سيقع من أحداث أنبأ عنها القرآن أو السنّه المطهره، بل قد تستوسع هذه الدائره إلى عوالم اخرى سابقه ولاحقه، فيحبّ الإنسان ما هو معروف بقلبه، ويكره وينفر ما هو منكر بقلبه، وبالتالي أعمال الأمم التي قد خلت أو التي ستأتي نسأل عنها من جهة أفعال القلب من فعل المحبّه والتضامن والتولّي، أو فعل الكراهه والنفره والتبرّي.

نعم، قد يقال بأنّ السؤال هنا منصبّ عن فعل المكلف القلبي تجاه أعمال الآخرين، وليس منصبّ السؤال والمحاسبه هو نفس أعمال الآخرين، فيرتفع التنافى بين ظاهر الآيه وهذه القواعد، وإلّا فالقرآن لم يفتأ في السور القرآنيه يستعرض أنباء وأخبار وأحوال وأعمال شؤون الأمم السابقه منذ قاييل وهابيل

إلى نمرود وفرعون، فيستعرض سلسله الصالحين، ويربّي على محبتهم والتضامن معهم، والتحلّي بحليتهم، كما يستعرض الطواغيت والمتجبرين ويندّد بهم، ويحذّر عن الاتّصاف بأوصافهم.

كما يوصى القرآن بالعبره وبقراءه تاريخ الأمم السابقه، كقوله تعالى: (أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) (١).

وقوله تعالى: (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ) (٢)، وغيرها من الآيات الواردة في الحثّ على الاعتبار بتفتيش ما في أحوال الأمم.

القاعده الثالثه: التولّي والتبرّي توسّعه تعاليم القرآن الكريم إلى جميع الأمم السابقه

وفى الحقيقه فإنّ التولّي والتبرّي توسّعه تعاليم القرآن الكريم إلى جميع الأمم السابقه، ولا يختصّ بالأُمّه المعاصره للإنسان، فتعاليم القرآن الكريم تؤكّد على المسؤوليه الاجتماعيه والعقيديه الفكرية، وعلى اتّخاذ الموقف من الفعل الاجتماعى إلى حدّ يجد القارئ للقرآن الكريم أنّ ترابط ونسيج الفعل الاجتماعى يتداعى تأثيره، ويتجاوز زمن وقوعه، ويمتدّ إلى أجيال وأزمنه للاحقه كحلقات مترابطه، وهذه من المعادلات العلميه فى علم الاجتماع التى كشف عنها القرآن الكريم، فكيف يمكن أن يؤسّس مذهب الفرديّه والتمحور الذاتى من ظاهر هذه الآيه الكريمه، مع أنّ تقرير ماهية الفعل الاجتماعى حقيقه مفروغ عنها فى تعاليم السور والآيات، وأنّ الأفعال فى الأزمه السابقه مؤثّره فى البيئه الحاضره والمستقبلية كأمواج تتداعى منها مثيلاتها.

هذه الآيه (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ لَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) تكرر ورودها أيضاً فى نفس السوره فى رقم ١٤١، وسياق الآيه

ص: ١٤٤

١- (١) الروم ٣٠:٩.

٢- (٢) الأنعام ٦: ١١.

فى الموضوع الأوّل بلحاظ الآيات التى قبلها فى بيان أنّ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وبنه كانوا مسلمين، وهى مله إبراهيم، وأنهم كانوا على مقام عند الله.

ثمّ تبين الآيات التى بعدها أنّ أهل الكتاب يدعون الناس ليكونوا هوداً أو نصارى ليهدوا، فيردّهم القرآن الكريم بأنّ مله إبراهيم الحنيف هى الأخرى بالاهتداء بها، وأنّ الأنبياء جميعهم على دين واحد، لا فرق بين أحد منهم، وأنّها صبغه الله، وأنهم يحاجون المسلمين فى الله، مع أنّ نسبه الطرفين إلى الله واحده (وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلكُمْ أَعْمَالُكُمْ) (١)، ثمّ تتابع الآيات أنّ أهل الكتاب يدعون أنّ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى، فتقابل الآيه بين قولهم وقول الله، وأنّه قوله تعالى أحرى بالاتباع وأحجّ، وأنّ أهل الكتاب يكتمون الحقيقه، وما تحمّلوا من شهاده عنده من قول الله فى العهدين السابقين بذلك، وأنّ الله ليس بغافل عن كتمانهم هذا.

ثمّ يأتى تكرار الآيه، هذا وقد احتدمت الأقوال فى تفسير الآيه الكريمه، لا سيّما وأنّ الآيه تؤسس قاعده مهمّه فى منهج المعرفه، وقد صاغ الأمويون لها معنى، ومن قبلهم ومن بعدهم لسدّ باب البحث والفحص عمّا جرى من حقائق الأحداث بين الصحابه، سواء فيما جرى بينهم أو فيما جرى فى عهد رسول الله منهم، أو فيما صدر منهم قبل الإسلام، وكذا فيما جرى بينهم عند وفاه رسول الله، واتّخذت هذه الصياغه فى معنى الآيه شعاراً لقفلى أى بحث عن حقائق عهد الإسلام الأوّل.

فيروى الدارقطنى فى سننه بسنده عن أبى الدرداء، قال: «أربع سمعتهنّ

ص: ١٦٥

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تكفروا أحداً من أهل قبلي بذنوب وإن عملوا الكبائر، وصلوا خلف كل إمام، وجاهدوا - أو قال: قاتلوا -، ولا تقولوا في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي إلا خيراً قولوا:

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ لَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ (١).

وروى الطبراني في «المعجم الكبير» بسنده عن أبي راشد، قال: «جاء رجال من أهل البصرة إلى عبيد بن عمير، فقالوا: إن إخوانك من أهل البصرة يسألونك عن علي وعثمان.

فقال: وما أقدمكم شيء غير هذا؟

قالوا: نعم.

قال:

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ لَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢).

إلّا أنّ الذهبي علّق على حديث أبي الدرداء بقوله: «هذا باطل، ورواه تلميذ هلكي» (٣).

وفى «تفسير السمعاني» - بعدما ذكر تفسيراً سطحياً لمعنى الآية - قال: «وحكى عن بعض العلماء أنه سئل عن ما وقع من الفتن بين علي ومعاوية وطلحه والزبير وعائشه... فقراً:

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ لَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ...﴾ (الآية)، وهذا جواب حسن في مثل هذا السؤال.

وروى ابن عساكر، قال: «أخبرنا أبو القاسم إسحاق بن إبراهيم بن أرره الفقيه، حدّثنا أبي، قال: حضرت أحمد بن حنبل وسأله رجل عما جرى بين علي

ص: ١٦٦

١- (١) سنن الدارقطني: ٢: ٤٢.

٢- (٢) المعجم الكبير: ١: ١٥٠.

٣- (٣) تنقيح التحقيق في أحاديث التعليق: ١: ٢٥٦ و ٢٥٧.

ومعاويه، فأعرض عنه، فقيل له: يا أبا عبدالله، هو رجل من بنى هاشم، فأقبل عليه، فقال: اقرء:

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ (١).

وروى ابن كثير فى «البدایه والنهایه»، قال: «وروى ابن عساکر عن أبى زرعہ الرازى أنه قال له رجل: إني ابغض معاويه.

فقال له: لِمَ؟

قال: لأنه قاتل علياً.

فقال له أبو زرعہ: ويحك! إن رب معاويه رحيم، وخصم معاويه خصم كريم، فإيش دخولك أنت بينهما؟» (٢).

وروى ابن أعثم فى كتاب «الفتوح»: «أن حرقوص سئل رجلاً من يتولى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: أتولى أولياء الله المؤمنين، أتولى أبا بكر وعمر وعثمان ومقداً وسلماناً وصهيباً وبلاً وأسلاف المؤمنين.

قال: فممن تتبرأ؟

قال: ما أتبرأ من أحدٍ (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ ... الآية)» (٣).

وقال آخر حول ما جرى بين الصحابه: «إن أمكن الكلام بينهم بعلم وعدل، وإلا تكلم بما يعلم من فضلها ودينها، وكان ما شجر بينهما وتنازعا فيه أمره إلى الله، ولهذا أوصوا بالإمساك عما شجر بينهم، لأننا لا نستل عن ذلك كما قال عمر بن عبدالعزيز، تلك دماء طهر الله منها يدى فلا احب أن اخضب بها لسانى،

ص: ١٦٧

١- (١) تاريخ مدينه دمشق: ٥٩: ١٤١.

٢- (٢) البدایه والنهایه: ٨: ١٣٩.

٣- (٣) الفتوح: ٤: ٢٦٦.

وقال آخر: (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ ... الآية) (١).

وقال البعض: إذا كان هناك خلاف بين الصحابه فكان حسن التيه والإخلاص دائماً حاضرين.. وماذا جنى من محاكمتهم، ومن تكون حتى تحاكمهم، وقد حذرنا الله من ذلك إذ يقول في موضعين من القرآن الكريم (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ...) (٢).

وقال أبو بكر الخلال في كتاب السنّه - بعدما أورد أقوالاً لجملة من الرواه في حَظَر التعرّض لما جرى بين الصحابه، ولزوم الكفّ عمّا شجر بينهم -: «روى عن ابن حنبل أنه استشهد بهذه الآية لذلك» (٣).

والمتصفح لكلماتهم حول ما جرى في الصدر الأوّل من أحداث يرى لتمسّكهم بهذه الصياغه لمعنى الآية موارد كثيره، وصيروره هذا المعنى قاعده منهجيّه.

ومحصّل هذا المعنى الذى ذهبوا إليه فى الآية هو: أنّ الأمم الماضيه لا يعيننا أى شأن منهم لأنهم امم قد خلت ومضت وحسابهم على ربّهم، فلهم أعمالهم ولنا أعمالنا، وكأنّ المعنى فى هذه الآية هو أن يجعلوا قاعده وهى: المسؤليه لكلّ عامل عن عمله لا عن أعمال الآخرين سبباً لعدم الاعتناء بشأن وأحوال الأمم الماضيه، لأننا غير مسؤولين وغير مطالبين بما كانوا يعملون، وكان ذلك مدعاه لأن لا يقاضى الإنسان بحكم على تلك الأمم أو على ما شجر بينهم من اختلاف، ولكن أخذهم هذه النتيجة من معنى الآية تحريف بين، وذلك:

ص: ١٦٨

١- (١) منهاج السنّه: ٢٥٤:٦.

٢- (٢) حقيقه الخلاف بين علماء الشيعة وعلماء المسلمين لسعيد إسماعيل: ١٥ و ١٦.

٣- (٣) كتاب السنّه للخلال: ٢: ٤٨١.

أولاً: إنّ القرآن الكريم لم يفتأ يقصّ على البشر أحوال الأمم السابقة، الصالحة والطالحة، وما جرى من شؤونهم واختلافهم من عهد آدم، وما جرى بين هابيل وقابيل، وما جرى من الفراعنة وأصحاب الأخدود، وقوم عاد وثمود، وما كانوا عليه من شنيع الأفعال، فهذا دأب القرآن في تقصّي سجلّات الأفعال لتكون عبرة للبشر كي لا يقعوا مواقع الظالمين وأهل القبائح، وليتأسوا بأهل الحقّ والصلاح، ويستقيموا كاستقامتهم، فكيف يتوهم أنّ القرآن يدعو إلى عدم الاعتبار والاتعاظ بالأمم السابقة، بل ها هو قوله تعالى: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (١).

وقوله تعالى: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا...)(٢).

وقوله تعالى: (تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا...)(٣).

وقوله تعالى - في شأن أهل الكهف والذين اعتدوا عليهم -: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ...)(٤).

وقوله تعالى: (كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ...)(٥).

ص: ١٦٩

١- (١) يوسف ١٢: ١١١.

٢- (٢) يوسف ١٢: ٣.

٣- (٣) الأعراف ٧: ١٠١.

٤- (٤) الكهف ١٨: ١٣.

٥- (٥) البقره ٢: ٩٩.

وقوله تعالى: (فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَ مَا كُنَّا غَائِبِينَ) (١).

بل أن القرآن يدعو إلى تربيته الأجيال وتحديثهم بعبء التاريخ والأمة، كقوله تعالى: (فَأَقْصِبْ قَصَصَ الْقَوْمِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (٢).

ثانياً - تاريخ صدر الإسلام مصدر من اصول معرفه الدين:

إن تاريخ الإسلام والأحداث التي جرت فيه بما فيه من سيره الصحابه ومواقفهم وأفعالهم، وما جرى بينهم ليس تاريخاً بحتاً ولا حقياً تاريخياً محضه، بل هو من تاريخ الأديان المرتبط بأدله ودلائل ذلك الدين، وليحصل التمييز بين ما هو صافى الدين، وبين ما استحدث من إحداهت تبديل فيه.

وبعبارة اخرى كيف يتسنى لمن يريد البحث في صحه المذهب الذي يعتنقه، والنهج الذي يسلكه ليعذر ما بينه وبين ربه، أن لا يتصفح حقيقه أحداث تاريخ الإسلام، بل كيف يتعرف الإنسان على دين وينتمى إليه لا يعرف تاريخه، وفي سورة آل عمران في الآيات التي تتعرض إلى واقعه وغزوه احد والأخديين - وهم من شارك في غزوه احد - وكذلك آيات سورة الأنفال التي تتعرض إلى البدرين، قد تضمنت الذم لطوائف منهم بشده، فضلاً عن الآيات التي تتعرض إلى غزوه حنين في سورة البراءه، وغزوه الأحزاب في سورة الأحزاب، وغيرها من السور، كسوره المنافقين وذيل سورة الجمعة وسوره التحريم التي لا تفتأ تعلم المسلمين في قراءتهم اليوميه للقرآن على تمحيص حال الصحابه والتدين بمنهج التمحيص، وتعديدهم على ذم من اتى منهم بالموبقات، فتلاوه هذه السور

ص: ١٧٠

١- (١) الأعراف ٧:٧.

٢- (٢) الأعراف ٧:١٧٦.

والآيات والإيمان بها دين من محكمات الكتاب العزيز، مضافاً إلى الأحاديث النبويّة الواردة بنفس هذا المضمون التي لا تحصى كثره، كحديث الحوض، وحديث الناكثين والقاسطين والمارقين، وحديث اغيلمه قريش وغيرها.

التاريخ هوّيّه الأمم

ثالثاً: إنّ الحقّ والواقع الأصيل يعتزّ به ومحلّ فخر واعتزاز ولا يتنكّر منه، ممّن له هوّيّه ممتدّه وضاربه بجذورها في أعماق التاريخ، كيف يتخوّف من ذلك التاريخ المجيد، وإنّما الذى يهرب من حقائق التاريخ هو صاحب الهويّه المسبوكة بوضع السياسات المرتسمه فى افق السراب، وأى أمّه أصيله تتنكّر من تاريخها الذى هو هوّيّتها وأصلها وحسبها ونسب انتمائها، وإنّما يتنكّر من تاريخه من يتخوّف من بقاع مظلمه فيه ليلتصق بها، وينتمى إليها، وأمّا ذو التاريخ المنير الوضّاء فكيف لا يحب الانشداد إلى ذلك الماضى التليد وأثيل العزّ، فلا يمكن تصوّر صاحب مقاله حقّ ومنهج واضح يتأبّى من التعرّف على تاريخ مذهبه ودينه، بل كيف يتسنّى له التعرّف على حقيقه دينه ومذهبه من دون وقوفه على بدء الابتداء والولاده، وكيف له أن يوثّق ويعدّل من حمل تراث الدين ويصدّقهم ويركن إليهم ويؤمنهم على دينه وهو لا يعرف حالهم ولا سيرتهم ولا موقفهم ومسالكهم.

مسؤوليه الموقف تجاه أحداث التاريخ

رابعاً: تطابق قواعد عدّه فى مسؤوليه الموقف

إنّه من القواعد الدينيّه التي لا- غبار عليها المرويّه عن نبيّ الله صلى الله عليه و آله أنّ من أحبّ عمل قوم اشرك معهم، ومن أحبّ حجراً حشر معه.

وقد روى هذا الحديث النبويّ بألفاظ متعدّده بطرق مستفيضه عند الفريقين، وعلى ضوء ذلك فمعرفة أحوال التاريخ، وما جرى لأصحاب تلك الحقبة أمر بالغ الخطوره بحسب هذه القاعده؛ لأنّ أعمالهم ومصيرهم يؤثّر على نمط أعمال الإنسان ومصيره إذا أحبّ عملهم وتولّاهم أو تبرأ منهم ومن عملهم، وتطابق هذه القاعده قاعده اخرى أصيله، وهى وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحسب مرتبه القلب، فإنّ ما جرى فى الأمم السالفه من عدل فهو معروف يجب أن يحبّه الإنسان بحسب قلبه ويأمر بانتهاجه، ولذلك ما جرى من ظلم وقبح فيجب أن ينكره المسلم بقلبه، وينهى عن اتّباعه، إذ قاعده الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لها مراتب بحسب القلب واللسان واليد، وهذه القاعده بحسب المرتبه الأولى لا تختصّ بالأحياء، بل تعمّ الماضين، بل وتشمل القادمين فى مستقبل الدهر.

وهذا بعدُ بديع فى خلقه الإنسان حيث إنّ الإنسان فى مرتبه روحه وقلبه يشرف على الدهور والأزمنه، بل وعلى العوالم التى هى أوسع من الدنيا، ألا ترى كيف يحكى لنا القرآن الكريم عمّا جرى بين الملائكه وبين الله فى استخلاف آدم ليعطينا العبره، وهى أنّ الحكمه ألا يعترض المخلوق على أفعال الله تعالى إذا لم تتّضح له حكمه تلك الأفعال، وأنّ دين الله لا يصاب بالعقول، كما يبيّن لنا القرآن الكريم صفات أهل النار فى المحشر، بل وفى جهنّم، ممّا هم عليه من رذائل يتواجهون بها فيما بينهم فى تلك الدار ممّا يعطى عبره للإنسان وهو فى دار الدنيا.

وفى صحيحه الريّان بن شبيب، قال: «دخلت على الرضا عليه السلام فى أوّل يوم من المحرم...: يابن شبيب، إن سرّك أن تسكن الغرف المبيّته فى الجنّه مع النبىّ صلى الله عليه وآله

فالغن قتله الحسين عليه السلام.

يابن شبيب، إن سرّك أن يكون لك من الثواب مثل من استشهد مع الحسين بن عليّ عليه السلام فقل متى ذكرته: ليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً.

يابن شبيب، إن سرّك أن تكون معنا في الدرجات العلى من الجنان، فاحزن لحزننا، وافرح لفرحنا، وعليك بولايتنا، فلو أن رجلاً أحبّ حجراً لحشره الله عزّ وجلّ معه يوم القيامة» (١).

وروى الطبري في «بشاره المصطفى»: بسنده عن عطية العوفى، عن جابر بن عبد الله الأنصارى: «قال: قال في حديث: يا عطية، سمعت حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: من أحبّ قوماً حشر معهم، ومن أحبّ عمل قوم اشرك في عملهم» (٢).

وروى الشيخ الطوسى في «الأمالى»: بسنده إلى موسى بن عبد الله بن الحسن، عن أبيه، عن آبائه، قال: «أتى رجل النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله، رجل يحبّ من يصلّى ولا يصلّى إلّا الفريضة، ويحبّ أن يتصدّق ولا يتصدّق إلّا بالواجب، ويحبّ أن يصوم ولا يصوم إلّا شهر رمضان. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: المرء مع من أحبّ» (٣).

وروى أيضاً بسنده إلى عبد الله بن الصامت ابن أخى أبي ذرّ، قال: «حدّثنى أبو ذرّ، وكان صيغرةً وانقطاعه إلى عليّ عليه السلام وأهل هذا البيت، قال: قلت: يا نبيّ الله، إنى أحبّ أقواماً ما أبلغ أعمالهم.

قال: فقال: يا أبا ذرّ، المرء مع من أحبّ، وله ما اكتسب.

ص: ١٧٣

١- (١) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢: ٦٢٨ و ٦٢٩.

٢- (٢) بشاره المصطفى: ٧٤.

٣- (٣) أمالى الطوسى: المجلس ٢٩، الحديث ١٧.

قلت: فَإِنِّي أَحَبُّ اللَّهِ وَرَسُولَهُ وَأَهْلَ بَيْتِ نَبِيِّهِ.

قال: فَإِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتُ»(١).

وروى الشيخ المفيد قريباً منه فى أماليه(٢).

وروى ابن حنبل فى مسنده - مسند الكوفيين - عن الحسن بن موسى، قال:

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله: المرء مع من أحب»(٣).

وروى فى ذلك ما يقرب من اثنى عشر روايه بطرق متعدده.

وروى الترمذى فى مسانيد مختلفه متعدده فى سننه عن أنس بن مالك وعن آخرين، قال رسول الله: «المرء مع من أحب يوم القيامة».

ورواه بطريق آخر عن صفوان بن عسال(٤).

وروى هذا الحديث عنه صلى الله عليه وآله بلفظ: «المرء مع من أحب» كل من أبى داود فى سننه، ومسلم فى صحيحه (عن عبدالله بن مسعود)، والبخارى(٥) عن عبدالله

ص: ١٧٤

١- (١) أمالى الطوسى: المجلس ٣١، الحديث ٥.

٢- (٢) أمالى المفيد: المجلس ١٩، الحديث ٢.

٣- (٣) مسند أحمد بن حنبل: ١: ٣٩٢.

٤- (٤) سنن الترمذى: ٥: ٢٠٥، باب المرء مع من أحب، الحديث ٢٤٩٢-٢٤٩٤. و: ٤: ٢٢. سنن أبى داود: ٢: ٥٠٤، كتاب البر والصدقه والآداب - الباب ٥٠. صحيح مسلم: ٨: ٤٣، باب المرء مع من أحب، وروى مسلم أربعة عشر روايه بطرق مختلفه. صحيح البخارى: ٧: ١١٢ و ١١٣، كتاب الإرب - باب علامه الحب فى الله عز وجل، ورواه البخارى فى ذلك أربع روايات بأربع طرق. وروى الحديث أبو داود فى سننه روايتين بطريقتين - كتاب الأدب - باب ١٢٣ (إخبار الرجل الرجل بمحبته إياه).

٥- (٥) حديث البخارى: قال عبدالله بن مسعود: «جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: يا رسول -

ابن مسعود).

وروى الحاكم فى مستدرکه: عنه صلى الله عليه و آله، قال: «من أحبَّ قومًا حُشِر معهم» (١)، ذكر أسماء أهل الصُّفِّه رضوان الله عليهم.

وأخرج الهيثمى فى «مجمع الزوائد»: عن أبى قُرَصفه، قال: «قال صلى الله عليه و آله:

لا يحبَّ رجل قومًا إلَّا حُشِر معهم» (٢)، وأخرجه عن طرق اخرى متعدده فى أبواب فى الألفه - باب المرء مع من أحبَّ.

وأخرج المتقى الهندى فى «كنز العمال»، قال: «سأل رجل من رسول الله صلى الله عليه و آله عن الساعه؟ فقال: ما أعددت لها؟

قال: ما أعددت لها كبيراً، إلَّا أنى أحبَّ الله ورسوله.

فقال: أنت مع من أحببت» (٣)، وذكر جملة من الروايات بهذا المضمون (٤).

وأخرج أيضاً عن الخطيب، عن جابر، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه و آله: من أحبَّ قومًا على أعمالهم حشر يوم القيامة فى زمرةم فحوسب بحسابهم، وإن لم يعمل أعمالهم» (٥).

ص: ١٧٥

١- (١) المستدرک: ٣: ١٨.

٢- (٢) مجمع الزوائد: ١٠: ٢٨٠، باب من أحبَّ أحداً فليعلمه.

٣- (٣) كنز العمال: الحديث ٢٥٥٥٣.

٤- (٤) فى الكتاب الثالث - حرف الصاد / كتاب الصحبه.

٥- (٥) كنز العمال: ٩: ٢١.

وأخرج ابن كثير في تفسيره، وقال في الحديث المتفق عليه، بل المتواتر من طرق صحيحه، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه و آله: من أحبّ قوماً فهو منهم - وفي روايه:

حشر معهم»-(١)، وذكر ذلك تحت عنوان ما أعدّه الله للمهاجرين والأنصار.

وأخرج ابن العربي في تفسيره، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه و آله: المرء مع من أحبّ، حتّى لو أحبّ حجراً حُشِر معه»-(٢). وروى المناوى قريب منه في «فيض القدير»-(٣).

وأخرج الطبرانى في «مسند الشاميين»: عن أبي ذرّ، عن رسول الله صلى الله عليه و آله، قال: «إنّى أحبّ قوماً لا أبلغ عملهم؟ قال: أنت مع من أحببت»-(٤).

ومن الواضح أنّ الإطلاق في لفظ الروايات شامل لكلّ قوم، وإن لم يعاصرهم المرء، ويمتدّ هذا الشمول إلى أعماق التاريخ منذ صدر البشريّه، بل يتّسع ليشمل ما ستأتى من امم وأقوام لاحقه انبى عن أعمالهم وأحوالهم في لسان الوحي، ومن ثمّ يستخلص من هذه القاعده الشريفه التى أكد عليها القرآن قبل السنّه النبويّه.

أولاً: إنّ الإنسان مسؤول عن ميوله النفسية وهواه وموقفه الفكرى والنفسانى تجاه الأمم السابقه واللاحقه، وأنّ تضامنه أو قطيعته هى من فعله وعمله المتشاكل مع مواقف اولئك أو المتباين معهم فى الموقف، وهذا هو معنى التولّى والتبرّى،

ص: ١٧٦

١- (١) تفسير ابن كثير: ٢: ٣٤٣.

٢- (٢) تفسير ابن العربي: ١: ٤٢ و: ٢: ٢١٨.

٣- (٣) فيض القدير: ٦: ١١٥.

٤- (٤) مسند الشاميين للطبرانى: الحديث ٢١٧٥.

أو الولاء والبراء، فإنها منبع ومصهر تربوي للنفس الإنسانيه أمام مشهد البشريه.

ثانياً: لزوم الفحص والتنقيب عن كل فئه من الفئات، لا سيما إذا كان لها دورٌ حسّاس ومؤثر في منعطفات الدّين - أو الأديان - أو تاريخ البشريه، وضروره هذا الفحص والتنقيب هي غير راجعه إلى البعد الشخصي لتلك الشخصيات والفئات، بل راجعه إلى جانب عمومي فيها وهو جانب التأثير واتخاذها نموذجاً أو قوالب مقبوله.

وضروره هذا الفحص راجعه إلى تكبل الإنسان وزر أو نتاج تلك الفئات بلا أن ينقص من نصيبهم شيء، وهذه التبعية والتبعات تفرض على الإنسان أن يتحرى حال الفئات واتجاهاتهم ومناهجهم لئلا يقع في مسؤوليته ما وقعوا فيه، فيما لو كانوا من أصحاب الردى، أو يشاركونهم في النهج كي يغنم ويتكامل ويفوز فيما لو كانوا من أصحاب الهدى.

ثالثاً: إنّ هذه القاعده في الحقيقه تترجم حكمتها وفلسفتها أنّها تبين مدى التأثير التربوي الحاصل من موقف الإنسان تجاه الفئات والنماذج المختلفه الماضيه في البشريه، فإنّ عامل المحبّه مؤثر جدّاب يضيف بتأثيره وتغييره على الإنسان، ويطبّعه بشاكله تلك الفئات فكراً ومنهجاً، وسلوكاً وأخلاقاً وسيره، وغيرها من الجهات، فمن ثمّ كان باب المحبّه باب بالغ الأهميه يفتح للإنسان من صحائف الأعمال ما يتجاوز حدود عمره القصير إلى امتدادات زمّتيه شاسعه، وكأنّ السرّ في ذلك أن تأثر الإنسان بتلك المناهج يكون عامل بقاء واستمرار لتلك المناهج، فمن ثمّ يثاب بثوابهم، سواء كانت حسنات أو أوزار، بلا أن ينقص من ثوابهم شيء.

ومن ثمّ كانت المحبّه من أكبر ساحات عمل الإنسان، وأعظم مجالاً وامتداداً

من أفعال البدن، بل لا قياس بين الجانبين، إذ بعامل المحبّه يشرف الإنسان على كلّ حقبة الأزمان والأجيال والأنسال البشريّه، ويعيش في كلّ بيئاتهم وطوال مددهم الزمّتيّه، وهذه حياه أطول، وعيشه معمره، والحساب فيها أشدّ، والخطوره أعظم، وفلسفه كلّ ذلك هو ما مرّ من أنّ المناهج والأفكار والسّير عامل بقائها هو المحبّه، فمن ثمّ تكون المحبّه تحمل هذه المسؤوليّة والعبء.

رابعاً: إنّ مفاد قوله الشريف صلى الله عليه وآله: «المرء مع من أحبّ» هو الأمر بمحبّه الصالحين والمهديّين، والذي يعبر عنه بالتولّي، وبكراهه ومباينه الطالحين والضالّين، وهو الذي يعبر عنه بالتبرّي، ففي الحديث بشاره ونذاره، أمرٌ ونهي، حثٌّ وتحذير، حثٌّ على محبّه الفريق الأوّل ليغنم الإنسان ثواباً لثوابه، وحشراً في صعيد موقف حشرهم، وتحذير من محبّه الفريق الثاني لينجو الإنسان من أن يكتب عليه مثل أوزارهم، ولكي ينجو الإنسان من المصير الذي يلاقى اولئك، فلا بدّ أن يوجد الهوّه النفسيّ بينه وبين الفريق الثاني، وهو الذي يعبر عنه بالتبرّي والكراهه، فهذه الكراهه والتبرّي ليس فلسفته تربيّه أحقاد وإحن وإشعال ضغينه أو سخيمه، بل فلسفه ذلك هو أن لا يتأثر الإنسان بمنهج اولئك ونمط أفعالهم، وأن لا يتبع شاكلتهم؛ لأنّ المرء مع من أحبّ نهجاً وفكراً وسلوكاً واعتقاداً، فكم هي خطيره المحبّه في صياغه ذات الإنسان والأجيال فكراً وسلوكاً ونهجاً، وهذه هي فلسفه التبرّي، فليست هي ثقافه كراهيه وأحقاد وعقلية ظلامية، بل هي ذات فلسفه وحكم وغايات تربويّه خطيره وتعليميّة عميقه.

القاعده الرابعه: التحسين والتقبيح التي تحكم بها فطره العقل البشري

ومن ثمّ نعرف تطابق هذه القاعده مع قاعده رابعه وهي التحسين والتقبيح التي تحكم بها فطره العقل البشري، ومن معاني التحسين المحبّه والمدح والانجذاب والتفاعل مع الملائم، كما أنّ من معاني التقبيح

الكراهه والذمّ ونفره الطبع عن غير الملائم والمباينه مع القبيح، فالعقل هو بنفسه يقوم بنشاطين وبفعلين: بالتقرّب والتقريب لما هو كمال وحسن وبالإبعاد والإقصاء لما هو نقص وقبيح وسىء، وهذا هو المعنى العقلى للتولى والتبرى.

وهذه الدعوى الفطريّه من العقل فلسفتها جذب الإنسان من الكمال وإبعاده عن التردّي فى الحضيض.

القاعده الخامسه: الصلوات فى مقابل اللعن

وهناك قاعده اخرى شرعيّه قرآنيّه ونبويّه، وهى الصلوات فى مقابل اللعن، كما فى قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) (١).

ثمّ يتبعه قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا) (٢).

فكما أمر تعالى بالصلاه على النبى صلى الله عليه وآله أمر بلعن الذين يؤذون الله ورسوله، فهذه ليست ثقافه أحقاد وكراهيه يربى فيها القرآن المسلمين عليها، بل هى مدرسه تربويّه وتعليميه.

القاعده السادسه: لا يكمل إيمان عبد حتّى يحبّ فى الله، ويبغض فى الله

وهناك قاعده شرعيّه اخرى تصبّ فى نفس المصبّ، وهى ما جاء فى الحديث النبوى: «لا يكمل إيمان عبد حتّى يحبّ فى الله، ويبغض فى الله» وعلى هذه القاعده يربى القرآن أجيال المسلمين يحبّ إليهم الفئات والجماعات الصالحه بذكره لهم بجميل النعوت وبديع الصفات ومحاسن الأفعال، كما أنّه يكره لهم الجماعات الطالحه الغاويه، بذكره لتلك الجماعات

ص: ١٧٩

١- (١) الأحزاب ٣٣:٥٦.

٢- (٢) الأحزاب ٣٣:٥٧.

بشِين الصفات وسىء الأفعال وقبائح النعوت، فالمدح تحبيب وتزيين وتوليه، والذم تكريه وتبغيض وتبري، كما قال تعالى: (وَ لَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَ زَيَّنَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ كَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ) (١).

فالتحبيب أو زرع الكراهه أو بذر المحبه اسلوب تربوى بالغ التأثير، وهو منهاج التزكيه القرآنيّه، كما أنه اسلوب تعليمي نافذ البيان والتبيين.

ومما روى في مضمون هذه القاعده ما رواه البيهقي في سننه عن عبدالله بن مسعود، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا عبدالله، أى عرى الإسلام أوثق؟

قال: قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: الولايه فى الله، والحب فى الله، والبغض فى الله».

وروى ذلك من حديث البراء وابن عباس وعائشه (٢).

ورواه الطبرانى فى «المعجم الصغير» عن عبدالله بن مسعود أيضاً (٣).

وهذا النهج يؤكده القرآن الكريم، ففى ذيل قوله تعالى: (قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِى بِالْبَيِّنَاتِ وَ بِالذِّى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (٤).

روى سماعه، قال: «سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول:... وقد علم أن هؤلاء لم يقتلوا، ولكن قد كان هواهم مع الذين قتلوا، فسماهم الله قاتلين لمتابعه هواهم ورضاهم بذلك» (٥).

ص: ١٨٠

١- (١) الحجرات ٤٩:٧.

٢- (٢) سنن البيهقي: باب شهاده أهل العصبية، الحديث ٢٠٨٥٨.

٣- (٣) باب من اسمه عبدالله: الحديث ٦٢٤.

٤- (٤) آل عمران ٣:١٨٣.

٥- (٥) تفسير العياشى: ١:٢٠٨، الحديث ١٦٢.

وكذلك فى قوله تعالى: (فَعَقَرُوهَا فَاصْبِحُوا نَادِمِينَ) (١).

فى «نهج البلاغه» قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا يَجْمَعُ النَّاسَ الرَّضَى وَالشُّخْطُ. وَإِنَّمَا عَقَرَ نَاقَهُ ثَمُودَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَعَمَّهُمُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ لَمَّا عَمَّوهُ بِالرَّضَى، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: (فَعَقَرُوهَا فَاصْبِحُوا نَادِمِينَ)، فما كان إلا أن خارت أرضهم بالخسفه خوار السكه المحماه فى الأرض الخواره» (٢).

ورواه الثقفى فى «الغارات» (٣).

وكقوله تعالى فى جملة الآيات الواردة فى سورة البقره وآل عمران والنساء والأعراف، وغيرها من السور الواردة فى توبيخ القرآن لليهود المعاصرين للنبي صلى الله عليه وآله بما فعل أسلافهم فى القرون السابقه من قتل الأنبياء، وعباده العجل، والاعتداء بالصيد فى يوم السبت ومماطلتهم فى الطاعه، ومشاكستهم فى اتباع الأوامر، ومن طلبهم رؤيه الله جهره وغيرها من أفعال أسلافهم، فهذه العشرات من الآيات الموجّه فيها الخطاب، وعذل القرآن لليهود والمعاصرين لرسول الله بفعل أسلافهم - وذمه لهم بما فعلت الأمم الماضيه منهم - الوجه فيه والمسوّغ لهذا الخطاب وهذه المحاسبه هو رضى اليهود بأفعال الأمم الماضيه منهم.

وهذا هو مفاد ما روى فى «تفسير العسكرى عليه السلام» عنه عليه السلام عن الباقر عليه السلام، قال فى حديث: «أنّ على بن الحسين قال له بعض من فى مجلسه: يابن رسول الله، كيف يعاقب الله ويوبّخ هؤلاء الأخلاف على قبائح أتى بها أسلافهم وهو يقول: (وَلَا تَزُرُّ

ص: ١٨١

١- (١) الشعراء ١٥٧:٢٦.

٢- (٢) نهج البلاغه: الخطبه ١٩٦.

٣- (٣) الغارات: ٥٨٤:٢.

فقال زين العابدين عليه السلام: إنّ القرآن نزل بلغه العرب، فهو يخاطب فيه أهل اللسان بلغتهم، يقول الرجل التميمي وقد أغار قومه على بلد وقتلوا من فيه: قد أغرتم على بلد كذا وكذا، وفعلتم كذا وكذا، ويقول العربي أيضاً: نحن فعلنا ببني فلان، ونحن سبينا آل فلان، ونحن خزّنا بلد كذا، لا يريد أنّهم باشروا ذلك، ولكن يريد هؤلاء بالعدل وهؤلاء بالافتخار أنّ قومهم فعلوا كذا وكذا.

وقول الله عزّ وجلّ في هذه الآيات إنّما هو توبيخ لأسلافهم وتوبيخ العدل على هؤلاء الموجودين؛ لأنّ ذلك هو اللغه التي بها نزل القرآن، ولأنّ هؤلاء الأخلاف أيضاً راضون بما فعل أسلافهم، مصوّبون ذلك لهم، فجاز أن يقال: أنتم فعلتم إذ رضيتم قبيح فعلهم» (٢).

القاعده السابعة: التوّلى والتبرّى، والتضامن والإدانه

التوّلى والتبرّى، والتضامن والإدانه، وهاتان القاعدتان ملحوظتان بوضوح في نهج القرآن الكريم، وذلك من خلال استعراضه لتاريخ وأحوال الأمم الماضيه، حيث استعرض القرآن الكريم جملة الأحداث المهمه من أول تاريخ البشريه، كالذي جرى بين هابيل وقابيل وبين نوح والمؤمنين الذين معه، وبين قومه وبين الأنبياء السابقين وأقوامهم، وأصحاب الأخدود، ويوسف وإخوته إلى عصر الرسول صلى الله عليه وآله، بل تتبّياً بملاحم مستقبله أيضاً هامه في مصير البشريه، وفي كلّ تلك التفاصيل التي يستعرضها يدأب القرآن على تمييز جانب الحقّ من جانب الباطل، والفصل بين المحقّ والمبطل، وكذلك التفرقه بين

ص: ١٨٢

١- (١) الأنعام ١٦٤:٦. الإسراء ١٥:١٧. فاطر ١٨:٣٥. الزمر ٧:٣٩.

٢- (٢) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام، في ذيل قوله تعالى: (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) البقره ٦٥:٢.

المصلح والمفسد، وبين المظلوم والظالم، وهو يكرّس في ذلك التضامن مع الفريق الأوّل، والتأييد له، ولنهجه، والإيداع والشجب والكرهه للفريق الثاني، وهو ما يعرف بالصلوات والتسليم في مقابل اللعن، وهذا نمط تربوي لتعيش الأجيال على نهج السداد وإبعادهم عن نهج الضلال، بل إنّ المستغرق والمتدبّر لأساليب العرض القرآني لتلك الأحداث يشاهد بوضوح تشويق القرآن وتحييه للفريق الأوّل بينما يشاهد تقرّيعه وتنفيره من الفريق الثاني، وهو ما يُعرف بالتولّي والتبرّي والتسليم.

فإنّ قوله تعالى: (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ... (١) لا يقتصر في تطبيقه على من حادد الله في زمن رسول الله أو الزمن الراهن، بل هو شامل لقابيل ولعتاه أعداء الأنبياء، كفرعون ونمرود وأصحاب تبع وأصحاب الرّس وقوم عاد وثمود وقارون وهامان وأبي جهل والحكم بن العاص ومروان بن الحكم طريدا رسول الله، وكذلك قاتلي عتره الرسول صلى الله عليه وآله، وبعبارة أخرى: أنّ هذه الآيه عامّة بعموم تاريخ الإنسان، ماضيها ومستقبلها وراهنها، وتبيّن للفرد المسلم أنّه لا ينحصر اهتمامه ولا يعيش في نفس عصره فقط، بل أنّ الإنسانيّة أجمع بكافه قرونها كأنّها تعيش في حقه واحده تتفاعل اتجاهاتها وتتجاذب فيما بين بعضها البعض، وهذه هي حقيقة الهويّة الإنسانيّة، فإنّها ليست مكوّنه من خصوص العصر الراهن الذي تعيشه، بل من مجموع تراكمات تاريخيّة تتفاعل وتفرض الهويّة الراهنه للإنسان، بل إنّ النظرة المستقبلية هي الأخرى من مكوّنات الهويّة الراهنه.

ومن ثمّ نرى القرآن الكريم يبيّن أنّ الأنبياء السابقين قد بشروا اممهم وأقوامهم

ص: ١٨٣

بخاتم المرسلين كما بشروا بالآخرة، فلا- يقرّ القرآن بالفواصل والحواجر التاريخيه، بل هناك عولمه واحده عبر كلّ الأزمان وليست العولمه هي بتساقط الفواصل الجغرافيه المكائيه، بل نرى في تعاليم القرآن المعرفيه وسننه في اصول التربيه الاجتماعيه أنّه يسقط الفواصل في الجغرافيه الزمّيه، فالإنسان لا- يعيش حبيس عصره، بل هو منفتح على كلّ الأدوار الزمّيه وكلّ الثقافات، وعلى وتيره تفاعل وتأثير وتأثر، ومن ثمّ لا نجد في القرآن الكريم تكريساً لهذه الفواصل كما لا يعترف بهذه الجدر، بل يرى الحقب الزمّيه منفتحه على بعضها البعض.

وهذا ما سيتجسّد عيناً في عرصات المحشر، حيث ينادى القرآن الكريم:

(قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ) (١).

فالبشريه بأفكارها ومدارسها وأتجاهاتها تعيش مشهداً واحداً روحياً وعقلياً وثقافياً، تلمّ بالألوان وتلونات كثيره، وليس بإمكان فرد أو حقه زمّيه أن تنأى بفكرها وعقلها وروحها عن بقيه الحقب، إذ البيئه هذه لا تعرف الحدود الزمّيه، وإن اختلفت الاتجاهات والانتماءات والأهواء؛ وذلك لأنّ الإنسان لا يعيش بيدنه فقط المحبوس في حقه زمّيه، بل من مكونات الإنسان الروح والعقل وقوّه الفكر والقلب بما يحمل من أحاسيس وعواطف وضمير، فإنّ هذه القوى والمكونات كما هي مقرّره في البحث العقلي موجوده في افق ما وراء الزمان، ويهيمن على كلّ الأزمنه، أي مجرّده عن هذه المادّه الغليظه الأرضيه.

ومن ثمّ شأن أفعالها وأحكام أفعالها كما هو الحال في أحكام المعارف لا يتقيّد بالزمان، فالتبرّي والقطيعه، والشجب والإدانه، لا يختصّ برؤوس الظلم الذين

ص: ١٨٤

يعاصرهم الإنسان، بل يعمّ رؤوس الظلم من بدايه الخلقه إلى نهايتها، فالموقف واحد متصل، كما فى قوله تعالى: قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ (١).

وهذه الآيه فى سياق قوله تعالى فى أوائل السوره: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ...) (٢).

والقطيعه فى الآيه الكريمه مع أعداء الله لا تختصّ بمن هو معاصر راهن، بل تعمّ كلّ من انطبق عليه هذا الوصف فى غابر التاريخ وفى مستقبله، فليس لمسلم ولا- مؤمن أن يتخذ قاييل وقارون ولا فرعون ولا نمرود قدوه ينتهج مسارهم أو نموذجاً يستأنس بسلو كياتهم، وهذه أحد حكم القطيعه والتبرّى والمجافاه، والسبب فى هذا التعميم علاوه على عموم دلالة الآيات موضوعاً الوارده فى التبرّى أنّ مشاهد الحقب التاريخيه وأشخاص الإنسانيه شاخصه فى المنظر العقلى والذهنى والفكرى للبشريه، وصوره حاضره فى البصر الإنسانى غير غائبه، وإن غابت أبدانهم، إلّا أنّ أفعالهم وصفاتهم ماثله للعيان فى النفس البشريه الراهنه.

وهذا لا- يقتصر على من مضى، بل يعمّ من هو آت، ولا- يقتصر هذا التقريب على هاتين الآيتين من آيات التبرّى والقطيعه والمجانبه لرواد الضلال، بل هو فى جملة الآيات العديده فى هذا المضمار.

وكذلك فى آيات التولّى والتضامن، والمسانده والدعم، والتأييد والاحتفاء،

ص: ١٨٥

١- (١) الممتحنه ٤:٦٠.

٢- (٢) الممتحنه ١:٦٠.

والحفل برموز الهدايه فى التاريخ، ورؤاد الصلاح والعدل، فإنّ التركيز على هذه النماذج العالیه ذو مغزى تربوى ومعرفى بالغ التأثير فى تربيہ الأجيال البشريّه على هذه القيم النبيله وتجنبيهم الانزلاق فى حضيض الرذائل وإبعادهم عن الهوى فى سحيق الباطل، فلا يتوهّم أنّ التبرى والقطيعه والمجانبه هى ثقافه كراهيه وتكريس أحقاد وإحن. وبعدما تبين بطلان المعنى الذى فسرت به الآيه فى نفسه لشواهد وقواعد ديتيه وعقليّه عديده، نفحص حينئذٍ عن المعنى السديد لها.

تفسير ثانٍ للآيه: بطلان التقليد و ضروره الفحص والتحقيق

إشاره

وتحقيق معنى الآيه أنّه من ملاحظه سياق الآيات يظهر بوضوح أنّها فى صدد جواب جدال أهل الكتاب مع النبىّ صلى الله عليه و آله والمسلمين، وإصرارهم على ما هم عليه كما فى قوله تعالى فى الآيه المتقدمه عليها: (ما يودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ لَـلْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ اللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) (١) (ما ننسخ من آيه أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها أ لم تعلم أنّ الله على كل شئ قدير * أ لم تعلم أنّ الله له ملك السموات والأرض و ما لكم من دون الله من وليّ ولا نصير) (٢).

وفى هذه الآيات إشاره واضحه إلى نزاع أهل الكتاب وإصرارهم على بقاء شريعتهم وعدم نسفها وما هم عليه وحسدكم أن تنزل شريعته على النبىّ صلى الله عليه و آله للمسلمين، وإجابته منه تعالى أنّ النسخ سنّه إلهيته فى الشرائع، لأنّ الله تعالى له ملك السموات والأرض وهو وليّ كل شئ، فأى مجال لإنكار أهل الكتاب

ص: ١٨٤

١- (١) البقره ٢: ١٠٥.

٢- (٢) البقره ٢: ١٠٦ و ١٠٧.

الشريعة الجديدة، ثم تتابع الآيات: (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ... وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ) (١).

وفي هذه الآيات تخطئه لأهل الكتاب في حصرهم الهدايه بشريعتهم، وذلك تخطئه لهم في التخاصم الدائر بينهم، وهذا بيان قاعده في النجاه، وهى التسليم لله تعالى مع الإحسان، أى أنّ صراط الهدايه واحد، وهو الدين الواحد الذى اتفقت عليه وبعثت به جميع الأنبياء والمرسلين، وهو التسليم لله تعالى والعمل بالمحاسن، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم.

ثم تتابع الآيات فى قوله تعالى: (وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ اتَّبَعْتُمْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) (٢).

ثم تستعرض الآيات مله إبراهيم ودينه، وأنه كان دين الإسلام، وكذلك إسماعيل، وأنه وصيه إبراهيم لبنيه، كما أنّ دين الإسلام وصيه يعقوب لبنيه، ثم قوله تعالى: (أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا

ص: ١٨٧

١- (١) البقره ٢: ١٠٩-١١٣.

٢- (٢) البقره ٢: ١٢٠.

يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١).

ثم تتابع الآيات التأكيد على ضروره وحده الإيمان بكل ما انزل على الأنبياء السابقين وجميع النبيين وعدم التفرقه بين أحد منهم، وأن صبغه الله هي دين الإسلام، وأن محاجه اليهود على المسلمين في الله مبيته على زعمهم الاختصاص به تعالى، مع أن الله رب الجميع على نحو الاستواء، وكل مسؤول عن عمله، كما تحاجهم الآيات في قوله تعالى: (أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَ مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ لَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (٢).

فمقتضى كل هذا السياق هو التأكيد على عدم صحه التبعية والتقليد من أهل الكتاب المعاصرين للمسلمين لأسلافهم وأممهم التي قد خلت، لأن النسخ لما كان جائزاً فمن غير الصحيح بقاء أهل الكتاب في عهد النبي على شرائع الأنبياء السابقين، إذ لكل أمة وظيفتها وتكليفها، وأنه لو سلم أنهم كانوا على غير دين الإسلام ما جاز لهم أن يتركوا ما يوحى الله عز وجل على لسان محمّد صلى الله عليه وآله من وحى بالبينات والمعجزات. إذن أن لله تعالى أن ينسخ من الشريعة ما شاء على ما يعلم في ذلك من وجوه الحكمه، وأنه إذا كان الإنسان لا يؤخذ إلا بعمله، فلا بدّ عليه من استبيان الحجه بنفسه والتنقيب عن الأدله ابتداءً، ولا يتكل على فضائل الآباء والأجداد والأسلاف، فإن ذلك لا ينفع إذا خالف أمر الله

ص: ١٨٨

١- (١) البقره ٢: ١٣٣-١٣٥.

٢- (٢) البقره ٢: ١٤٠ و ١٤١.

فيما أوجب عليه، وتكون إشارةً إلى أنّ من سلف من آباء أهل الكتاب ممّن كان على ملّة اليهوديّة والنصرانيّة يحرم على أخلافهم ممّن كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله التبعيّة والتقليد لأولئك الأسلاف بنحو التبعيّة والتقليد العمياوى، بل لا بدّ من التمحيص والتنقيب والفحص عن الأدلّة والبراهين وأصول المعرفة الحقّة التي فيها أساس التوحيد.

عدم حجّيه النهج السلفي

فهاتان الآيتان تناديان وترفعان شعار نبذ التقليد، ولزوم التحريّ والفحص والتنقيب عن الحقائق عبر الأدلّة والبراهين، وعدم الاكتفاء بطريقه نهج الأسلاف، وما كانوا عليه فإنّ ذلك لا يشكّل مستنداً علمياً، ولا برهان، فلا يحتجّ بالأّمه التي خلت بل بالدليل ولا- يحتجّ ولا يسوغ عذراً بأنّه لا يجوز مخالفه الأّمم السابقه، فإنّ المدار على حكم الله وسلطانه وأوامره ونواهيه، وما يتعيّد به الخلائق في كلّ زمن حتّى أنّ بعض المفسّرين، كالطوسى في التبيان وغيره، ذكروا بأنّ مقتضى السياق في معنى الآية الأولى أنّه لو سلم أنّ الأنبياء العظام السابقين كانوا على ما يذكره ويدّعيه اليهود والنصارى لما جاز لليهود في زمن رسول الله رغم ذلك البقاء على اليهوديّة والنصرانيّة، بل اللازم عليهم هو اتباع سلطان الله تعالى وولايته، والوحى الذى ينزله فى زمان النبىّ صلى الله عليه وآله، أى لما كان لهم أن يتركوا الفحص عن ما هو أبين وأكثر حجّيه، والتعويل على ما هو دون ذلك فى الدلاله والاحتجاج.

وعلى ذلك يكون معنى الآية ليس فقط نبذ التقليد، بل ضروره التحريّ عن ما هو أبلغ حجّيه وأشدّ إيقاناً وأكبر دلاله، وعدم الاكتفاء والركون إلى ما هو دون وإن كان فى نفسه حجّيه بعد وضوح أنّ للحجج مراتب بعضها أعلى من بعض،

وبعضها أكبر وبعضها أصغر، ولا- يبرر ترك العالى بالتشبت بالمتوسيط، والدانى فى الحجية. فإذا كان الحال فى عموم عدم الاحتجاج بأفعال الأمم السابقة ولو كانوا من الأنبياء العظام فى مقابل ما هو أبلغ وأكبر حجيه، فكيف الحال فى الاحتجاج بمن هو دونهم.

توسعه معنى التقليد فى القرآن

على ضوء ما تقدم من المعنى السياقى للآية وتطبيقها على الأنبياء العظام يظهر للتقليد مفهوم ومنظور يعم كل اتباع ولو لبعض الأنبياء السابقين فى مقابل الدليل الذى هو أكبر حجيه، وأبلغ برهاناً، فإن سلوك التبعية بطبعه من البواعث التى تشد وتغالب تنبيه الإنسان إلى الفحص عما هو أحرى بالأخذ والانتهاج، فمجرد كون النبى هو نبى من العظام السابقين على شريعته بعث بها هو غير موجب لصحة اتباعه على شريعته، وإن كان قد تلقاها بوحي من الله فى مقابل الحجج الأبلغ الراهنة، وهى وحي الله لسيد الأنبياء صلى الله عليه وآله بضميمه أن نسخ الشرائع هى من صلاحيات البارى تعالى التى هى فوق صلاحيات الأنبياء، فلا يساوى بين حجيه النبى السابق وولايته ومقامه، مع حجه البارى تعالى وولايته ومقامه الربوبى، كما يشير إليه قوله تعالى: (أَلَمْ تَعْلَم أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) (١).

وقوله تعالى: (مَا نَسِيخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِخَها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلُها أَلَمْ تَعْلَم أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (٢) أى أن البارى تعالى هو المالك لكل شىء، وهو الولي

ص: ١٩٠

١- (١) البقره ٢: ١٠٧.

٢- (٢) البقره ٢: ١٠٦.

فوق كل شيء، وهو القادر على كل شيء، ولا يعجزه شيء، فكيف لا ينقاد إلى مقامه تعالى ويتبع مقام من دونه.

فإذا قوبل بين الحجّتين ورتبه الولايتين والمقامين، واتّبع الأدنى السابق وترك الأعلى اللاحق كان تقليداً مذموماً واتباعاً واحتجاجاً أمّه قد خلت لها ما كسبت، ولا يبّرر ما يكسبه المرء في ظرفه الراهن من لزوم وضروره الاستناد إلى الحجّ الأبلغ، وهذا المعنى فيه تعميم لمعنى التقليد لكل متاركة للأدلة البالغة وإن كان باتباع الحجج الأدنى السابقة فإنّ الاتّباع من دون الأدلة البالغة أبين تقليداً ويعمّه ذم التقليد.

التدافع بين تفسيرى الآيه

فهناك بون شاسع بين المعنى الذى ترمى إليه الآيه وبين المعنى الذى شيده بنو اميه لتحريفها، فإنّ المعنى الذى صاغوه يرسم للأعمم السابقه حصانه عن النقد وعن الفحص والتفتيش والمحاسبه والتمحيص والغربله، كما يوجب تلميع السالفين بالنعوت الجميله، وإضفاء الحجّيه لهم من دون سبر وغور فى الأدله.

وهذا على الطرف النقيض تماماً من معنى الآيه التى هى فى صدد بيانه من نبذ التقليد والاتباع من دون دليل، حتّى أنّ الآيه صاعدت من عموم المعنى إلى تطبيق التقليد حتّى على اتّباع الأنبياء العظام فى قبال ما هو أبلغ وأبين من الأدله والبراهين الإلهيه، وهو خاتم وسيد الأنبياء، فكيف الحال بمن دونهم.

وجوب التمحيص فى سيره الأنبياء فضلاً عن غيرهم

بل إنّ القارئ لسياق الآيات يشاهد بإلحاح تعليمها وحثّها على الفحص عن حقيقه أحوال الأنبياء العظام، وما كانوا عليه، وعدم الاكتفاء بما يزعمه

الآخرون عنهم مَمَّن يَدْعَى التَّبَعِيَّةَ لَهُمْ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَضْلاً عَنِ الْحَالِ فِي لَزُومِ الْفَحْصِ عَنْ حَقِيقَةِ أَحْوَالِ غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ.

وَكَمْ تَمَحَّصُ هَذِهِ الْآيَاتُ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ جِهَاتٍ وَحَدَّةٍ، وَهِيَ دِينُ الْإِسْلَامِ وَجِهَاتُ اخْتِلَافٍ وَهِيَ الشَّرَائِعُ الْمُتَعَدِّدَةُ، وَلَا تَكْتَفِي الْآيَاتُ بِسَرْدِ حَالِهِمُ الْإِجْمَالِي، بَلْ تَمَعْنُ فِي التَّفْصِيلِ وَالتَّنْقِيبِ، وَبَيَانِ مَدَى حَجَّتِهِ كُلِّ جِهَةٍ فِي سَلُوكِيَّاتِهِمْ، وَأَنَّ أَيُّهَا عَامٌّ عَمِيمٌ شَامِلٌ لِلْمُكَلَّفِينَ فِي عَصْرِ نَزُولِ الْآيَةِ، وَأَيُّهَا خَاصٌّ مَنْسُوخٌ قَدْ تَصَرَّمَتْ وَانْقَطَعَتْ حَجَّتُهُ.

عَدَمُ حَجَّتِهِ سِيرَةِ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا بِالْتَمَحِّيصِ

كُلُّ ذَلِكَ لِنَلَّا يَكُونُ هُنَاكَ اتِّبَاعٌ لِسِيرَتِهِمْ مِنْ دُونِ تَمَحِّيصِهَا عَلَى الْأَدْلَةِ الْقَاطِعَةِ الْأَبْلَغِ مِنْ حَجَّتِهِ أَوْلَثُكَ الْأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ بَدِيهِيَّاتِ الْعَقْلِ الْفَطْرِيَّةِ الَّتِي لَا يَخْتَلِفُ فِيهَا اثْنَانُ هِيَ مَنْطِقٌ لِمَعْرِفَةِ التَّوْحِيدِ فَمَا دُونَهُ، كَمَا أَنَّ مَعْرِفَةَ التَّوْحِيدِ أَسَاسٌ فِي عَمُومِ مَعَارِفِ الْإِيمَانِ مِنْ إِثْبَاتِ كُلِّ كَمَالٍ لَهُ تَعَالَى وَتَنْزِيهِهِ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ وَشَيْءٍ، وَأَنَّهُ تَعَالَى مَالِكٌ لِكُلِّ الْكَمَالَاتِ وَالْكُلِّ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ، وَأَنَّ مَقْتَضَى رِبُوبِيَّتِهِ تَعَالَى طَاعَةَ الْخَلْقِ لَهُ، وَشُكْرَهُ عَلَى إِنْعَامِهِ وَإِفْضَالِهِ، وَالدِّينَ وَالتَّسْلِيمَ وَالمَثُولَ وَالانْقِيَادَ إِلَى إِرَادَتِهِ وَفَرَائِضِهِ عَلَى الْعِبَادِ، وَهَذِهِ الْفَرَائِضُ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الْآخِرِ، وَبِمَا بَلَّغَتْ بِهِ رِيسْلَهُ مِنْ دَارِ الْقَرَارِ وَعَهْدِ الْمِيثَاقِ وَأَرْكَانِ الدِّينِ وَأُصُولِ الْوَأَجِبَاتِ، فَجَمَلُهُ هَذِهِ الْفَرَائِضُ هِيَ مِنَ الطَّاعَةِ - لِلَّهِ وَالانْقِيَادِ لَوْلَايَتِهِ وَحُكْمِهِ - الشَّامِلَةُ فِي عَمُومِهَا عَلَى كُلِّ مَخْلُوقٍ مِنْ نَبِيِّ مَرْسَلٍ، أَوْ مَلِكٍ مَقْرَّبٍ، أَوْ وَلِيِّ مَمْتَحِنٍ، فَضْلاً عَمَّنْ دُونِهِمْ.

فَحَجَّتُهُ بَدِيهِهِ الْعَقْلُ تَهْدِي إِلَى حَجَّةِ مَعْرِفَةِ الرَّبِّ تَعَالَى، وَمِنْ بَعْدِ ذَلِكَ تَلْزَمُ الْعِبَادَةُ طَاعَةَ الرَّسْلِ وَذُرُوتِهِمْ سَيِّدِهِمْ، الْمَأْخُودُ طَاعَتَهُ عَلَى جَمِيعِهِمْ،

وهذه هي الحجّة الثالثة، ثمّ من بعد ذلك تلزم العباد حجّية الأوصياء، إلى غير ذلك من مراتب الحجج، وكلّ حجّة تفوق الأخرى وتهيمن عليها، وتحدّد أمدّها وحدودها، ولذلك أشارت الآيات إلى الاستدلال بصفات الله من أنّه مالك للسموات والأرض وما فيهنّ، وأنّه وليّ كلّ الأولياء لبيان أنّ هناك مراتب في الحجّية والدلائل، وتفاوت في درجاتها، واللازم مراعاة سلسله تلك المراتب، وما هو أكبر وأبلغ، كاستدلال لدحض ما يزعمه اليهود والنصارى من لزوم اتّباع ما يزعمونه من يهوديّة ونصرانيّة النبيّ إبراهيم والأنبياء السابقين، حيث أنّ ولايه الله فوق ولايه الأنبياء وصلاحيّاته في الحكم والتشريع فوق صلاحيات الأنبياء في الشرائع، فكيف يترك أهل الكتاب الدلائل على المشيئة الإلهيّة في مقابل ما يزعمونه من حجّية يتبعونها.

بطلان التقليد للتفكيك في حساب الأعمال

والتفكيك في الوظائف والمسؤوليات

وبأنّه لو سلّم لكم أنّ السابقين كانوا على ما تذكرونه ما جاز لكم أن تتركوا ما اتّضح لكم من بينات ومعجزات لرسول الله صلى الله عليه وآله، كإبلاغ عن الله تعالى على لسان رسوله محمّد صلى الله عليه وآله، وأنّه لا بدّ أن تتبين الأمور بدلائل وبيّنات تراعى فيها المراتب واختلاف الموازين لا باتباع من سبق، لأنّ تقليدهم لا يغنى شيئاً، إذ ليسوا ملزمين بتقليدهم لأنهم لا يسألون عمّا يفعلون وعمّا كانت وظيفتهم، فقلوه تعالى: (وَ لَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) أى كلّ مطالب بالعمل بالحجّة التي تقوم لديه، ولا يتّحد الجميع في نمط المسؤوليّة ونوع الوظيفة كى يسوّغ لأجل ذلك التقليد والاتباع، ولا سيّما وأنّ المساءله والمحاسبه، والعقوبه والمؤاخذه تختلف من شخص لآخر، ومن امه لأخرى، ومن جيل لآخر،

ومن زمن سابق للاحق بحسب اختلاف العقول ودركها والأفهام ووعيتها، وقيام الدلائل وتنوعها، هذا فضلاً عن اختلاف واقع الأحوال وتجدد الحكم الإلهي والتشريع، ومن ثم ليس لأحد من هذه الأمة ولا لجيل أن يكتفى ويتبع ما فعله الأوائل من صدر هذه الأمة إذا قام لديه الدليل والبيان والحجّة على لزوم منهاج هدى وتبين له سبيل الرشاد قصر عنه السابقون زمناً، فبطلان التقليد أمام الدليل والدلائل يستلزم تكامل المعرفة الدينيّة وإن لم يدركها السلف السابق زمناً.

جدتيه تكامل المعرفة الدينيّة وبطالان التقليد للسلف

ومن ثم لا مجال لما يثار ويعترض على أتباع أهل البيت وعلمائهم في العصر الراهن من أن مذهب أهل البيت عليهم السلام مرّ بأطوار وتطوّر ضمن مراحل إلى أن بلغ ما هو عليه الآن في الوقت الحاضر الراهن وأنكم تبدّهون مسائل عقديّة لم تكن بتلك الدرجة من الوضوح عند أوائل الرواه والأجيال التي تربّت في كنف الأئمّه من أهل البيت عليهم السلام، فكيف تشيدون معارف ومعالِم في العقائد لم يعهدوا أولئك الرواه، ومن ثم تنبرى دعوات وإثارات إلى نبذ هذه المعارف والمفاهيم العقديّة، كلّ ذلك تحت وطئه أنّ الأمم السابِقة من أتباع أهل البيت عليهم السلام ومن المسلمين لم يعهدوا ولم يألّفوا مثل هذه الأمور، ورغم أنّ هذه المقالة مدحوضه:

بلوغ بعض أصحابهم عليهم السلام ذوره المعرفة

أولاً: بوجود فئات وعيّنات في الأجيال الأولى منذ صدر الإسلام كانت تعي وتنفّه عمق المعارف وغور المفاهيم، كسلمان وأبي ذرّ والمقداد ميثم التّمّار ورشيد الهجرى وجابر بن يزيد الجعفي، وأمثالهم، وكانت هناك إرهاصات قد توصم بالإفراطيه وقد اتّهمت ورميت بالعلوّ والتأليه، حتّى أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال

فى على يوم خير: «لولا- أن تقول فيك طوائف من امتى ما قالته النصارى فى عيسى بن مريم لقلت فيك اليوم مقالاً لا تمر على ملاً من المسلمين إلا أخذوا من تراب رجليك وفضل طهورك يستشفون به» (١).

مضافاً إلى ظاهره السبئية والمغيريه والخطابيه وغيرهم من الفئات الذين طعن عليهم بالغلو من قبل الآخرين، بغض النظر عن تمحيص ما قالت تلك الفئات أنه هل يستدعى ما طعن عليهم به، أو أن ما كانوا يقولون به (٢) فى وادى وما انطبع عند الآخرين فى وادٍ آخر، فإن تلك الظواهر والاتجاهات والمدارس تبين أن الأجيال الأولى لم تكن على سطح واحد أو درجه متحد من المعرفة، بل فى كتاب البخارى: روى عن المسور بن مخرمه ومروان فى حديث صلح الحديبيه أن عروه بن مسعود جعل يرمق أصحاب النبى صلى الله عليه وآله بعينيه، قال: فوالله ما تنخم رسول الله صلى الله عليه وآله نخامه إلا وقعت فى كف رجل منهم فدلكت بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له، فرجع عروه إلى أصحابه فقال: أى قوم والله لقد وفدت على الملوكة، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشى، والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً (٣).

ص: ١٩٥

١- (١) ينابيع الموده لذوى القربى: ١: ١٩٩ و ٢٠٠. الكافى: ٨: ٥٧ و ٥٨.

٢- (٢) كما فصلناه فى الجزء الثانى من بحوث مبانى علم الرجال.

٣- (٣) رواه أيضاً فى كتاب الوضوء، رواه فى مسند أحمد بن حنبل: ٥: ٤٢٣، الحديث ١٨٤٣١، ١٨١٦٦، وأيضاً رواه البيهقى فى السنن الكبرى: ٩: ٢١٩، باب المهادنه على النظر للمسلمين، وأيضاً كتاب الوضوء: ١٨٠، وأيضاً الواقدى فى المغازى: ٢: ٥٩٨ وابن هشام فى السيره: ١: ٣٢٨. -

وكذلك ما روى من استلام زين العابدين عليه السلام الحجر الأسود، وانفراج الناس له في الحجّ سماطين، بينما لم يفسحوا المجال لهشام بن عبد الملك المرواني مع أنه كان وليّ العهد في الخلافة الأمويّة، وكان في زمره البلاط محتفّين حوله، وحينها قال الفرزدق قصيدته المشهورة، وهي الأخرى تحمل من أسمى المعاني العالیه.

المنهج التجريدي عن التقليدي

ثانياً: لو سلّم عدم وجود نماذج وعيّنات تحمل مثل ذلك المستوى من المعرفة، إلّا أنّ الاحتكام إلى ما كان عليه الأجيال والأمم السابقه دون الأدلّه القائمه

ص: ١٩٦

ليس إلّا احتكاماً إلى التقليد في قبال الأدلّه البالغه والحجج الظاهره، والمفروض الاحتكام إلى الدليل لا الاحتجاج بالتبعيه، فأين الموضوعيه العلميه والمنهج التجريدي عن التقليد؟!

أوليس الآيه الكريمه تبطل التقليد أن (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ لَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَ لَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) من مستوى وقدره من المعرفه ووظيفه هم مؤخذون بها بحسب ما لهم من فهم وعلم وقدره.

المعرفه الدينيه لا تقف عند حدّ

ثالثاً: إنّ واقعيه الدين وسعته الحقيقيه غير متناهيه كما يشير إلى ذلك قول رسول الله صلى الله عليه و آله: «ربّ حامل فقه وليس بفقيه، وربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه»^(١).

فإلى ماذا يشير رسول الله صلى الله عليه و آله؟ أوليس يشير إلى أنّ مواد الوحي ليس الكلّ ينتهل منها بدرجة واحده، بل هذان الحديثان يشيران إلى سنّه تكامل المعرفه بحسب الأجيال، ومن ثمّ ورد في الحديث النبوي الشريف ما مضمونه: «أنّ جيل آخر الزمان من هذه الأمه هم من أعقل الأجيال»، كالذي ورد أنّهم يؤمنون بحبر على ورق، أي أنّ إيمانهم بالبراهين لا بالحسّ، أو أنّ فيهم المتعمقون.

بل إنّ في الآيات الكريمه إشاره إلى هذه السنّه، كما في قوله: (وَ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ) ^(٢)، ممّا يدلّ على وجود أعماق في المعاني، وليست الحقائق

ص: ١٩٧

١- (١) رواه ابن حنبل في مسنده: ٥: ١٨٣، والطبراني في المعجم الأوسط: ٥: ٢٣٣، ورواه في المعجم الصغير: ٣٠٠. والترمذي في سننه - باب ما جاء من تبليغ السماع: الحديث ٢٦٥٦-٢٦٥٨. سنن الدارمي - باب الاقتداء بالعلماء، وفي سنن ابن ماجه - باب من بلغ علماً، وصحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان - كتاب العلم، الباب ١١٨.

٢- (٢) يوسف ١٢: ٧٦.

مقصوره على السطح الظاهر، حيث تشير الآية إلى أن الدين والمعرفة الدينيّة هي ذات درجات وأعماق، ولا تقتصر على سطح التنزيل.

كما في قوله تعالى: (وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (١).

وقوله تعالى: (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا) (٢).

وقوله تعالى: (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) (٣).

تفسير ثالث للآية: الفخر المذموم والمدوح

إشاره

وقد ذكر غير واحد من المفسرين معنى آخر للآية ومحصيله أن الآية في صدد مواجهه خلق خاطئ في الإنسان والناس، وهو التفاخر بفضائل الأسلاف، وأن هذا معيار خاطئ في الفخر، لأن فضيله الإنسان إنما هي بأعماله لا بأعمال آبائه وأجداده وعشيرته وقبيلته، (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ) (٤) (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) (٥)، فالآية وارده بدم اليهود على مفاخرتهم بأن أجدادهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وكلهم من الأنبياء، فعلى هذا المعنى تبين الآية أنه

ص: ١٩٨

١- (١) لقمان ٣١: ٢٧.

٢- (٢) الكهف ١٨: ١٠٩.

٣- (٣) آل عمران ٣: ٧.

٤- (٤) المدثر ٧٤: ٣٨.

٥- (٥) الأنعام ٦: ١٦٤. الإسراء ١٧: ١٥. فاطر ٣٥: ١٨. الزمر ٣٩: ٧.

لا يصح الاعتماد على أمجاد الأجداد والآباء ولو كانوا أنبياء.

واستشهد لهذا القول بقوله صلى الله عليه وآله: «يا بني هاشم، لا تأتونى يوم القيامة بأنسابكم، وائتونى بأعمالكم»^(١).

تقييم هذا المعنى

أولاً: وهذا المعنى وإن كان لا يخلو من وجه، إلا أنه ليس المعنى العمده الذى فى صده الآيه، وذلك لأن سياق الآيات قبل الموضوع الأول للآيه، وكذلك السياق فى الآيات قبل الموضوع الثانى، وهو فيما بين الموضوعين ليست فى سياق مفاخره اليهود بأبائهم، بل فى صدد محاجتهم بصحة اليهوديه أو النصرانيه فيما كان عليه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فمحتدم الجدل بينهم وبين المسلمين هو فى الدين الصحيح والشريعته القويمه، فلم يكن الحديث فيما بينهم وبين المسلمين حول مفاخرتهم بأبائهم من الأنبياء إلا بالعرض لا بالأصالة.

ثانياً: إن الفخر المذموم إنما هو على تفصيل لا- مطلقاً، أى فيما كان المرء يتكل على أمجاد آبائه ويترك العمل، أو فيما كان يفتخر بأمجاد آبائه بقصد و غرض النكايه والتحقير للآخرين، أو فيما كان افتخاره بأسلافه رغم أنهم كانوا ذوى عمل سيء تعصباً بالأسلاف، وفى غير ذلك فالانتساب إلى الأسلاف الصالحين هى فضيله، ومن تبرأ من نسبه فهو على حد الكفر.

وقد ورد عنه صلى الله عليه وآله: «كل نسب وسبب منقطع يوم القيامة إلا النسبى وسببى»^(٢).

كما حكى الله على لسان يوسف: (وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ) ^(٣).

ص: ١٩٩

١- (١) تفسير الكشاف: ٣١٤:١. أحكام القرآن للجصاص: ١٠٢:١.

٢- (٢) سعد السعود: ٢٥٧. ذخائر العقبى: ١٦٩.

٣- (٣) يوسف ٣٨:١٢.

وقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَ نُوحًا وَ آلَ إِبْرَاهِيمَ وَ آلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّهُ بَعْضٌ مِّنْ بَعْضٍ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (١).

وكذا قوله تعالى فى آل موسى وآل هارون: (وَ قَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَيَكِينٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَ بَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَ آلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (٢).

وكذلك قوله تعالى فى آل النبى: (سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ) (٣).

وكذا فى آل داود: (اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا) (٤).

وكذلك فى قوله تعالى: (فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ آتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا) (٥).

إباده حقائق القرآن بتحريف معانيه

إنَّ ما فعلته السلطات السياسيه والخلافه الأمويه من قلب معنى هذه الآيات ومسح معناها الحقيقى إلى معنى محرّف إلى درجه شديده من الغسيل الفكرى آل الأمر إلى هجران حقيقه المعنى وإلى تبدّده ونقيضه، وهذا يُعدّ من الملاحم الهامه فى تاريخ القرآن عند المسلمين وهى بضمه من بصمات كثيره موجوده فى تحريف وطمس معانى وحقائق القرآن الكريم، فتعود حقائقه باليه عن الأذهان

ص: ٢٠٠

١- (١) آل عمران ٣: ٣٣ و ٣٤.

٢- (٢) البقره ٢: ٢٤٨.

٣- (٣) الصافات ٣٧: ١٣٠.

٤- (٤) سبأ ٣٤: ١٣.

٥- (٥) النساء ٤: ٥٤.

لتستغيث بمجدد يحيى الكتاب ليأتى إلى الناس بكتاب جديد فى معانيه التى هى حقائقه الأصلية المطموسه دهوراً وأحقاباً، فيجدد إظهار تلك الحقائق المندرسه، وكم فى القرآن الكريم من امهات الآيات المحكمات ومعاهد معانيه قد حُرِّفَت معانيها وطمسوها، بل جعلوا لها نقيض معانيها الأصلية، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: (وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (١).

وقوله تعالى: (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ) (٢).

ص: ٢٠١

١- (١) البقره ٢: ٧٥.

٢- (٢) المائده ٥: ١٣.

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ * لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَساكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَخْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَّةً يَوْمَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (١)

التشدد والترهب والرياضات غير المأثوره

قيل: إن الآيه الأولى - ٨٧ - نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام وبلال وعثمان بن مظعون، فأما أمير المؤمنين عليه السلام كما روت العامه، وروى القمى في تفسيره: عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن بعض رجاله، عن أبي عبدالله عليه السلام في قوله تعالى:

(لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ)، قال: «نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام وبلال وعثمان بن مظعون، فأما أمير المؤمنين عليه السلام فحلف أن لا ينام بالليل أبداً، وأما بلال فإنه لا يفطر بالنهار أبداً، وأما عثمان بن مظعون فحلف أن لا ينكح أبداً، فدخلت امرأه

ص: ٢٠٥

عثمان على عائشه، وكانت امرأه جميله، فقالت عائشه: ما لى أراك متعطله؟

فقلت: ولمن أترين؟ فوالله ما قاربنى زوجى منذ كذا وكذا، فإنه قد ترهب ولبس المسوح وزهد فى الدنيا، فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وآله أخبرته عائشه بذلك، فخرج فنادى: الصلاة جامع، فاجتمع الناس، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

ما بال أقوام يحرمون على أنفسهم الطيبات؟ ألا إنى أنام بالليل، وأنكح، وأفطر بالنهار، فمن رغب عن سنتى فليس منى.

فقام هؤلاء فقالوا: يا رسول الله، فقد حلفنا على ذلك، فأنزل الله تعالى عليه:

(لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ...) إلى آخر الآية» (١).

وأوردها ابن شهر آشوب فى «المناقب» عن ابن عباس ومجاهد وقتاده فى قوله تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا...) الآية، نزلت فى على بن أبى طالب وأبى ذرّ وسلمان والمقداد وعثمان بن مظعون وسالم أنهم اتفقوا على أن يصوموا النهار ويقوموا بالليل، ولا يناموا على الفراش، ولا يأكلوا اللحم، ولا يقربوا النساء والطيب، ويلبسوا المسوح، ويرفضوا الدنيا، ويسيحوا فى الأرض، ويرفضوا الدنيا وهم بعضهم أن يجب مذاكيره، فخطب النبى صلى الله عليه وآله، وقال: ما بال أقوام حرّموا النساء والطيب والنوم وشهوات الدنيا، أما إنى لست آمركم أن تكونوا قسسه ورهباناً، فإنه ليس فى دينى ترك النساء واللحم واتخاذ الصوامع، وأن سياحه امتى ورهبايتهم الجهاد» (٢).

وروى الطبرسى عن الشعبى وأبى مخنف ويزيد بن أبى حبيب المصرى:

ص: ٢٠٦

١- (١) تفسير القمى: ١: ١٧٩. تفسير مقاتل بن سليمان: ١: ٣١٧. جامع البيان: ٧: ١٢، ١٤. تفسير ابن أبى حاتم: ٤: ١١٨٦. معانى

القرآن للجصاص: ٢: ٣٤٩.

٢- (٢) مناقب آل أبى طالب: ٢: ١٠٠.

أنه... حيث روى محاججه معاويه وحزبه من بنى اميه وبنى العاص والمغيره، محاججتهم مع الإمام الحسن بن عليّ عليهما السلام، وتواطأهم عليه، فأدلو بطعونهم على الإمام الحسن عليه السلام، فأجابهم، ثم أخذ يذكر مقامات عليّ عليه السلام وأهل البيت عليهم السلام، ثم قال:

أَشِيدُكُمْ بِاللَّهِ! أَتَعْلَمُونَ أَنَّ عَلِيًّا أَوَّلُ مَنْ حَرَّمَ الشَّهَوَاتِ كُلَّهَا عَلَى نَفْسِهِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَانزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ) (١)«(٢)».

وروى «تفسير فرات الكوفي» ذلك أيضاً أنها نزلت في عليّ وأصحابه، منهم عثمان بن مظعون وعمار بن ياسر وسلمان، حرّموا على أنفسهم الشهوات (٣).

وقد أشكل بعض المخالفين المعنى، وأنه منقصة وذمّ، بل ادعى بعضهم أن هذا من التطرف والافراط، وأن هذه الظاهره حدثت قبل ظاهره الخوارج.

الجواب:

أولاً: في روايه تفسير النعماني ظاهرها أن الذين قاموا بذلك هم عثمان بن مظعون وجمع من الصحابه هم غير عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فقد روى عليّ بن الحسين الشريف المرتضى في «رساله المحكم والمتشابه» نقلاً عن تفسير النعماني: بإسناده عن عليّ عليه السلام، قال: «إن جماعه من الصحابه كانوا حرّموا على أنفسهم النساء والإفطار بالنهار والنوم بالليل، فأخبرت أم سلمه رسول الله صلى الله عليه وآله، فخرج إلى أصحابه فقال: أترغبون عن النساء؟ إنني آتى النساء، واكل بالنهار، وأنا بالليل،

ص: ٢٠٧

١- (١) المائده ٥: ٨٧ و ٨٨.

٢- (٢) الاحتجاج: ١: ٤٠٧.

٣- (٣) تفسير فرات: ١٣٣.

فمن رغب عن سنتي فليس مني، وأنزل الله: (لا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ).

فقالوا: يا رسول الله، إنا قد حلفنا على ذلك؟

فأنزل الله:

(لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ... ذَلِكَ كَفَارُهُ أَيْمَانِكُمْ) (١)

ولا يخفى دلالة مواضع منها على المغايرة بين من قاموا بذلك وأمير المؤمنين، مع أن أكثر الروايات الواردة في سبب النزول عامية، ومع أن أكثر رواياتهم لم تشمل على ذكر اسم أمير المؤمنين.

نعم، قد مر في «تفسير القمي» روايته ذلك عن الصادق عليه السلام، وتحتمل الرواية للتقيته كما هو معهود في جملة من الموارد من اتقاء الصادق عليه السلام في نسبه فعل أو سيره لأمر المؤمنين حسب زعم العامة، مع أن في روايات أخرى عنه عليه السلام نفى ذلك، وأما روايه الطبرسي في «الاحتجاج» فهي عامية أيضاً، نعم وبقية الروايات من طرفنا مرسله.

ومما يعضد ذلك ما روى من أن عثمان بن مظعون، قال: «أنت النبي صلى الله عليه وآله فقلت: يا رسول الله، ائذن لي في الترهّب.

فقال: لا، إنما رهبايته امتي في الجلوس في المسجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة.

فقلت: يا رسول الله، أأذن لي في السياحه؟

قال: سياحه امتي الجهاد في سبيل الله.

فقلت: يا رسول الله، أأذن لي في الاختصاء؟

ص: ٢٠٨

١- (١) وسائل الشيعة: الباب ٢ من أبواب مقدمات النكاح وآدابه، الحديث ٩، عن المحكم والمتشابه: ٩١.

فقال: ليس منا من خصى واختصى، إنما اختصاء امتي الصوم»(١).

فيظهر منها أنّ ابن مطعون هو المتصدّر لهذا الأمر وجماعه آخرون من أصحابه، ومن ثمّ في روايه اخرى أنّه صلى الله عليه وآله قال لامرأه عثمان بن مطعون: أحقّ ما بلغنى عن زوجك وأصحابه؟

والتعبير بأصحاب عثمان بن مطعون لا يشمل عليّاً عليه السلام بعد كونه غير تابع لابن مطعون.

ثانياً: في «الاحتجاج» روى عن الشعبي وأبي مخنف ويزيد بن أبي حبيب المصرى، أنّهم قالوا:... وذكروا احتجاج الحسن بن عليّ عليهما السلام على جماعه من بنى اميّه وفيهم المغيره بن شعبه وعمرو بن العاص ومعاويه بن أبي سفيان، وفي الروايه المزبوره احتجاجه عليه السلام على اولئك بقوله عليه السلام:

وَأُنشِدُكُمْ اللَّهَ، أَتَعْلَمُونَ أَنَّ عَلِيّاً أَوَّلُ مَنْ حَرَّمَ الشَّهَوَاتِ كُلَّهَا عَلَى نَفْسِهِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ) (٢)، وكان عندهم علم المنايا، وعلم القضايا، وفصل الكتاب، ورسوخ العلم، ومنزل القرآن، وكان رهط لا- نعلمهم يتّمون عشره نبيّاهم الله أنّهم مؤمنون، وأنتم في رهط قريب من عدّه اولئك لعنوا على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله فاشهد لكم واشهد عليكم أنّكم لعناء الله على لسان نبيّه كلّكم»(٣).

واستشهد الفيض في تفسيره «الصافى» بهذه الروايه قائلاً: «ليس في مثل هذا

ص: ٢٠٩

١- (١) التبيان: ٨:١.

٢- (٢) المائدة: ٨٧:٥ و ٨٨.

٣- (٣) الاحتجاج: ١: ٤٠٧.

الخطاب والعتاب منقصة على المخاطب والمعاتب إن لم يكن محمده، نظيره قوله تعالى: (يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) (١)، وقد ورد القرآن كله تقريب وظاهره تقريب» (٢).

أى أن لحن الخطاب وإن كان فيه العقاب، لكنّه بداعى الحنان والعطف والرأفة نظير قوله تعالى: (طه) * ما أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)، ونظير ما استشهد به الفيض آيه سوره التحريم من أنّ ظاهرها عتاب، ولكنّ الغايه المراده جدّاً هو الدفاع من الله عزّ وجلّ عن نبيّه فى قبال أزواجه، ويدعم هذا الاستظهار أيضاً ما أشارت إليه روايه «الاحتجاج» من نعت الله لهم بالإيمان.

وبعبارة اخرى: أنّ النهى عن هذا النمط من الترهّب والانقطاع عن الشهوات، إنّما صدر تشريعه بنزول هذه الآيه وصدور النهى النبوى فى هذه الوقعه، وأما قبل هذه الوقعه فكان ذلك مندرجاً فى عمومات التشريع غير منهيّ عنه، وأما قوله تعالى فى الآيه (وَ لَا تَعْتَدُوا) فقد يفسّر - كما ذكر القطب الراوندى (٣)-، أى لا تعتدوا إلى ما حرّم عليكم ونهى عنه الحكيم، وزجر عنه، واعتداء الحدّ مجاوزة لحكمه، وعلى هذا التفسير فلا يكون المخاطب ب (لا تَعْتَدُوا) من نزلت الآيه فيهم فى صدر الآيه، بل يكون هذا الذيل توصيه عامّه لبيان النهى عن الطرفين: طرف تحريم الطيبات والطرف المقابل، وهو الوقوع فى المحرّمات، أى لا تنقطعوا عن الشهوات بالمزّه كما لا توغّلوا،

ص: ٢١٠

١- (١) التحريم ١:٦٦ و ٢.

٢- (٢) تفسير الصافى: ٨٠:٢.

٣- (٣) فقه القرآن: ٢: ٦٣٦.

وتوصى بالتوسط، وهذه قاعده مهمه في أسباب النزول، اشير إليها في روايات أهل البيت عليهم السلام أن الآيه صدرها قد يكون في شخص ومورد معين ووسطها في آخر وذيلها في ثالث.

وفي الروايه النبويه الوارده في شأن عثمان بن مظعون: «مَنْ رَغِبَ عَنِ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي، وَاسْتَقِيمُوا يَسْتَقِمْ لَكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالتَّشْدِيدِ... شَدَّدُوا عَلَيَّ أَنْفُسَهُمْ فَشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَأُولَئِكَ بَقَايَاهُمْ فِي الدِّيَارَاتِ وَالصَّوَامِعِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ» (١).

وذيل قوله صلى الله عليه وآله يشير إلى قوله تعالى: (وَ رَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ) (٢).

وفي جملة من الروايات الواردة عنهم عليهم السلام تفسير الرهبانيه (إلا- ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ) بصلاه الليل (٣) كما احتمله المجلسي (٤)، وهذه الآيه في سوره الحديد هي الأخرى من ملاحم الآيات التي تنهى عن التشديد والترهب، وإن وقع لكثير من المفسرين في غير ما تومى إليه الآيه، فظنوا أن ذيل الآيه مديح مع أن الصحيح - حسب الروايات - أن الذيل هو بيان لغايتهم والهدف الذي قصده من ابتداء الرهبانيه.

ص: ٢١١

١- (١) مجمع البيان: ٣: ٤٠٤.

٢- (٢) الحديد ٥٧: ٢٧.

٣- (٣) الكافي: ٢: ٢٣٢، و: ٣: ٤٨٨. من لا يحضره الفقيه: ١: ٤٧٢. علل الشرائع: ٣: ٣٦٣. عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢: ٢٥٤.

تهذيب الأحكام: ٢: ١٣٠.

٤- (٤) بحار الأنوار: ٨٤: ١٤٦.

فقد روى ابن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: «كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وآله على حمار، فقال: يا بن أم عبد، هل تدري من أين أحدثت بنو إسرائيل الرهبانيه؟»

فقال: الله ورسوله أعلم.

فقال: ظهرت عليهم الجبابره بعد عيسى عليه السلام يعملون بمعاصي الله، فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم، فهزمهم أهل الإيمان ثلاث مرّات، فلم يبق منهم إلّا القليل، فقالوا:

إن ظهرنا هؤلاء أفنونا ولم يبق للدين أحد يدعو إليه، فتعالوا نتفرّق في الأرض إلى أن يبعث الله النبيّ الذي وعدنا به عيسى عليه السلام يعنون محمّداً صلى الله عليه وآله، فتفرّقوا في غيران الجبال وأحدثوا رهبانيه، فمنهم من تمسك بدينه، ومنهم من كفر، ثمّ تلا هذه الآيه:

(وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ...).

ثمّ قال: يا بن أم عبد، أتدري ما رهبانيه امتي؟

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: الهجره والجهاد والصلاه والصوم والحجّ والعمره.

وفى حديث آخر عن ابن مسعود: «أنه صلى الله عليه وآله قال: من آمن بي وصدّقني واتّبعتني فقد رعاها حقّ رعايتها، ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الهالكون» (١).

ويظهر من الروايه بوضوح أنّ المراد ب «ما رعوها حقّ رعايتها» هو الدعوه إلى النبيّ صلى الله عليه وآله والإيمان به، لأنّ غايتهم من ابتداع الرهبانيه هو الإبقاء على أنفسهم كي يدعوا إلى الدين الذي يبشّر بسيد الأنبياء.

ويشهد لمفاد هذه الروايه ذيل الآيه من قوله تعالى: (فَاتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)، أى أنّ الرعايه هي بلحاظ الإيمان بسيد الرسل،

ص: ٢١٢

فالمديح في الرعايه التي هي الغايه لما ابتدعوه وليس للبدعه التي ابتدعوها والترهب الذي ألزموا أنفسهم به.

فقوله تعالى: (إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ) شرح للغايه التي قصدوها من هذه البدعه وهي الإيمان بسيد الأنبياء، فلا يستفاد من هذه الآيه من سوره الحديد امتداح التشدد والترهب كما توهم ذلك الكثير من المفسرين فجعلوا مفاد الآيه بأن تلك البدعه وإن لم يكتبها الله عليهم، إلما أنه امتدحهم عليها، فتطابق آيه الحديد وآيه المائده في ذم التشدد والترهب، بعدما وُصف في الآيه الأولى بأنه اعتداء.

وكذا ما في قوله تعالى: (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَ يَحْرِمُهُمُ الْخَبَائِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (١)، فإنه متطابق مع الآيتين على ما استظهر من لفظ (وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ) أي ثقلهم، شبه ما كان على بنى إسرائيل من التكليف الشديد بالثقل، وذلك أن الله سبحانه جعل توبتهم أن يقتل بعضهم بعضاً، بينما جعل توبه هذه الأمة الندم بالقلب حرمة للنبي صلى الله عليه وآله، والأغلال التي عليهم نظير قرض ما يصيبه البول من أجسادهم، وأشبه ذلك من تحريم السبت، وتحريم العروق في اللحم والشحوم، وقطع الأعضاء الخاطئه، ووجوب القصاص دون الدية حتى في الخطأ وغيرها.

وهذا التشديد بعد أن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم، كما يشير إليه قوله تعالى: (فَيُظْلَمَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَ بَصَدَّهْمُ عَنْ سَبِيلِ

ص: ٢١٣

وقوله تعالى: (كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (٢).

اعتراض وجواب: قد يقال إنَّ هناك جملة من الشواهد يستفاد منها رجحان الترهّب:

الأوّل: قوله تعالى: (وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَّيْنَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا) (٣). يفيد امتداح الرهبانيّة والقسيسيّة، والتعليل بهما أنّهما السبب لمودّة النصارى للذين آمنوا، وأنّهما السبب للتواضع ولرقّة القلب لو أنّ القسيسيّة والرهبنة ممدوحه في سياق التواضع وعدم الاستكبار ورقّة القلب.

الثاني: أنّ الرهبنة من الرهبة، وهى المخافه مع التحرّز والاضطراب، والترهّب التخلّى من أشغال الدنيا وترك ملاذّها والزهد فيها، والعزله عن أهلها، وتعهد مشاقّها، وترهّب الرجل: إذا صار راهباً يخشى الله، والخوف من الله أمرٌ ممدوح وكلّ عمل من خشية الله فهو فضيله.

الثالث: دعاء امّ داود: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى الْأَبْدَالِ، وَالْأَوْتَادِ، وَالسِّيَاحِ، وَالْعُبَادِ، وَالْمُخْلِصِينَ، وَالزُّهَادِ، وَأَهْلِ الْجِدِّ وَالْإِجْتِهَادِ»، ويستفاد من ذلك الدعاء بالمديح

ص: ٢١٤

١- (١) النساء ٤: ١٦٠.

٢- (٢) آل عمران ٣: ٩٣ و ٩٤.

٣- (٣) المائدة ٥: ٨٢ و ٨٣.

الرابع: ما كان في سيره النبي في جملة من الموارد من التشدد في العبادة.

منها: أن النبي صلى الله عليه وآله قد كان يتعبّد في غار حراء كلّ عام، ويعتزل الناس إلى أن بُعث رسولاً، قد أورد المجلسي في «البحار» عن بعض الكتب أنه قد ورد في الكتب الصحاح أنه كان يجاور في حراء من كلّ سنه شهراً، وكان يطعم في ذلك الشهر من جاءه من المساكين، فإذا قضى جواره من حراء كان أوّل ما يبدأ به إذا انصرف أن يأتي باب الكعبة قبل أن يدخل بيته فيطوف بها سبعاً أو ما شاء الله من ذلك، ثم يرجع إلى بيته حتى جاءت السنه التي أكرمه الله تعالى فيها بالرسالة (٢).

ومنها: ما في قوله تعالى: (طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) (٣)، ففي موثّق أبي بصير عن أبي جعفر: «وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يقوم على أطراف أصابع رجله، فأنزل الله سبحانه (طه) الآية» (٤).

ص: ٢١٥

١- (١) في كتاب العين: والقسّ رأس من رؤوس النصارى، وكذلك القسيس، ومصدره القسوسه والقسيسه والقسسّس: الدليل الهادي المتفقد الذي لا يغفل إنّما هو تلفتاً ونظراً، والقسّ: تتبع النائم، وقيل: قسيس كلمه سريانيه في الأصل معناها شيخ، وفي العرف الكنسي هو أحد أصحاب المراتب في الديانه، وهو بين الأسقف والشماس، وفي الكتاب المقدس في رسائل بولس (الرساله الأولى إلى تيموثاوس) تُرجم القسيسين بالرعاه (ما أصدق القول إنّ من يرغب في الرعايه يتوق إلى عمل صالح، إذن يجب أن يكون الراعي بلا عيب زوجاً لامرأه واحده نبيهاً عاقلاً مهذباً مضيافاً قادراً على التعليم)، وفي شرح ذلك الكتاب فيّره بمعنى الشيخ أيضاً.

٢- (٢) بحار الأنوار: ١٥: ٣٦٣.

٣- (٣) طه ١: ٢٠ و ٢.

٤- (٤) الكافي: ٢: ٧٧.

وفى روايه اخرى لأبى بصير فى «تفسير القمى» عنهما عليهما السلام، قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا صلى قام على أصابع رجله حتى تورمت، فأنزل الله تبارك وتعالى الآية» (١).

وروى الطبرسى فى «الاحتجاج» عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال فى وصف النبى:

«إنه كان إذا قام إلى الصلاة سمع لصدره أزيز كأزيز المرجل على الأثافي من شدّه البكاء، وقد آمنه الله عزّ وجلّ من عقابه، فأراد أن يتخشّع لرّبّه ببكائه ويكون إماماً لمن اقتدى به، ولقد قام عشر سنين على أطراف أصابعه حتى تورمت قدماه، واصفرّ وجهه، يقوم الليل أجمع حتى عوتب فى ذلك، فقال الله عزّ وجلّ: (طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) بل لتسعد به، ولقد كان يبكى حتى يُغشى عليه، فقليل:

يا رسول الله، أليس قد غفر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟

قال: بلى، أفلا أكون عبداً شكوراً» (٢).

قال فى «مجمع البيان»: «أنّ النبى كان يرفع إحدى رجله فى الصلاة ليزيد تعبها، فأنزل الله: (طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) ، فوضعها. قال: وروى ذلك عن أبى عبد الله عليه السلام (٣).

وفى موثّق ابن بكير، عن أبى عبد الله عليه السلام، قال: «إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله بعدما عظم أو بعدما ثقل، كان يصلى وهو قائم، ورفع إحدى رجله حتى أنزل الله تعالى: (طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) ، فوضعها» (٤).

وقد ذهب غير واحد من الأعلام إلى جواز الوقوف على الواحد عملاً بإطلاق

ص: ٢١٤

١- (١) تفسير القمى: ٣٢:٢.

٢- (٢) الاحتجاج: ٢١٩:١.

٣- (٣) مجمع البيان: ٦:٧.

٤- (٤) وسائل الشيعة: ٤٩١:٥، الباب ٣ من أبواب القيام، الحديث ٤.

الأدله في القيام، وأن الآيه الكريمة غير ناسخه في المقام، كما قد جَوَز جماعة الوقوف على بعض الأصابع أو الأصول، لإطلاق الأدله، والآيه ناظره لنفي الالتزام نظير قوله تعالى: (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) (١)، فلا تدلّ على نفي المشروعيّه، والكيفيّة المزبوره باقيه على ما هي عليه من الرجحان والمحبوبيّه غايته أنّها غير واجبه، وسياق الآيه يشهد بورودها في مقام الامتنان، ورفع ما يوجب الشقاء والتعب والكلفه عن النبيّ الأقدس صلى الله عليه و آله.

نعم، ما كان يصدر منه صلى الله عليه و آله لم يكن على اللزوم والوجوب لترفعه الآيه، بل من باب أن أفضل الأعمال أحمرها، فنزلت الآيه إشفاقاً به، لكن الآيه لا تنفي المشروعيّه، بل نفي أفضليّه هذا العرض.

هذا ما قرّره غير واحد من الأعلام، ولعلّ سائل يسأل عن سبب التأخير في نزول الآيه، مع أنّه صلى الله عليه و آله كان يمارسه عشر سنين؟

ومن ثمّ لعلّ الوجه في مفاد الآيه هو نفي الاستمرار والدوام على هذا الفرد لإيجاب الاستمرار والدوام في الوقوع في المشقّه لا نفي الأفضليّه، ولا نفي أنّ أفضل الأفراد أحمرها، أو أنّ الأحمزيّه وإن كانت أفضل، إلّا أنّها قد تراحم بعنوان آخر أرجح منها، أو أنّ الأحمزيّه أفضل ما لم توجب المشقّه الشديده، ومفاد هذه الآيه حينئذٍ يخرج قاعده عامّه في باب العبادات والرياضات السلوكيه الشرعيّه أنّه لا بدّ فيها من مراعاة عدم الوقوع في إشقاء النفس، نظير ما روى عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه و آله: إنّ هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق، ولا تكثرهوا عباده الله إلى عباد الله، فتكونوا كالراكب المنبت الذي لا سفر قطع،

ص: ٢١٧

ولا ظهراً أبقي» (١).

الخامس: ما ورد أنّ أفضل الأعمال أحمرها (٢).

السادس: ما رواه الصدوق في «الأمالى» في صحيح هشام بن سالم، عن جعفر بن محمد عليهما السلام قال: «إنّ داود عليه السلام: خرج ذات يوم يقرأ الزبور، وكان إذا قرأ الزبور لا يبقى جبل ولا حجر ولا طائر ولا سبع إلّا جاوبه، فما زال يمرّ حتّى انتهى إلى جبل، فإذا على ذلك الجبل نبيّ عابد يقال له حزقيل، فلما سمع دوىّ الجبال وأصوات السباع والطير علم أنّه داود عليه السلام، فقال داود: يا حزقيل، أتأذن لي فأصعد إليك؟

قال: لا، فبكى داود عليه السلام، فأوحى الله جلّ جلاله إليه: يا حزقيل، لا تعير داود، وسلنى العافيه، فقام حزقيل فأخذ بيد داود فرفعه إليه، فقال داود: يا حزقيل، هل هممت بخطيئه قط؟ قال: لا.

قال: فهل دخلك العجب ممّا أنت فيه من عباده الله عزّ وجلّ؟ قال: لا.

قال: فهل ركنت إلى الدنيا فأحببت أن تأخذ من شهوتها ولذتها؟ قال: بلى، ربّما عرض بقلبي» الحديث (٣).

وهذه الروايه تتضمن الدلاله على رجحان التعبّد فوق الجبال بنحو الانعزال فى شرائع الأنبياء السابقين.

السابع: ما فى قوله تعالى: (وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَيَّجَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا) (٤)، حيث امتدحت الصوامع

ص: ٢١٨

١- (١) الكافى: ٢: ٨٦، باب الاقتصاد فى العباده.

٢- (٢) بحار الأنوار: ٧٠: ١٩١، ٢٣٧.

٣- (٣) الأمالى - المجلس الحادى والعشرون: ١٥٩.

٤- (٤) الحجّ ٢٢: ٤٠.

للرهبان فى سياق المساجد، وأنها يُذكر فيها اسم الله.

ولتنقيح الحال فى الشواهد السابقه على مسأله حكم الترهّب، والأوّل وهو قوله تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ* وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ (١))، فهو وإن استفيد منه امتداح لين جانبهم ورقه قلوبهم، وقله حرصهم على الدنيا، واهتمامهم بالعلم والعمل، حيث أنّ عنوان القساوسه إشاره إلى الموقعيه فى العلم، والرهبنة إشاره إلى قلّه حرصهم على الدنيا، وفيض أعينهم من الدمع إلى رقه قلوبهم، وأنهم لا يستكبرون إشاره إلى لين جانبهم، إلّا أنه قيد باستجابتهم للإيمان برسول الله، وما أنزل إليه، وذلك لا يستفاد منه امتداح الوسيله التى ترهبنا بها، فمدح الغايه لا يستلزم التقرير بالطريق إليها.

كما أنّ تخطئه الطريق لا- تستلزم تخطئه الغايه، كما فى قوله: وَ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ (٢))، فكون بعض الجهات سلبيه لا تنفى الجهات الإيجابيه ولا العكس كذلك، وهذا ممّا يصعب تفكيكه على الكثير، والشأن فى اللغه البغض والعداوه، فمجرد كون الطرف الآخر عدوّ لا يستلزم التفريط بالموازن معه فى الجوانب الأخرى، وهذا نمط من التفكيك من الجهات والحيثيات.

ونظير قوله تعالى: (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ) (٣)، فمجرد بدو الخيانه منهم لا يستلزم المبادره بنكث العهد

ص: ٢١٩

١- (١) المائده ٨٢:٥ و ٨٣.

٢- (٢) المائده ٨:٥.

٣- (٣) الأنفال ٨:٥٨.

معهم قبلهم، بل لا بدّ من اعتماد طريق منصف بين الطرفين.

ونظير قوله عليه السلام: «لا تقتلوا الخوارج بعدى، فليس مَن طلب الحقَّ فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه (يعنى معاويه وأصحابه)»، فالخوارج رغم أنّهم من أصحاب النار، بل وصفوا فى الحديث النبوى بأنهم كلاب النار، إلّا أنّه عليه السلام ميّز بين ما رفعوه من شعار وبين ما اعتقدوه من منهج خاطئ ومنحرف، بخلاف معاويه وأصحابه، وهذا التمييز بين الفرقتين رغم أنّ كليهما من فرق الباطل، يندرج فى التفكيك بين الحثيات.

فكون الخوارج قد حبط عملهم وآلوا إلى الردى والهلاك، لا- ينافى تمييز ما فيهم من بعض جهات الصواب، والموازنة بهذا المقدار من أصعب الصعاب التى تحتاج إلى علم وافر وصدر منشرح للإحاطة بجميع الحثيات، ومراعاة الموازين المتعدّده، فلا جهه الصواب فى الخوارج توجب انخداع الباحث عن تردّى محصّيله أعمالهم وسوء العاقبه، ولا سوء عاقبتهم تحجب الباحث عن جهه الصواب فى بعض الحثيات التى لديهم.

وروى: «أنّ إبليس مرّ بيحيى ومعه رغيف شعير، فقال: أنت تزعم أنّك زاهد وقد ادّخرت رغيف شعير.

فقال يحيى: يا ملعون، هو القوت.

فقال إبليس: إنّ أقلّ من القوت يكفى لمن يموت.

فأوحى الله إليه: اعقل ما يقول لك»(١).

فمع كون إبليس عدوّ مبين ولعين رجيم، إلّا أنّ ذلك لا يمنع أخذ الحكمة ولو من الكافر، فإنّ الحكمة ضالّه المؤمن بعد أن يعلم وجهها.

ص: ٢٢٠

فَتَحَصَّلَ: أَنَّهُ لَا تَدَافِعَ بَيْنَ آيَةِ الْمَائِدَةِ الْمَادِحَةِ لِجَمَلِهِ مِنَ النَّصَارَى، وَهَمَّ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِخَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ بِمَقْتَضَى وَصِيَّةِ الدِّينِ الَّذِي بُعِثَ بِهِ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا مَطْلَقَ النَّصَارَى، كَمَا هُوَ مَقْتَضَى التَّقْيِيدِ الْمَوْجُودِ فِي آيَةِ الْكُرَيْمَةِ، وَنَبَّهَ عَلَيْهِ أَبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَمَا رَوَى عَنْهُ فِي ذَيْلِ الْآيَةِ، وَتَعْلِيلَ مَدْحِهِمْ لَوْجُودِ الْعِلْمِ وَالرَّهْبَنَةِ فِيهِمْ (أَيَ الزَّهْدِ فِي الدُّنْيَا) هُوَ بِلِحَازِ تَأْدِيَةِ الْعِلْمِ وَالزَّهْدِ إِلَى الْغَايَةِ الْحَمِيدَةِ، وَهِيَ الْإِيمَانُ بِخَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ.

وَبِذَلِكَ يَظْهَرُ تَطَابُقَ مَفَادِ هَذِهِ الْآيَةِ مَعَ مَفَادِ آيَةِ الْحَدِيدِ، حَيْثُ أَنَّ فِي آيَةِ الْحَدِيدِ امْتِدَاحَ الْغَايَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ) ، فَفِي آيَةِ الْحَدِيدِ أَيْضاً تَفْكِيكَ بَيْنَ إِجْبَابِيَّةِ الْغَايَةِ وَإِجْبَابِيَّةِ الزَّهْدِ عَنِ الدُّنْيَا فِي نَفْسِهِ مَعَ ذَمِّ حَيْثِيَّةِ أُخْرَى، وَهُوَ ابْتِدَاعُ طَرِيقَةِ الرَّهْبَنَةِ، فَيَتَطَابَقُ مَعَ مَفَادِ الْآيَتَيْنِ.

وَسَيَتَحَصَّلُ مِنْ مَفَادِهِمَا أَنَّ مَدْحَ الْغَايَةِ لَا يَسْتَلْزِمُ مَدْحَ الْوَسِيلَةِ، كَمَا أَنَّ الْوَسِيلَةَ قَدْ تَكُونُ فِي نَفْسِهَا مَشْرُوعَةً، إِلَّا أَنَّ الْغَايَةَ مَذْمُومَةً، وَهَذَا مِنَ الْمَدَاقِفِ فِي الْمِيزَانِ وَالْمَوَازِنَةِ وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَ الصَّوَابِ وَالخَطَأِ مِنْ دُونَ الْإِجْحَافِ لِجِهَةِ مِنَ الْجِهَاتِ.

وَمِنْ ذَلِكَ يَظْهَرُ الْجَوَابُ عَنِ الثَّانِي، فَإِنَّ التَّخَلِّيَ عَنِ التَّشَبُّثِ وَالِاشْتِغَالَ بِالدُّنْيَا وَمَلَاذِّهَا وَالْخَوْفَ وَالْخَشْيَةَ مِنَ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَتْ فِي نَفْسِهَا مَمْدُوحَةً وَرَاجِحَةً عَظِيمَةً، إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ لَا يَلْزِمُ رَجْحَانَ أَى وَسِيلَةَ تُتَّخَذُ طَرِيقاً لِتِلْكَ الْغَايَةِ، وَمِنْهُ يُفْهَمُ مَغْزَى النُّهْيِ النَّبَوِيِّ الْوَارِدِ عَنِ الرَّهْبَانِيَّةِ وَعَنِ السِّيَاحَةِ أَنَّ النَّفْسَ لِهَذِهِ الرَّهْبَانِيَّةِ وَالسِّيَاحَةِ بِلِحَازِ مَا ابْتَدَعَهُ النَّصَارَى مِنْ طَرِيقَةٍ أَوْ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ الشَّرَائِعُ السَّابِقَةُ مِنَ السِّيَاحَةِ فِي الْأَرْضِ، وَأَمَّا بَيَانُ مَتَحَصَّلِ الْجَمْعِ بَيْنَ مَدْحِ الزَّهْدِ فِي الدُّنْيَا كَغَايَةِ وَالْإِيمَانِ بِسَيِّدِ الْأَنْبِيَاءِ، وَبَيْنَ النَّهْيِ عَنِ طَرِيقَةِ الرَّهْبَنَةِ بِقَوْلِ مَطْلَقِ وَالسِّيَاحَةِ،

فقد مرّت الإشارة إلى جملة من الروايات المستفيضة عند الفريقين الناهية عن الرهبانيّة والسيّاحة في الإسلام.

وقد روى في «الدعائم» أيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله: أنه نهى عن الترهّب، قال: «لا رهبانيّة في الإسلام، تزوّجوا فإنّي مكاثر بكم الأمم»، ونهى عن التبتّل، ونهى النساء أن يتبتّلن ويقطعن أنفسهنّ عن الأرواح»^(١).

روى في «الكافي»: عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «إنّ الله تبارك وتعالى أعطى محمّداً صلى الله عليه وآله شرائع نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام: التوحيد والإخلاص وخلع الأنداد والفطره الحنيفيّة السمحة، ولا رهبانيّة ولا سيّاحة، أحلّ فيها الطيبات، وحرم فيها الخبائث، ووضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، ثم افترض عليه فيها الصلاة والزكاة...»^(٢).

وهناك لسان آخر يحصر طريقه الرهبانيّة والسيّاحة في الجهاد أو حجّ بيت الله الحرام أو الذهاب إلى المساجد أو الجلوس في المساجد وانتظار الصلاة والصومعه بالجلوس والاختصاء أو الحضوريّة في الصوم.

روى الصدوق في «الخصال»: عن زيد بن عليّ، عن آبائه، عن عليّ عليهم السلام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ليس في أمّتي رهبانيّة ولا سيّاحة ولا زَمَ»^(٣).

وروى الصدوق حصر الرهبانيّة بالجهاد في سبيل الله^(٤).

وقد تقدّم بعض الروايات النبوّية في ذلك.

ص: ٢٢٢

١- (١) الدعائم: ٢: ١٩٣.

٢- (٢) الكافي: ١٧: ٢، الحديث ١.

٣- (٣) الخصال: ١٣٨، الحديث ١٥٤. معاني الأخبار: ١٧٤، الحديث ١.

٤- (٤) أمالي الصدوق: ١٢٣، الحديث ١١٣.

وفى «الكافي» معتبره السكونى عن أبى عبد الله عليه السلام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

الأتكاء فى المسجد رهابتيه العرب. إن المؤمن مجلسه مسجده، وصومعه بيته» (١).

وقد مرّ فى جملة من الروايات أنّ تفسير الرهبانيه المبتدعه بصلاه الليل، ولعلّ الظاهر تفسير رضوان الله لا تفسير الرهبانيه، فقد روى الكليني عن أبى الحسن عليه السلام فى قول الله عزّ وجلّ: (وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ)، قال: صلاه الليل» (٢).

وفسر المجلسى فى «مرآه العقول» الجواب بأنّه راجع إلى رضوان الله (٣).

فهو أنّ الغايه وإن كانت ممدوحه للرهبانيه والاختصاص والسياحه والزّم - وهو الصوم من الكلام -، إلّا أنّ الشارع رغم امتداحه لهذه الغايات، قد ردع عن الوسائل والطرق السابقه فى تلك الشرائع، أو التى لدى أتباعها من أنفسهم، واستبدلها بوسائل وطرق اخرى، وهذا ممّا يعطى قاعده عامه فى باب الرياضات والسلوكيات الروحيه العباديه من الوصول للغايات النهائيه فى العبادات لا يكون ولا يسوغ بأى وسيله، بل لا بدّ من الاعتماد على الوسائل المشروعه.

وبعباره اخرى: أنّ فى العبادات والسلوكيات الروحيه والرياضات النفسيه مدارج من الغايات كطبقات تتلو بعضها البعض، نظير ترتب الصفات على الأفعال، وترتب الملكات على الصفات، ولكلّ من الملكات طبقات، كما أنّ للصفات طبقات، وكذلك للأفعال طبقات، والوصول من طبقه إلى طبقه اخرى هو بتوسط جوادّ الشريعه والطريقه القويمه.

ص: ٢٢٣

١- (١) الكافي: ٢: ٦٦٣.

٢- (٢) الكافي: ٣: ٤٨٨، الحديث ١٢.

٣- (٣) مرآه العقول: ١٥: ٤٨٣.

ومن الواضح خطوره وحساسيته سبل الوصول إلى الغايات، فإن بينها تفاوت بالغ التأثير في الوصول إلى المقاصد، ومن ثم اختلفت الشرائع كما في قوله تعالى: (لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا) (١)، مع أن الدين الذي هو غايه للشرائع واحد عند جميع الأنبياء، كما في قوله تعالى: (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) (٢)، والمناهج كما يستفاد من رواياتهم عليهم السلام من مثل السبل في الشريعة الواحده، فالشريعة يسنها الأنبياء، والمناهج يسنها الأوصياء والأئمه، وكذلك الشأن في الطريقه، كما في قوله تعالى: وَ أَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا (٣).

وبالشريعة والمنهاج والطريقه يصاب الدين، وقد ورد عنهم عليهم السلام: «أن الدين لا يصاب بالعقول»، فقد روى الصدوق بسنده: عن أبي حمزه الثمالي، قال:

«قال علي بن الحسين عليه السلام: إِنَّ دِينَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُصَابُ بِالْعُقُولِ النَّاقِصَةِ، وَالْأَرَاءِ الْبَاطِلَةِ، وَالْمَقَائِيسِ الْفَاسِدَةِ، وَلَا يُصَابُ إِلَّا بِالتَّسْلِيمِ، فَمَنْ سَلِمَ لَنَا سَلِمَ، وَمَنْ أَقْتَدَى بِنَا هُدَى، وَمَنْ كَانَ يَعْمَلُ بِالْقِيَاسِ وَالرَّأْيِ هَلَكَكَ، وَمَنْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ شَيْئًا مِمَّا نَقُولُهُ أَوْ نَقُضِي بِهِ حَرْجًا كَفَرَ بِالَّذِي أَنْزَلَ السَّبْعَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ» (٤).

وبعبارة ثالثة اصطلاحيه أن هناك عمومات وقواعد فوقيه تنتزل منها عمومات وقواعد اخرى، ويكون هذا التنزل ذو مراتب، فالعمومات والقواعد المتنزله لا يصح التمسك بالفوقى منها مع وجود العموم الذي هو نازل في المرتبه الثانيه،

ص: ٢٢٤

١- (١) المائدة ٥: ٤٨.

٢- (٢) آل عمران ٣: ١٩.

٣- (٣) الجن ٧٢: ١٦.

٤- (٤) كمال الدين: ٣٢٤، الحديث ٩.

فلا يصحّ التمسك بالعمومات الفوقيه مع وجود العمومات التنزيليه، لأنها بمثابة المخصّصات والمقيّدات والمفسّرات للعمومات الفوقيه، فلا تبقى العمومات الفوقيه على إطلاقها، فإنّ دور العموم النازل هو تحديد مسار التطبيقى للعموم الفوقى، فيحدّد إطار نزوله وتنزله فى قالب الذى اشتمل عليه العموم النازل، ومن ثمّ سمى العموم النازل مخصّصاً ومبيّناً ومقيّداً.

وبهذا البيان يظهر تطابق الآيتين الوارده فى الرهبانيه مع قوله تعالى:

(لا- تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) ، وكم هو بيّن مفاد آيه المائده فى النهى عن اتّخاذ وابتداع طرق وسبل لم ترشد إليها الشريعه ولا مناهج الأوصياء فيتطابق مفاد الآيات بعضها مع بعض.

الابتداع والسنن الحسنه

ثمّ لا بدّ للالفات إلى الضابطه المائزه بين الابتداع المذموم وبين القاعده النبويه الوارده: «مَنْ سَنَّ سَنَّهُ حَسَنَةً كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، فإنّ الفارق بين الموردين هو أنّ فى البدعه اتّخاذ طريقه ومنهاج لا يندرج فى العمومات النازله، وإن اندرج فى العمومات الفوقيه، أى أنّ البدعه تتخطى فيها القواعد المبيّنه فى الأدلّه المفسّره للوسائل والطرق الموصله للأهداف الشرعيه فيتخذ وسيله فى عرض الوسائل والسنن المحدده فى الشرع، فلا يكفى فى تثبيت المشروعيه والشرعيه اندراج الفعل فى العمومات الشرعيه فحسب، بل لا بدّ من اندراجه فى الأدلّه المفسّره للعمومات، أو فقل: لا بدّ أن لا يتنافى الفعل مع المخصّصات الوارده، أى لا بدّ أن يندرج تحت آخر عموم نازل مفسّر ومطبق للعمومات الفوقيه.

ولذلك سمى القرآن ما صنعه الرهبان ابتداع ما كُتب عليهم، مع أنّه يندرج

فى عموم الزهد والخشيه وعدم الإخلاد إلى الدنيا، والمرابطه والمحافظه على بقاء الدين، وهذه العمومات المندرج فيها فعلهم، هى بمثابة غايه امتدحتها الآيه، إلّا أنّها ذمّت الوسيله، وذلك بتحديد الشرائع السابقه وسائل خاصّه للوصول للغايه المنشوده، حيث قام الرهبان بنبذ تلك الوسائل واستبدالها بوسائل من عندهم، أو من عند أنفسهم، ومن ذلك يتبين أنّه لا يكفى فى المشروعيه للفعل مجرد الاندراج فى عموم من العمومات الوارده والمتضمّنه للحكم الشرعى ولا مجرد الاندراج فى الأحكام العقليه العامه، بل لا بدّ من الاندراج فى العمومات التحتائيه غير المخصّصه ولا المقيدّه، وأمّا السنّه الحسنه فتتّين ضابطتها ممّا مرّ من أنّها كلّ عاده أو عرف اجتماعيّ يؤسّس فى الظاهره الاجتماعيه، ويكون مندرجاً فى العموم التحتائى، ولا يكون بذلك بدعه أو ابتداءً، وذلك لأنّ إرسال الشارع لذلك العموم من دون تقييد أو تخصيص بآليه خاصّه، يفيد الترخيص والإذن منه فى تطبيق العنوان والطبيعه المأخوذه فى العموم على أىّ مصداقٍ يستحدث ويوجد لتلك الطبيعه.

أمّا الشاهد الثالث وهو المديح الوارد فى جمله من الأدعيه للسيّاح والعباد والزّهاد وأهل الجّد والاجتهاد، وكذا الشاهد الرابع وهو ما كان من سيره النّبىّ صلى الله عليه وآله من التعبّد فى غار حراء كلّ عام شهراً أو قيامه صلى الله عليه وآله على أطراف أصابعه، أو الوقوف على رجل واحده فى الصلاه، ونحوها...

فأمّا السياحه، فما ورد من نصوص مستفيضه فى تفسيرها بالجهاد أو الجلوس فى المساجد ونحوه، أو بالصوم بضميمه النهى والنفى لما فى الشرائع السابقه من سياحه، فلا يتوهم من المديح لهذا العنوان إرادته ما فى الشرائع السابقه، هذا مضافاً إلى اختلاف عنوان السياحه والحصوريّه التى كانت لدى النّبىّ عيسى

ويحيى عليهما السلام هي من تشريعات الأنبياء السابقين وليس من ابتداع البشر، وهي وإن كانت منسوخة في شريعتنا، إلا أنه كما بينا في حلقه النسخ أنه وإن كان عظيمه في نفي المشروعيه، إلا أنه لا ينافي الرجحان الذاتى في نفسه، وإن لم يستلزم ذلك بقاء المشروعيه.

فكم فرق وبون كبير بين ما شرّع على أيدي الأنبياء ونُسَخ في شريعته خاتم الأنبياء، وبين ما ابتدع من قبل سائر البشر وأتباع الأنبياء، وأما الموارد التي كانت في سيره النبى صلى الله عليه وآله فقد تقدّم نقل الأقوال في بقاء مشروعيه تلك الأفعال، وأنها لم تنسخ، وأنّ المحصّل من الآيات الواردة في شأنه صلى الله عليه وآله هو نفي الاستمرار والدوام على أحزم الأعمال وأشقّها، وأنه سيحصل من تلك الآيات قاعده في باب العبادات والرياضات الشرعيه، وهي مراعاة عدم الوقوع في إشقاء النفس، وتوخي الرفق والتدرّج فيها، فما في آيه سوره طه يتطابق مع ما في آيتي الرهبانيه وآيه المائده، من نفي الشدّه والشقاء في العبادات والرياضات الشرعيه، ولزوم توخي ما سنّ في شريعته خاتم الأنبياء من الوسائل الموصوفه بكونها الشريعه السمحه السهله، إذ قال جملة من المحقّقين: «أنّ ما في سنن خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله هو أشدّ امتحاناً للنفس ممّا في سنن الأنبياء السابقين، وذلك لسهوله الانقطاع بنحو البتر والبتل عن غرائز النفس بنحو دفعي أو ببناء عاده دائمه، وهذا بخلاف إذاقه النفس جملة من اللذائذ، الفينه بعد الأخرى، مع ترويض إمساكها، فإنّ ذلك أصعب وأشدّ في الاستقامه».

فتبين أنّ ما في سيرته صلى الله عليه وآله لا ينطبق مع ما عليه الترهّب عند النصارى حتّى اعتكافه صلى الله عليه وآله في غار حراء، فإنّه لم يكن انقطاعاً دائماً عن الناس وإرشاد العباد، بل هو نظير ما روى من مماثله أمير المؤمنين لما قام به صلى الله عليه وآله من عبادته وتهجده ليلاً

فى بساتين المدينه منقطعاً عن الناس فى تلك الساعات، أو خروجه عليه السلام إلى ظهر الكوفه مما يلى البريه، وكذا خروج زين العابدين عليه السلام إلى بعض أطراف البريه للتعييد والانقطاع بعض الأوقات، ونظير ما روى عن موسى بن جعفر عليهما السلام من شكره لله تعالى أن فرغه لعبادته فى السجن، وهو نحو انقطاع غيرهم من أئمه أهل البيت عليهم السلام فى حالاتهم وسيرتهم، بل وروى ذلك أيضاً فى بعض سيرته صلى الله عليه وآله لما هاجر إلى المدينه، حيث اتخذ مشربه أم إبراهيم مكاناً ينقطع إليه فى بعض الأوقات.

أمّا الشاهد الخامس، وهو ما روى: «أن أفضل الأعمال أحزها»، وقد تبين أن جملة من الآيات، نظير (طه) * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى).

وقوله تعالى: (وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ).

وقوله تعالى: (لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ).

وقوله تعالى أيضاً: (وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ) (١)، وغيرها من الآيات والروايات أن قاعده (أفضل الأعمال أحزها) مقيدة بعدم التأييد والدوام، فإن الله كما يحب أن يؤخذ بعزاه أن يؤخذ برخصه، وأن الشريعة سهله سمحاء، ومقيدة بعدم إشقاء النفس لنفس تلك الآيات والروايات بعد التأكيد على الرفق واللين فى الأمور كلها، فلا بد أن تفتيد القاعده بهذين القيدين.

ثم إنه لا بد من الخوض فى معنى تحريم الطيبات، هل هو المشارطه بترك الطيبات والمباحات بتوسط اليمين والحلف بأسماء الله أو العهد أو النذر،

ص: ٢٢٨

١- (١) الأعراف ٧: ١٥٧.

أو المشاركة ضمن العقد أو الالتزام بمحظوريه المباحه، فعلاً أو تركاً، وإن لم ينسب الحظر والمنع إلى الشارع؟ أى يكون متعلق
الالتزام نفس الحذر والمنع لا الفعل والترك؟ أو التزام الفعل المباح أو الترك المباح بنحو التأييد؟ أو التزام الفعل أو الترك ولو
لمده محدوده؟

قد يقال: إن التحريم إنما يصدق فيما لو بنى على الحرمة مع نسبتها إلى الشرع دون ما التزم بالحرمة والمنع والحظر، مع الالتفات
إلى عدم نسبتها إلى الشرع، وإنما يتبناها الشخص فيما بينه وبين نفسه، أو يتبناها عرف خاص مع الالتفات إلى قطع نسبتها إلى
الشارع، فإن ذلك لا يكون تحريماً.

فضلاً عما لو التزم بالفعل المباح أو الترك المباح بنحو التأييد من دون تعلق الالتزام بالحظر أو المنع كصفه للعمل، فضلاً عن
الصورة للشق الأخير، وهو ما لو التزم الفعل أو الترك مده.

ولكن الصحيح أن التحريم المنهى عنه لا يختص بما لو التزم بالحظر مع نسبتها للشرع، أى لا يخص النهى عن تحريم الطيبات
بالحرمة التشريعيه، بل يعم الحرمة والحظر والمنع المقطوع والمنفى نسبتها إلى الشارع.

كما لا يختص بما لو كان هذا التبنى للحرمة والمنع والحظر بما لو كان بتوسط القسم أو العهد أو النذر ونحوها، بل يشمل ما لو
كان ذلك بتبنى الشخص فيما بينه وبين نفسه بأن يجعل الحرمة من نفسه لنفسه من دون أن ينسبها إلى الشارع، أو يجعل
أصحاب عرف خاص أو مجتمع، ذلك لأنفسهم من أنفسهم من دون أن ينسبه إلى البارى تعالى، فإن الالتزام والتعهد بالحظر
والمنع أيضاً ينطبق عليه أنه تحريم للطيبات كما هو الحال فى التقنيات وقوانين الأنظمة والدول الوضعيه.

ومنه يظهر أن التحريم ليس محصوراً فى الإنشاء النظرى للحرمة، أو نسبتها

إلى الشارع، بل يشمل التبنّى العمليّ التطبيقيّ لمفاد المنع والحذر، وإن لم ينسب إلى الشارع.

والظاهر أنّ الابتداع الذي مرّ في آيه الحديد (الرهباتيه) هو الآخر لا يختصّ بما ينشئ بزعم نسبته إلى الشارع ممّا ليس في الشريعة، بل يشمل كلّ تشريع يتناول علاقه فيما بين الإنسان والبارى تعالى، وهذا تعريف أعمّ للبدعه والابتداع، وبالتالي فإنّ في المقام ظاهره مشتركة تشير إليها جملة من الآيات بعنوان التعدّي عن حدود ما قرّره الشارع من باب الإفراط أو نشوء السلوك الاجتماعيّ الفاسد الذي يوصف في الآيات بالأغلال والإصر وبالجاهليّه.

وكذلك في الجانب العباديّ بعنوان الابتداع، فهذه موارد وبيئات متعدّده يردع فيها القرآن عن السلوكيات المنحرفه الفرديّه أو الروحيّه أو الاجتماعيّه أو العباديّه أو على صعيد التعامل والمواثيق.

أمّا الشاهد السادس والسابع، فيظهر الحال فيهما بما تقدّم من الشواهد السابقه من أنّ أصل التعبد بالانقطاع في الجملة لا ضير فيه، وأنّ الممنوع هو التأييد، وأنّ الصوامع والبيع من حيث ذكر الله فيها، هي جانب إيجابيّ وإن كانت الجوانب السليبيه من جهه تحريف اتّباع الأنبياء السابقين هي سلبيه لا يغفل عنها.

الانفاق بين العدل و الإحسان

أشاره

ص: ٢٣١

يُوفُونَ بِالْأَنْدَرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ٧ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ٩ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطِيرًا ١٠ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ١١ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ١٢ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرُونَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ١٣ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَيْدِيهَا تَدْلِيلًا ١٤ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِبِائِنَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ١٥ قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ١٦ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ١٧ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا ١٨ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا ١٩ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلَكًا كَبِيرًا ٢٠ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُوسٌ خُضِرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ٢١ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (٢٢) (١)

و في السوره أبحاث:

إشاره

ص: ٢٣٣

١- (١) الإنسان ٧٦: ٧-٢٢.

الأول: أسباب النزول

ذكر السيوطي في «الدرّ المنثور»، قال: أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: (وَ يُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ) الآية، قال: نزلت هذه الآية في عليّ بن أبي طالب وفاطمة عليهما السلام (١).

وذكر الواحدى في «أسباب النزول»: عن عطاء، عن ابن عبّاس، أنها نزلت في عليّ بن أبي طالب عليه السلام وأهل بيته عليهم السلام (٢).

وعن الثعلبي: أنه أخرج ذلك في تفسيره من روايه القاسم بن بهرام وروايه الكلبي كذلك (٣).

ورواه ابن الجوزى أيضاً في «الموضوعات» بطريق آخر (٤).

وأخرجه الحسكاني في «شواهد التنزيل» (٥).

وقد أجاب سبط ابن الجوزى عن تمجج جده في قبول الحديث (٦).

وعن ابن عساكر في تاريخ دمشق.

وعن الحموينى في «فرائد السمطين» (٧).

وعن أبى جعفر الكوفى الزيدى القاضى المعاصر لفرات الكوفى (٨).

ص: ٢٣٤

١- (١) الدرّ المنثور: ٦: ٢٩٩.

٢- (٢) أسباب نزول الآيات: ٢٩٦.

٣- (٣) تفسير الثعلبي: ١٠: ٩٩.

٤- (٤) الموضوعات: ١: ٣٩٠.

٥- (٥) شواهد التنزيل: ٢: ٣٩٤، الحديث ١٠٤٢.

٦- (٦) تذكرة الخواص: ٢٨٤.

٧- (٧) فرائد السمطين: ٢: ٥٤، الحديث ٣٨٣.

٨- (٨) عنه في تفسير فرات: ٥١٩، الحديث ٦٧٦.

وعن الحكيم الترمذى فى الرابع والأربعين، وإن تممجم وتلجلج شذاه فى قبول الحديث.

ورواه الزمخشرى فى كشّافه(١).

وعن الواحدى فى كتاب البسيط.

وأما روايات أهل البيت عليهم السلام فهى مستفيضه، بل متواتره فى نزولها فى أصحاب الكساء، فقد روى الصدوق بإسناده: عن الصادق جعفر بن محمّد، عن أبيه عليهما السلام فى قوله عزّ وجلّ: (يُؤْفُونَ بِالنَّذْرِ) ، قال: «مرض الحسن والحسين وهما صبيّان صغيران، فعادهما رسول الله ومعه رجلان، فقال أحدهما: يا أبا الحسن، لو نذرت لابنيك نذراً لله إن عافاهما.

فقال: أصوم ثلاثه أيام شكراً لله عزّ وجلّ، فكذلك قالت فاطمه، وقال الصبيّان:

ونحن أيضاً نصوم ثلاثه أيام، وكذلك قالت جاريتهم فضّه، فألبسهما الله العافيه، فأصبحوا صائمين وليس عندهم طعام، فانطلق علىّ عليه السلام إلى جارٍ يقال له (شمعون) يعالج الصوف، فقال: هل لك أن تعطينى جزّه تغزلها [لك] ابنه محمّد بثلاثه أصوعٍ من شعير.

قال: نعم، فأعطاه، فجاء بالصوف والشعير فأخبر فاطمه عليها السلام فقبلت وأطاعت، ثم عمدت فغزلت ثلث الصوف فأخذت صاعاً من الشعير فطحنته وعجنته وخبزت خمسه أقراص، لكلّ منهم قرص، وصلى علىّ عليه السلام مع النبى صلى الله عليه وآله ثم أتى منزله، فوضع الخوان وجلسوا خمستهم، فأول لقمه كسرهما علىّ عليه السلام إذا مسكين واقف بالباب، فقال: السلام عليكم يا أهل بيت محمّد، أنا مسكين من مساكين المسلمين، أطعمونى ممّا تأكلون أطعمكم الله على موائد الجنّه، فوضع اللقمه من يده،

ص: ٢٣٥

١- (١) تفسير الكشّاف: ٤: ١٩٧.

ثم قال:.... الحديث (١).

ثم ذكر عليه السلام أشعاراً لعليّ عليه السلام يستحث فاطمه عليها السلام بالصدقه، وفيها مجاوبتها عليها السلام على التصدق، وأنه تكزّر هذا المشهد مرّه ثانيه فى اليوم الثانى مع يتيم من يتامى المسلمين، وتكزّر هذا المشهد أيضاً فى اليوم الثالث مع أسير من أسرى المشركين، فأعطوه أيضاً وباتوا جياً وأصبحوا مفطرين وليس عندهم شىء، وأقبل عليّ عليه السلام بالحسنين نحو رسول الله صلى الله عليه وآله وهما يرتعشان كالفراخ من شدّه الجوع، فلما بصر بهما رسول الله صلى الله عليه وآله قال: يا أبا الحسن، شدّما يسوؤنى ما أرى بكم، انطلق إلى ابنتى فاطمه، فانطلقوا إليها وهى فى محرابها قد لصق بطنها بظهرها من شدّه الجوع، وغارت عيناها، فلمّا رآها رسول الله صلى الله عليه وآله ضمّها إليه، فقال: وا غوثاه، أنتم منذ ثلاث فيما أرى، فهبط جبرئيل عليه السلام فقال: يا محمّد، خذها هيأ الله لك فى أهل بيتك، قال: وما آخذ يا جبرئيل؟

قال: (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ (إِنِّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا) .

ورويت هذه الروايه بصيغ اخرى.

الثانى: مقام عباد الله فوق الأبرار

ومن غفلات مفسّرى العامّه أنّهم ظنّوا اندراج أصحاب الكساء فى الأبرار فى آيات هذه السوره، وهم منهم لعدم التفاتهم إلى ما ترشده روايات أهل البيت عليهم السلام من بيان فى ظهور الآيه، حيث أنّ سياق السوره يبيّن أنّ هناك أربعه أقسامٍ من البشر، الكافرين ومقامهم، والأبرار ومقامهم، وعباد الله ومقامهم،

ص: ٢٣٦

والذين وصفوا ب (يُوفُونَ بِالنَّذْرِ) هم عباد الله الذين في مقامهم يُشرفون على مقام الأبرار، ويُفجرون لهم عين الكافور، فمقام الأبرار دونهم، وشراب الأبرار من كأس ممتزج بشيء من الكافور وليس بخالص من الكافور، فأهل البيت عليهم السلام بحسب الآيات يندرجون في عباد الله الذين يشرفون على الأبرار، وهذا ما يتطابق مع ما في سورة المطففين من أنّ مقام الأبرار يُشرف عليه المقرَّبون، وأنّ المقرَّبون يشهدون كتاب أعمال الأبرار الذي هو في علّين، فمقام المقرَّبين وهو مقام عباد الله فوق العلّيين، كما أنّ الأبرار يشربون من الرحيق المختوم ممتزجاً بشيء من عين التسنيم، وعين التسنيم عين يشرب منها المقرَّبون، فذكر في سورة المطففين جملة من مقامات عباد الله، منها: أنّهم شهداء أعمال العباد فضلاً عنّ دونهم.

ومنها: أنّ عين التسنيم لهم.

ومنها: أنّهم المقرَّبون، كما أنّ سورة الواقعة قد أفصحت عن أنّ المقرَّبين هم السابقون، وسورة الواقعة أيضاً تبيّن إشراف السابقين والمقرَّبين وعباد الله على مقام الأبرار، وهذا ما يتطابق مع ما في سور أخرى مع آية الكساء، وهم أهل آية التطهير، يشهدون أعمال العباد، وهم الشهداء على الناس والرسول صلى الله عليه وآله عليهم شهيد، وهذا تطابق متّسق متّحد في السور القرآنيّة العديده عن مقام أصحاب الكساء عليهم السلام.

كما أنّ في السورة دلالة أيضاً على أنّ الفيض الإلهي يصل إلى الأبرار عبر وبواسطه عباد الله حيث بينت أنّ الكأس الذي يشرب منه الأبرار يمزج بشيء من الكافور، والمازج لهم بذلك هم عباد الله حيث أنّهم يقومون ويتولّون بتفجير

عين الكافور وسقى الأبرار بمزاج منها.

فقد روى الصدوق في «الأمالي»: بسنده عن سلمه بن خالد، عن الصادق عليه السلام، عن أبيه عليه السلام في قوله عز وجل: (يُوفُونَ بِالنَّذْرِ) فهبط جبرئيل عليه السلام بهذه الآيات (إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا) (١)، قال: هي عين في دار النبي صلى الله عليه وآله تفجر إلى دور الأنبياء والمؤمنين (٢).

ورواه بطريق آخر: عن ابن عباس (٣)، ورواه الثعلبي في تفسيره، كما حكاه عنه ابن بطريق في «العمدة» (٤).

ولا يخفى أن التفجير وإن كان في دار الدنيا هو تشقيق الأرض ليجرى الماء وتنبع العين، إلما أن الشأن في الدار الآخرة ليس كذلك، حيث أن الأمور هي بمشيئته أهل الجنان توجد، فتفجير عباد الله المقربين هذه العين للأبرار يفيد أنهم الموجودون لتلك العين، لأن أحكام دار الآخرة أن الأشياء تحصل بالمشيئة، فهم يوجدون هذه العين ويسقون الأبرار منها ممزوجاً، ولا يخفى أن الشراب هو رمز لماء البقاء والحياة.

وقد اشير إلى نظير هذا المعنى في سورة المطففين، وقد مرّت الإشارة إلى التطابق في مفاد السورتين، حيث بين في سورة المطففين إشراف وعلو مقام المقربين على مقام الأبرار، وأن الأبرار يشربون ويسقون من رحيق مختوم يمزج لهم فيه من تسنيم، وأن التسنيم عين يشرب بها المقربون، فشرابها لهم خالصه

ص: ٢٣٨

١- (١) الإنسان ٧٦: ٥ و ٦.

٢- (٢) أمالي الصدوق: ٣٣٣، المجلس ٤٤.

٣- (٣) المصدر المتقدم.

٤- (٤) العمدة: ٣٤٦، الحديث ٦٦٨. تفسير الثعلبي: ٩٩: ١٠.

صافيه، فهم الذين يزودون الأبرار بذلك المزاج، وقد ورد في رواياتهم عليهم السلام إلى تضمّن سورة المطففين في قوله تعالى: (كَلَّا- إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلِّيْنَ * وَ مَا أَدْرَاكَ مَا عَلِّيُونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ) (١) الإشارة إلى مسأله الطينه من أن نفوس وأرواح الأبرار مخلوقه من فاضل طينه أبدان المقرّبين.

ووجه الإشاره فى الآيات أنّ كتاب الأبرار هو عباره عن نفوسهم وأرواحهم، كما أشير إليه فى قوله تعالى: (اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) (٢)، وغيره من الآيات، وهو الطائر الذى فى عنق الإنسان، أى فى أعالي وجوده الذى يلقاه يوم القيامة منشوراً، فإذا كان كتاب الأبرار الذى هو فى عليّين، ومرقوم فيه كل أعمالهم، يشهده المقرّبون بحواسّهم، فيكون رتبه أرواح الأبرار وأنفسهم، يُشرف عليها، لأنّ الشاهد محيط بالمشهود، وقد جعل الشاهد هنا ذات المقرّب بمراتبها لا مجرد مرتبه كتابه فقط، بينما الذين فى عليّين من الأبرار، كتابهم لا ذواتهم بتمام مراتبها، بل ذواتهم البدنيه فى النعيم، وأبهم فى السوره مرتبه كتاب المقرّبين، لكن قد تضمّنت الإشاره إلى أنّ كتابهم فوق عليّين.

وهذا ما اشير إليه فيما رواه الكليني بسنده إلى أبى حمزه الثمالى، قال:

«سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: إنّ الله عزّ وجلّ خلقنا من أعلى عليّين وخلق قلوب شيعتنا منه، وخلق أبدانهم من دون ذلك، وقلوبهم تهوى إلينا لأنّها خلقت ممّا خلقنا منه، ثم تلا هذه الآيه: (كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلِّيْنَ * وَ مَا أَدْرَاكَ مَا عَلِّيُونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ) (٣).

ص: ٢٣٩

١- (١) المطففين ٨٣: ١٨-٢١.

٢- (٢) الإسراء ١٧: ١٤.

٣- (٣) المطففين ٨٣: ١٨-٢٠.

وخلق عدونا من سجين، وخلق قلوب شيعتهم مميًا خلقهم منه وأبدانهم من دون ذلك، فقلوبهم تهوى إليهم لأنها خلقت مما خلقوا منه، ثم تلا هذه الآية:

(كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَ مَا أَذْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) (١) (٢).

وهذه الرواية تبين تسانخ أرواح المؤمنين مع أبدان المعصومين، وتسانخ أرواح الفجار مع أبدان أئمة النار، ومن ثم تعكس المحبة القلبية نمط تسانخ في الطينه والماديّة الروحيّة مع المحبوب، ونحو ارتباط وثيق، ومن ثم ورد:

«من أحبّ عمل قوم اشرك في عملهم» (٣).

وعلى أيّ تقدير، ليس الحديث هاهنا عن بحث الطينه وأصل الخلقه، وإنما لبيان وساطه المقرّبين في الفيض الإلهي، ولا يتوهم بيان الطينه ونشأ الخلقه والروحيّة أنّ مقتضاها الجبر، بل أنّها من باب بيان المقتضيات، إذ معنى الاختيار ليس التفويض وإنما أمر بين أمرين.

وفي روايه أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «السجين الأرض السابعة، وعلّيون السماء السابعة» (٤).

ومفادها أنّ البدن الأخرى للمؤمنين من السماء السابعة وهي علّيون، والبدن الأخرى للفجار هي الأرض السابعة، وهي سجين، وإطلاق القلب أو الروح على البدن الأخرى باعتبار أنّ تشفّف الجسد وتلطفه ترّوح، والجسم اللطيف

ص: ٢٤٠

١- (١) المطففين ٨٣: ٧-١٠.

٢- (٢) الكافي: ٣: ٢، الحديث ٤.

٣- (٣) بشاره المصطفى: ١٢٦، الحديث ٧٢. مستدرك الوسائل: ١٠٨: ١٢، الحديث ١٣٦٤٨.

٤- (٤) تفسير القمي: ٢: ٤٠٤.

باطن للجسم الغليظ والكثيف، فيكون بمثابة الروح له، فكلّ تلطف تروّح، كما أنّ كلّ تكثّف وتغلّظ هو تجسّد.

وأما اشتغال البدن الأخرى على آثار جميع أعمال الإنسان، فلأجل قابليته ذلك الجسد على اختزان جميع الآثار، فيكون بمثابة الصفحة التي ينتقش ويرقم فيها جميع الأعمال.

الثالث: الميزان في الإنفاق

إشاره

قد يتساءل عن وجه الحكمة في نزول سوره بأكملها في أصحاب الكساء عليهم السلام مع أنّه إيثار في واقعه ما، وربما اعترض بعض مفسري العامه على الآيات أو على مفاد الروايات الوارده في أسباب النزول كالذي قاله القرطبي:

«قال الترمذى في «نوادير الأصول»: فهذا حديث مزوغ مزيف قد تطرّف فيه صاحبه حتّى تشبّهه على المستمعين، فالجاهل بهذا الحديث يعصّ شفّيته تلّهفاً أن لا يكون بهذه الصفة، ولا يعلم أنّ صاحب هذا الفعل مذموم، وقد قال الله تعالى في تنزيله: (وَ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ) (١)، وهو الفضل الذي يفضل عن نفسك وعيالك.

وجرت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وآله متواتره: «بأنّ خير الصدقه ما كان عن ظهر غنى»، و: «ابدأ بنفسك ثمّ بمن تعول»، وافترض الله على الأزواج نفقه أهاليهم وأولادهم، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت»، فكيف أجهد صبيانياً صغاراً من أبناء خمس أو ستّ على جوع ثلاثة أيام ولياليهنّ حتّى تظوّر من الجوع وغارت العيون منهم لخلوّ أجوافهم حتّى أبكى رسول

ص: ٢٤١

اللّٰهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مَا بِهِمْ مِنَ الْجَهْدِ»(١).

ولتنقيح الحال فى موارد الإيتار المحمود عن موارد البسط المذموم لا بدّ من التعرّض لجمله الآيات الواردة فى هذا المضمار.

فإنّ هناك طائفتين من الآيات:

الأولى: تدلّ على مطلق الإيتار

كقوله تعالى: (وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤِثِّرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (٢).

وقوله تعالى: (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ) (٣).

سوره الدهر وإمامه أهل البيت عليهم السلام ووساطتهم فى الفيض الإلهى

ولا يخفى أنّه من دلالة السوره على فوقية عباد الله على الأبرار هيمنه مقامهم على شهادة أعمال الأبرار إنّ هذا المعنى هو من شؤون معنى الإمامه، بل من مهماتها، فإنّ الشاهد على الأعمال هو الهادى الذى يوصل المشهود عليه إلى منازل الزلفى والقرب الإلهى ويهديه إلى لقاء الله والمعاد.

وقوله تعالى: (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (٤).

ص: ٢٤٢

١- (١) تفسير القرطبي: ١٩: ١٣٤.

٢- (٢) الحشر ٥٩: ٩.

٣- (٣) آل عمران ٣: ٩٢.

٤- (٤) آل عمران ٣: ١٣٤.

وقوله تعالى: (قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ وَ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) (١).

وقوله تعالى: (وَ مَا تَنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوفِّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ) (٢).

الثانية: ما يدل على التوسط في الإنفاق

كقوله تعالى: (وَ لَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَ لَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعِدَ مَلُومًا مَحْسُورًا * إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا) (٣).

وقوله تعالى: (وَ أَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَ أَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (٤).

وقوله تعالى: (وَ الَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا وَ كَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا) (٥).

وقوله تعالى: (لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَ مَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا) (٦).

وقوله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ

ص: ٢٤٣

١- (١) سبأ ٣٤: ٣٩.

٢- (٢) البقره ٢: ٢٧٢.

٣- (٣) الإسراء ١٧: ٢٩ و ٣٠.

٤- (٤) البقره ٢: ١٩٥.

٥- (٥) الفرقان ٢٥: ٦٧.

٦- (٦) الطلاق ٦٥: ٧.

وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (١).

وقوله تعالى: نَفَعِيهِمَا وَنَسْتُلُوَنَّكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢).

لسان الأوّل من الروايات كمفاد الطائفة الأولى من الروايات

فقد روى عنهم عليهم السلام، وقد ورد في الروايات السّنة في النفقة، ففي بعضها عنهم عليهم السلام: «استنزلوا الرزق بالصدقة، من أيقن بالخلف جاد بالعطيّة، إنّ الله يُنزل المعونه على قدر المؤونه» (٣).

وورد عن عليّ عليه السلام في «نهج البلاغه»: «إذا أملتكم فتاجروا الله بالصدقة» (٤).

وورد عنهم عليهم السلام: «لا يكمل إيمان العبد حتّى يكون فيه أربع خصال: يحسن خلقه، وتسخو نفسه، ويمسك الفضل من قوله، ويُخرج الفضل من ماله» (٥).

وعنه صلى الله عليه وآله في وصيّة لأمير المؤمنين عليه السلام: «فأما الصدقة فجهدك جهدك حتّى تقول قد أسرفت، ولم تسرف» (٦).

وعن أبان بن تغلب، عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث أنّه قال له: أخبرني عن حقّ المؤمن على المؤمن، فقال له: دعه لا تردّه.

ص: ٢٤٤

١- (١) البقره ٢: ٢١٥.

٢- (٢) البقره ٢: ٢١٩.

٣- (٣) وسائل الشيعة: ٩: ٣٧٠، الباب ١ من أبواب الصدقة، الحديث ١١.

٤- (٤) نهج البلاغه: الحكمة ٢٥٨. وسائل الشيعة: ٩: ٣٧٢، الباب ١ من أبواب الصدقة، الحديث ٢٠.

٥- (٥) وسائل الشيعة: ٩: ٣٧٢، الباب ١ من أبواب الصدقة، الحديث ٢١.

٦- (٦) وسائل الشيعة: ٩: ٣٧٩، الباب ٦ من أبواب الصدقة، الحديث ١.

قلت: بلى جعلت فداك، فلم أزل أردد عليه.

قال: يا أبان، تقاسمه شطر مالك.

ثم نظر إلى فرأى ما دخلني، فقال: يا أبان، أما تعلم أن الله قد ذكر المؤثرين على أنفسهم؟

قلت: بلى جعلت فداك.

فقال: أنت إذا قاسمته فلم تؤثره بعد، إنما أنت وهو سواء، إنما تؤثره إذا أنت أعطيته من النصف الآخر»(١).

وفى حديث جميل أنه قال لأبي عبدالله عليه السلام: من غرر أصحابي؟

قال عليه السلام: «هم البارون بالإخوان في العسر واليسر.

ثم قال: يا جميل، أما إن صاحب الكثير يهون عليه ذلك، وقد مدح الله في ذلك صاحب القليل، فقال في كتابه: (وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) ((٢))»(٣).

وعنه عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام في وصية النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام، قال: «يا علي، ثلاث من حقائق الإيمان: الإنفاق من الإقتار، وإنصاف الناس من نفسك، وبذل العلم للمتعم»(٤).

لسان الثاني: وهو كمفاد الطائفة الثانية:

ص: ٢٤٥

١- (١) وسائل الشيعة: ٩: ٤٢٧، الباب ٢٧ من أبواب الصدقة، الحديث ٢.

٢- (٢) الحشر ٩: ٥٩.

٣- (٣) وسائل الشيعة: ٩: ٤٢٩، الباب ٢٨ من أبواب الصدقة، الحديث ١.

٤- (٤) وسائل الشيعة: ٩: ٤٣٠، الباب ٢٨ من أبواب الصدقة، الحديث ٣.

ما روى عنهم عليهم السلام: «لا صدقه وذو رحم محتاج»^(١).

وعنهم عليهم السلام: «فأعطِ الفضل ولا تعجز نفسك»^(٢).

وعن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «سئل رسول الله صلى الله عليه وآله: أئى الصدقه أفضل؟

قال: على ذى الرحم الكاشح»^(٣).

وعنهم عليهم السلام: «لا يقبل الله الصدقه وذو رحم محتاج»^(٤).

الطائفة الثالثة: وهى الجامعه بين اللسانين

كموثق سماعه، قال: «سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الرجل ليس عنده إلّا قوت يومه أيعطف من عنده قوت يومه على من ليس عنده شيء؟ ويعطف على من عنده قوت شهر على من دونه؟ والسنة على نحو ذلك؟ أم ذلك كله الكفاف الذى لا يُلام عليه.

فقال: هو أمران: أفضلكم فيه أحرصكم على الرغبه والإثره على نفسه، فإنّ الله عزّ وجلّ يقول: (وَ يُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ).

والأمر الآخر لا يُلام على الكفاف، واليد العليا خير من اليد السفلى، وإبدأ بمن تعول»^(٥).

وفى روايه على بن سويد السائى، عن أبى الحسن موسى عليه السلام حيث اشتكى

ص: ٢٤٤

١- (١) وسائل الشيعة: ٩: ٣٨٠، الباب ٧ من أبواب الصدقه، الحديث ٢ و: ٣٨٤، الباب ٨، الحديث ٤.

٢- (٢) وسائل الشيعة: ٩: ٣٧٧، الباب ٥ من أبواب الصدقه، الحديث ٤.

٣- (٣) وسائل الشيعة: ٩: ٣٧٧، الباب ٢٠ من أبواب الصدقه، الحديث ١.

٤- (٤) وسائل الشيعة: ٩: ٤١٣، الباب ٢١ من أبواب الصدقه، الحديث ٧.

٥- (٥) وسائل الشيعة: ٩: ٤٣١، الباب ٢٨ من أبواب الصدقه، الحديث ٥.

الراوى له عليه السلام قلّه ذات يده، فقال عليه السلام: تصدّق بما رزقك الله ولو آثرت على نفسك»(١).

وفى موثّق أبى بصير، عن أحدهما عليهما السلام، قال: «قلت: أى الصدقه أفضل؟

قال: جُهد المُقلِّ، أما سمعت الله تعالى يقول: (وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) ترى هاهنا فضلاً»(٢).

وموثّق مسعده بن صدقه، عن أبى عبد الله عليه السلام فى حديث طويل من احتجاج الصوفيه عليه بقوله تعالى: (وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ).

فقال عليه السلام: إخبار الله عزّ وجلّ إيانا فى كتابه عن القوم الذين أخبر عنهم بحسن فعالهم، فقد كان مباحاً جائزاً ولم يكونوا نهوا عنه وثوابهم منهم على الله عزّ وجلّ، وذلك أنّ الله جلّ وتقدّس أمر بخلاف ما عملوا به، فصار أمره ناسخاً لفعالهم، وكان نهى الله تبارك وتعالى رحمه منه للمؤمنين ونظراً، لكى لا يضربوا بأنفسهم وعيالاتهم، منهم الضعفه الصغار، والولدان، والشيخ الفانى، والعجوز الكبيره، الذين لا يصبرون على الجوع...» الحديث.

ثمّ بيّن عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال مبيّناً قوله تعالى: (لَمْ يُشِيرُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا) ، وقوله تعالى: (وَلَا تَبْسُطْهَا كُفْلَ الْبَسِيطِ) يقول: «إنّ الناس قد يسألونك ولا- يعذرونك، فإذا أعطيت جميع ما عندك من المال، كنت قد حُشرت من المال»(٣).

وقوله عليه السلام فى توقيعه للحميرى: أنّه كتب إليه يسأله عن الرجل ينوى إخراج شىء من ماله وأن يدفعه إلى رجل من إخوانه، ثمّ يجد فى أقربائه محتاجاً أيصرف

ص: ٢٤٧

١- (١) وسائل الشيعه: ٩: ٤٣١، الباب ٢٨ من أبواب الصدقه، الحديث ٦.

٢- (٢) وسائل الشيعه: ٩: ٤٣٢، الباب ٢٨ من أبواب الصدقه، الحديث ٧.

٣- (٣) الكافي: ٥: ٦٥، الحديث ١.

ذلك عمّن نواه له إلى قرابته؟

فأجابه عليه السلام: يصرفه إلى أدناهما وأقربهما من مذهبه، فإن ذهب إلى قول العالم عليه السلام:

لا يقبل الله الصدقه وذو رحم محتاج، فليقسم في القرابه وبين الذي نوى حتى يكون قد أخذ بالفضل كله» (١).

وغيرها من الروايات الجامعه المؤلفه بين ألسن طوائف الآيات والروايات ويتحصّل منها عدّه وجوه من الجمع:

الأوّل: إنّ الإيثار في موارد لا- تسبّب تصدّع قوام المعيشه بحيث يكون سبباً لإقعاد المرء عن معيشته، بخلاف ما إذا لم تكن كذلك، فالوسطيه في الإنفاق للمحافظه على قوام المعيشه.

الثاني: إنّ الإيثار في الموارد التي يصبر فيها المنفق أو يصبر ذووه مع كون مورد النفقه هو من أشدّ منه حاجه، بخلاف التوسّيط فإنّه في الموارد الأخرى.

الثالث: إنّ الإيثار خلق خاصّ رفيع شديد كمعالي الإحسان، فهو سياسه خاصّه بينما التوسّط في الإنفاق هو سياسه عامّه.

ومن ثمّ ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «سئل عليه السلام أيهما أفضل العدل أم الجود؟

فقال عليه السلام: العدل يضع الأمور مواضعها، والجود يُخرجها من جهتها، والعدل سائس عامّ، والجود عارض خاصّ، فالعدل أشرفهما وأفضلهما» (٢).

أى أنّ العمل بقياس عامّ يحمل عليه عامّه الناس، وأمّا الإحسان مع أنّه من المعالي لا يجعل ضابطه لعموم الناس لا يجابه حينئذٍ الاخلال بالنظم العامّ،

ص: ٢٤٨

١- (١) الاحتجاج: ٢: ٣١٥.

٢- (٢) نهج البلاغه: الكلمات القصار ٤٣٧.

وهذا ما يشير إليه الإمام الصادق عليه السلام في موثقه مسعده.

الرابع: إنَّ الإِشار في المورد الذى لا- يمنع ولا يزاحم بحقوق اخرى كما في مورد النبى صلى الله عليه وآله حيث أنه وليّ عام، فاللازم في شأنه صلى الله عليه وآله أن لا يبسطها لكي يعمّ في عطائه للجميع، وكذلك لو كان له ذو قرابه ونحو ذلك، فمن ثمّ لا بدّ من ضبط الموارد والموازنه بين الفضائل فيما بينها والواجبات فيما بينها.

قاعده: العموم و الخصوص في الفضائل

و ممّا تقدّم يتبيّن أنّ الفضائل والمكارم والمعالي، قسم منها خاصّ، وقسم منها عامّ، فصرف كون المكرمه مكرمه، والفضيله فضيله، لا- يعنى عموميتها للكلّ، ومن ثمّ ورد أنّ لأهل اليقين طرائق ومناهج يختصّون بها فوق أهل التقوى، وكذلك للمتقين فوق المؤمنين، وللمؤمنين فوق المسلمين، ومن ذلك ما نسب له صلى الله عليه وآله: «حسنات الأبرار سيئات المقرّبين»^(١).

وكذلك ماورد أنّ للإيمان عشر درجات، وأنّ صاحب الدرجه الدانيه لا يتحمّل ما يتحمّله صاحب الدرجه العاليه، وأنّ أبا ذرّ لو علم ما في قلب سلمان لقتله^(٢).

ومنه قول عليّ بن الحسين عليهما السلام:

إنّي لأكتم من علمى جواهره كيلا يرى الحقّ ذو جهلٍ فيفتتنا

وقد تقدّم في هذا أبو حسنا إلى الحسين وأوصى قبله الحسن

فربّ جوهر علم لو أبوح به لقيلى لى أنت ممّن يعبد الوثنا^(٣)

ص: ٢٤٩

١- (١) بحار الأنوار: ٢٥: ٢٠٤.

٢- (٢) الكافي: ٢: ٤٥، الحديث ٢ و ٣ و: ١: ٤٠١، الحديث ٢.

٣- (٣) ينابيع المودّه: ٣: ١٣٥.

ومن ذلك يتبين أنّ هذا ليس مختصاً بالفضائل والمكارم، بل يعمّ المعارف والعقائد أيضاً، فإنّ قسماً وافراً من المعتقدات الحقّه البرهانيّه والقرآنيّه لا- يتحمّل إدراكها عموم الناس، بل لا يتحمّلون سماعها، فضلاً عن الإذعان بها، وكذلك الحال في بعض مندوبات الفضائل والمكارم، فإنّ سماعها من العامّه يوجب شيوع الفساد في أعمالهم بدل الصلاح والإصلاح.

ومن ذلك يتبين أنّ ما أورده القرطبي خلط بين الفضيله الخاصّه والفضيله العامّه، والغريب منه أنّه ناقض نفسه فيما ذكره في ذيل آيه في سورة الحشر حيث ذكر ما روته العامّه من روايه في إيثار عائشه وابن عمر وعمر بن الخطّاب وأبي عبيده الجراح، ومعاذ بن جبل، فقال: «فإن قيل: وردت أخبار صحيحه في النهي عن التصدّق بجميع ما يملكه المرء، قيل له: إنّما كره ذلك في حقّ من لا يوثق منه الصبر على الفقر وخاف أن يتعرّض للمسأله إذا فقد ما ينفقه، فأما الأنصار الذين أثنى الله عليهم بالإيثار على أنفسهم فلم يكونوا بهذه الصفه، بل كانوا كما قال الله تعالى: (وَ الصّابِرِينَ فِي الْبُؤْسِ وَالضَّرَّاءِ وَ حِينَ الْبُؤْسِ) (١)، وكان الإيثار فيهم أفضل من الإمساك، والإمساك لمن لا يصبر ويتعرّض للمسأله أولى من الإيثار».

وقال قبل ذلك أيضاً: «الإيثار هو تقديم الغير على النفس وحفظها الدنياويّه ورغبه في الحظوظ الدنيويّه، وذلك ينشأ من قوه اليقين وتوكيد المحبّه والصبر على المشقّه».

وقال أيضاً: «والإيثار بالنفس فوق الإيثار بالمال، وإن عاد إلى النفس، وفي عبارات الصوفيّه الرشيقيه في حدّ المحبّه أنّها الإيثار وأفضل الجود بالنفس

ص: ٢٥٠

الجود على حمايه رسول الله صلى الله عليه و آله»(١) ، انتهى.

ولا- عجب في أنّ تعميّه العصبية فينكره في أهل البيت ويقبله في غيرهم امتثالاً للأمر في قوله تعالى: (قُلْ لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) (٢)، وإلا فمن أثر النبي ليله المبيت بنفسه وفي بدر وأحد، وكان يدور حول رسول الله صلى الله عليه و آله، فقال جبرئيل يوم احد: يا محمد، إنّ هذه لهي المواساه من عليّ، قال: لأنه منّي وأنا منه.

فقال جبرئيل: وأنا منكما يا رسول الله(٣).

وكذلك في حنين وخيبر والأحزاب والخندق في بروزه لعمر بن عبد ودّ وجبن جميع الصحابه، وورد في المبرزين منهم في خيبر أنه رجع غير واحد يجبن أصحابه ويجبنونه، وفرارهم في احد معلوم حتى عيّرهم بها الله عزّ وجلّ في كتابه.

فيتين من ذلك من هو أشدّ حباً لله ولرسوله من عليّ، وثمّ قال الله تعالى فيه: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ) (٤) ، وقال فيه رسول الله:

«لأعطين الرايه غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله، كزاراً غير فرار، لا يرجع حتى يفتح الله على يديه»(٥).

ولا يخفى أنّ قوله تعالى: (وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)

ص: ٢٥١

١- (١) تفسير القرطبي: ١٨: ٢٦-٢٨.

٢- (٢) الشورى ٢٣: ٤٣.

٣- (٣) الاحتجاج: ٢: ١٦٥. نظم درر السمطين: ١٢٠.

٤- (٤) البقره ٢: ٢٠٧.

٥- (٥) جوامع الجامع: ٣: ٣٨٨.

هى من الآيات النازله فى علىّ عليه السلام وأصحاب الكساء عليهم السلام، وقد بسطنا القول فى ذلك ثمّه.

الجهه الثانيه: الإيثار وإقامه العدل

ربّما يطرح تساؤل عن أسباب نزول سوره بأكملها فى أصحاب الكساء نتيجة فعل واحد فى حادثه ما، وهو الإيثار فى مورد معيّن، فما هو وجه التأكيد والاهتمام القرآنى بذلك وتعظيمه، وهل هو من الأهمّيّه بمكان بحيث يستحقّ مثل هذا التركيز.

والإجابته على ذلك: أنّ صفه الإيثار التى اهتمت بها السوره هى صفه ضرورىّ توفّرها فى الحاكم كى يتسنى له إقامة العدل فى الأرض، وبدونها يمتنع إرساء قواعد العدل، فالإيثار لا بدّ من توفّره فى الحاكم على صعيد تنظيم القانون والتقنين، فضلاً عن صعيد التطبيق والتنفيذ.

كما أنّ أسباب العدوان والظلم والعداوه فى الأرض هو حبّ النفس الذى هو رأس كلّ خطيئه وهو معلّم طبيعه الحياه الدنيويّه، كما قال تعالى: (اهْبُطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ) (١).

ولا يظنّ ظانّ أنّ الإيثار واقعه ما فى مورد، بل له مواطن ومنازل ودرجات وأنواع، وربّ مؤثر فى مورد حريص طامع فى آخر، أو صاحب إيثار فى درجه لكنّه يتقاصر عنه فى درجه اخرى، إذ لكلّ فضيله من الفضائل أبواب ومنازل ومقامات وعقبات وآفاق تختلف وتتوّع وتتلوّن بحسبها، كما أنّ لها درجات تشتدّ وتضعف بحسبها.

ص: ٢٥٢

فالسورة الشريفة تبين أساس الصلاح والإصلاح والعدل في الأرض يكمن في صفه للحاكم كما أنها ترشد إلى أن أساس الظلم والجور يرجع إلى حبّ النفس والذات. كيف لا والإيثار خلوص وإخلاص من النفس وإخلاص لله، فدرجات الإخلاص مقرونه بدرجات الإيثار، وموتان، وتماوت النفس. وفي قبالتها الظلم والجور يرجع إلى حبّ النفس، وإذا اشتد صار تكبراً وفرعونيه وأدعاء للربوبيه، ولم يرشح القرآن لقصه مقام الإيثار من المصطفين والمنتجبين والمطهرين من الأنبياء والمرسلين والحجج سوى أهل البيت في قوله تعالى: (مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِأَيِّ الْقُرْبَى وَ لِأَيِّ الْيَتَامَى وَ الْمَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَهُ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ) (١).

فعلت الآيه حصر ولايه ثروات الأرض (الفيه) بالله وبرسوله وبذى القربى أنه لأجل استتباب العدل ولئلا تكون الأموال حكرًا على الأغنياء، وفي الآيه ملحمه يشير إليها القرآن، كما تقدّمت الإشارة إليها في سورة الحشر من أن إرساء العدل في الأرض لم ولن ولا يتم إلّا بأهل البيت عليهم السلام، وهذا ما نشهده في تاريخ البشريه والعصر الراهن حيث لم يتم الوصول إلى العدل على صعيد النظرية والتنظير، فما بالك على صعيد التنفيذ، فإنّ كلّاً من الشيوعيه في قبال الرأسماليه، ثم من بعدها الاشتراكيه، وكذلك الليبراليه أو نظام السوق أو التجاره الحرّه، أو غيرها من الأطروحات البشريه لم تستطع إلى حدّ الآن أن تتوصّل إلى تنظير الاقتصاد العادل والقوانين الماليه العادله والسياسه النقديّه ولا- النظام المصرفي ولا التجارى والصناعى ولا الزراعى ولا فى بقيه البيئات والمجالات والأصعده بحيث تقتلع الاقطاع والاستثمار والأثره من على وجه الأرض.

ص: ٢٥٣

فالبشريه عاجزه فى مقام العلم والمعرفه بالقوانين المتكفله للعداله فضلاً عن مقام العمل والأداء، فهو ممّا يتوقّف على إمداد لدنّى إلهىّ فى الجانب العلمىّ والجانب العملىّ.

ومن ثمّ ورد فى سيره أمير المؤمنين عليه السلام فى خلافته، وكذلك ستكون سيره الإمام المهديّ أنّه على الجشّب والتقسّف وخشونه العيش ولباسه الغليظ وطعامه الشعير.

ص: ٢٥٤

مقام أصحاب الأعراف

اشاره

ص: ٢٥٥

(وَ نَادَى أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ وَ بَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَ عَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسَيِّمَاتِهِمْ وَ نَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ وَ إِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَ نَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسَيِّمَاتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَ مَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ أَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَ لَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ وَ نَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ) (١)

١ - مَنْ هُم أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ ؟

قد احتدم البحث بين المفسرين فى معرفه الرجال الذين هم على الأعراف، وما المقصود بالأعراف؟

ص: ٢٥٧

١- (١) الأعراف ٧: ٤٤-٥٠.

و لطائف دلائل الآيات كما تتبّه عليه روايات أهل البيت عليهم السلام تشير بشكل متسق على أنّهم أرفع مقاماً من أصحاب الجنّة، وأنّهم مشرفون مهيمنون على كلّ من الفريقين (أى على أصحاب الجنّة وأصحاب النار)، وأنّهم يداينون كلّاً من الفريقين بالحساب، وأنّ أصحاب الأعراف ولاء الحساب وديانون يوم الدين، وبهم يقام الجزاء لكلّ فريق يوم الجزاء.

و بيان ذلك: أنّ الآيات الشريفة المتقدّمة بمناداه أصحاب الجنّة لأصحاب النار، ثمّ تبيّن الآيات أنّ هناك حجاب بين الفريقين بقريته:

أولاً: وصف الرجال الذين هم على الأعراف أنّهم يعرفون كلّاً من الفريقين بسيماهم، وهذا مقام رفيع، وهو علم التّوسّم، وأصحاب الأعراف هم المتوسّّمون الذين اشير إليهم فى قوله تعالى: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ) (١) ، ومعرفة كلّاً من الفريقين بسيماهم يدلّ على أنّ الرجال الذين هم أصحاب الأعراف هم الشهداء على أعمال الناس، أى أنّ لهم مقام الشهادة الذى اشير إليه فى الآيات العديده المتعرّضه للشهادة على الأعمال، وسيأتى بيان هويّتهم بحسب الآيات الأخرى المشيره إلى أنّهم أهل البيت عليهم السلام.

وثانياً: إنّ فى بيان أنّ المعرفة للفريقين بسيماهم دلالة على أنّ الفريقين لمّا يدخلوا الجنّة والنار، وإلّا لكانت المعرفة بمثوهم لا بسيماهم، أى أنّ هذا المشهد التى تتعرّض له الآيات هو قبل دخول الفريقين إلى الجنّة والنار، أى مع كونهم فى عرصات المحشر، ولا ينافى ذلك قول أصحاب الجنّة لأصحاب النار فى بدايات الآيات: (أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا) ، وذلك لأنّ وجدان الوعد الإلهى حقّاً يتمّ بقيام القيامة والحشر ومشاهده

ص: ٢٥٨

فزع وأهوال ذلك اليوم، كما أنّ الجنّة والنار تشاهدان قبل الدخول إليهما.

وثالثاً: تبين الآيه (٤٦) أنّ أصحاب الأعراف ينادون أصحاب الجنّة ويسلمون عليهم، وهذا ممّا يدلّ على أنّ لأصحاب الأعراف مقام إشراف، لأنّهم يبشرون أصحاب الجنّة بدار السلام، وهى الجنّة.

ورابعاً: قوله تعالى: (لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ) قد وقع أكثر المفسّرين فى غفله فى إرجاع الضمير، حيث أرجعوا الضمير إلى رجال أصحاب الأعراف، والحال أنّ الضمير يرجع إلى الأقرب، وهم أصحاب الجنّة، أى أنّ أصحاب الجنّة لم يدخلوا الجنّة بعد وهم لا زالوا فى أرض المحشر وهم يطمعون فى دخولها.

وكذا قوله تعالى: (وَ إِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) .

وربّما يُعترض بأنّ هذه الآيه (٤٧) دالّة على أنّ أصحاب الجنّة عرفوا أصحاب النار بأنّهم قوم ظالمون، وأنّهم من أصحاب النار، بينما الآيات السابقة تبين ميزه وخصيصه خاصّه بأصحاب الأعراف أنّهم هم الذين يعرفون الفريقين بسيماهم.

والإجابة عن ذلك:

أنّ تخصيص أصحاب الأعراف بتحيّيه أصحاب الجنّة بالسلام عليهم دون أصحاب النار، مع كون أصحاب الأعراف على مكانه عاليه فى ذلك المشهد؛ بشاره وإفصاح بوصف أصحاب الجنّة، وتمييزهم عن أصحاب النار.

خامساً: الآيه (٤٨) من قوله تعالى: (وَ نَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ) تبين أنّ الرجال الذين هم على الأعراف قد عبّر عنهم فى هذه الآيه بأصحاب الأعراف، وأنّهم ينادون مرّه اخرى رجالاً من أصحاب النار، فالمناداه من أصحاب الأعراف لكلا الفريقين إشراف على كلّ أصحاب المحشر، والمناداه لجميعهم تفيد

أن لأصحاب الأعراف مقام المحاسبه والمدايه لكل من فريق أصحاب الجنه فيشروهم بدار السلام، وهو إثابتهم لأصحاب الجنه جزاء أعمالهم، كما أن أصحاب الأعراف يتوعدون رواد أصحاب النار ويقرعون بالعتاب، وأن أصحاب الأعراف يعرفون اولئك الرجال بسيماهم، كما مرّ نعت أصحاب الأعراف بذلك في الآيه (٤٦).

سادساً: فيقول أصحاب الأعراف لأولئك الرجال من أصحاب النار (ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون)، وهذه مقاله من أصحاب الأعراف لرواد أصحاب النار هي محاسبه ومدايه منهم لأصحاب النار.

ويظهر أن أصحاب الأعراف يخاطبون بهذا المقال أئمه الضلاله أو الكفر.

سابعاً: تبين هذه الآيه أن أصحاب الأعراف هم الشهداء على أعمال الخلق لمعرفةهم بأعمالهم.

ثامناً: تتابع أصحاب الأعراف قولهم للرجال الذين هم أئمه الضلاله أو الكفر مخاطبين إياهم: (أ هؤلاء الذين أفسيتم) والمشار إليهم في هؤلاء هم أصحاب الجنه، والمشير هم أصحاب الأعراف، والمخاطب هم أئمه الضلاله أو الكفر، أى فيقول أصحاب الأعراف مخاطبين أصحاب النار: (أ هؤلاء) أى أصحاب الجنه (الذين أفسيتم) أنتم أئمه الضلاله والكفر (لا ينالهم) لا ينال الله أصحاب الجنه الذين كانوا مستضعفين فى الدنيا، (الله برحمه).

تاسعاً: تتابع الآيه إيدان أصحاب الأعراف وإعطاءهم الإذن لأصحاب الجنه بدخول الجنه، قولهم لهم (ادخلوا الجنه لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون)، وهذا مما يبين أن أصحاب الأعراف هم ولاه إقامه الحساب الموكلين على ذلك من قبل الله تعالى، كما أنهم ولاه الجنه يأذنون لأصحاب الجنه بدخولها، كما أنهم

يعاتبون ويقرّعون أئمة الضلال والكفر، وهذا يدلّ على تمكينهم مقام المحاسبه والمجازاه، ويوكل إليهم منه تعالى مقام ديان يوم الدين بإذن منه تعالى وإقدار لهم على ذلك.

عاشراً: كما أنّ التعبير المتقدم في الآيه (وَ عَلَي الْأَعْرَافِ رِجَالٌ) بورود لفظ (وَ عَلَي) التي هي للعلو والإشراف، يفيد إعطاءهم المعرفة بأعمال الخلاق ولمقام الشهاده على الخلق وعلى أعمالهم، وأنهم المعنيون بقوله تعالى:

(لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً) (١)، ثم تتابع الآيات (٥٠) نداء أصحاب النار أصحاب الجنه بعد دخولهم الجنه، فيطلبون منهم أن يفيضوا عليهم من الماء وممّا رزقهم الله من النعيم في الجنه فيجيبهم أصحاب الجنه (إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ).

٢ - أصحاب الأعراف: أصحاب المعرفة، وهم أهل البيت عليهم السلام

فقد ورد في الروايات عنهم عليهم السلام كما في «تفسير القمّي» و «الكافي» و «معاني الأخبار» أنّ المؤذن بين الفريقين هو علي عليه السلام، بل روى ذلك في مصادر العامه (٢)، كما ورد في مستفيض الروايات أنّهم الرجال الذين على الأعراف يعرفون كلّا بسيماهم، وأنهم الأعراف الذين يعرفون أنصارهم بسيماهم، وأنهم الأعراف الذين لا يعرف الله عزّ وجلّ إلا بسبيل معرفتهم.

فقد روى في «الكافي» عن مقرن، قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: جاء

ص: ٢٤١

١- (١) البقره ٢: ١٤٣.

٢- (٢) تفسير القمّي: ١: ٢٣١. الكافي: ١: ٤٢٦، الحديث ٧٠. معاني الأخبار: ٥٩، الحديث ٩. شواهد التنزيل: ١: ٢٦٧، الحديث ٢٤١-٢٤٣.

ابن الكوّاء إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: يا أمير المؤمنين، (وَ عَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كَلًّا بِسِيْمَاهُمْ) ، فقال: نحن على الأعراف، ونحن نعرف أنصارنا بسيماهم، ونحن الأعراف الذين لا يُعرف الله عزّ وجلّ إلاّ بسبيل معرفتنا، ونحن الأعراف يوقفنا الله عزّ وجلّ يوم القيامة يوم الصراط، فلا يدخل الجنّة إلّا من عرفنا وعرفناه، ولا يدخل النار إلّا من أنكرنا وأنكرناه.

إنّ الله تبارك وتعالى لو شاء لعرف الناس نفسه حتّى يعرفوا حدّه، ويأتوه من بابه، ولكنّه جعلنا أبوابه وصراطه وسبيله وبابه الذى يؤتى منه، فمن عدل عن ولايتنا أو فضل علينا غيرنا، فهم على الصراط لناكبون، فلا سواء من اعتصم الناس به ولا سواء حيث ذهب الناس إلى عيون كدره يفرع بعضها فى بعض، وذهب من ذهب إلينا إلى عيون صافيه تجرى بأمر ربّها، لا- نفاذ لها ولا انقطاع»(١).

وفى هذا الحديث أشار عليه السلام إلى ثلاثه معانى للأعراف:

١ - ما فى ظاهر الآيه الكريمه من معرفتهم عليهم السلام لأنصارهم.

٢ - كونهم من معالم الطريق إلى معرفه الله عزّ وجلّ.

٣ - كونهم من معالم الطريق والصراط إلى الآخره.

وهذا المعنى الثالث يستشفّ من آيات الأعراف، وبمضمون هذا الحديث جملة أحاديث اخرى، ذكرها فى «تفسير البرهان» فى ذيل الآيه، فلاحظ.

ويشير إلى المعنى الثانى ما فى نفس السوره من الآيه (٤٠) من قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ) ، وقد مرّ تفصيل

ص: ٢٤٢

مفاد الآيه، وأن المراد بهذه الآيات التي هي أبواب السماء الحضرة الإلهية هم حجج الله، فهم أبواب معرفته تعالى، وهم حجج الله على البلايا، وهم الذين لا يدخل أحد الجنة إلا بتصدقهم ومعرفتهم وطاعتهم والتولّى لهم، فتطابق الآيه آيات (وَ عَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كَلًّا بِسِيمَاهُمْ) فى المعنى الثانى والثالث، وقد روى الشيبانى فى تفسيره عن أبى جعفر محمّد بن على بن الحسين عليهم السلام:

«الرجال هاهنا الأئمة عليهم السلام يكونون على الأعراف حول النبى صلى الله عليه وآله يعرفون المؤمنين بسيماهم فيدخلون الجنة كل من عرفهم وعرفوه، ويدخلوه النار كل من أنكرهم وأنكروه» (١).

وفى هذه الروايه إشاره إلى أنّ رئيس مجموعه أصحاب الأعراف، والذى يشرف عليهم، هو سيّد الأنبياء، وسيأتى فى آيات الشهاده على الأعمال تطابقها مع آيات أصحاب الأعراف، وأنّ الشاهد على الشهداء على أعمال الخلائق هو رسول الله صلى الله عليه وآله.

قال فى «لسان العرب»: «عريف القوم: سيدهم، والعريف: القيم والسيّد لمعرفته بسياسه القوم، والعريف: النقيب، والجمع عرفاء. وعن ابن عباس:

أهل القرآن عرفاء أهل الجنة» (٢).

وقال فى «مفردات الراغب»: «والعريف بمن يعرف الناس ويعرفهم، قال الشاعر: (بعثوا إلى عريفهم يتوسّم)» (٣).

وفى «اللسان» أيضاً: «وعرف الرمل والجبل وكلّ عال، ظهره وأعالیه،

ص: ٢٤٣

١- (١) عن نهج البيان للشيبانى، فى غايه المرام: ٤٦: ٤، الحديث ٨.

٢- (٢) لسان العرب: ٩: ٢٣٨.

٣- (٣) مفردات غريب القرآن: ٣٣٢.

والجمع أعراف، وقوله تعالى: (وَ عَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ)، الأعراف فى اللغة جمع عرف، وهو كل عالٍ مرتفع. قال الزجاج: الأعراف أعالى السور،... قال:

ويجوز أن يكون معناه - والله أعلم - : على الأعراف على معرفه أهل الجنه وأهل النار هؤلاء الرجال... وقيل: أصحاب الأعراف أنبياء، وقيل: ملائكه، ومعرفتهم كلاً بسماهم أنهم يعرفون أصحاب الجنه بأن سماهم إسفار الوجوه والضحك والاستبشار كما قال تعالى: (وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّشْفَرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ) ويعرفون أصحاب النار بسماهم، وسماهم سواد الوجوه وغبرتها... والعرف: الرمل المرتفع»(١).

فيلاحظ من كلمات اللغويون أن مادّه الأعراف معنى متّصل بالمعرفه وبالمقام العالى، وهذا هو الذى ترشد إليه الآيه من قوله تعالى: (وَ عَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ) .

وقد مرّ أنّ أصحاب الأعراف بحسب الآيات المتقدّمه يعرفون أعمال أصحاب الجنه كما يعرفون أعمال أصحاب النار.

٣ - من مقومات الإمامه: الشهاده على الأعمال ومقام الأعراف

وقد عبّر عن مقام معرفه أعمال العباد فى طوائف الآيات القرآنيه الأخرى بمقام الشهاده على أعمال العباد، وأفصح عنهم أنّ رئيسهم النبى صلى الله عليه و آله ومن بعده أهل بيته، كما فى قوله تعالى: (وَ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ) (٢).

ص: ٢٤٤

١- (١) لسان العرب: ٩: ٢٤١ و ٢٤٢.

٢- (٢) النحل: ١٦: ٨٩.

وقوله تعالى: (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا) (١)، فهاتان الآيتان وغيرهما تفصح عن أن الشهيد والرئيس على شهداء الأعمال هو سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله، وكذا قوله تعالى: (هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَ مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِثْلَهُ أَيْ كُنتُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَ فِي هَذَا لِيُكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) (٢).

وفي هذه الآية تصريح بأن الشهداء على جميع الناس هم من هذه الأمة الإسلامية من نسل إبراهيم وإسماعيل، أي هم الذين اشير إليهم في سورة البقرة في قوله تعالى - على لسان إبراهيم وإسماعيل -: (وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَ اجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَ أَرِنَا مَنَاسِكَانَا وَ تَبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يَزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (٣).

(وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَ يُكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) (٤).

فهذه الأمة المسلمة التي هي بعض ذريته إبراهيم وإسماعيل هي التي سماهم إبراهيم عليه السلام بالمسلمين، وهم مجتوبون (أي مصطفون)، وهم الشهداء على الناس

ص: ٢٤٥

١- (١) النساء ٤: ٤١.

٢- (٢) الحج ٢٢: ٧٨.

٣- (٣) البقرة ٢: ١٢٧-١٢٩.

٤- (٤) البقرة ٢: ١٤٣.

والرسول عليهم شهيداً (أى هم الذين دعا فى شأنهم إبراهيم عندما قال له تعالى:

(إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) (١)، وهم الذين دعا فى شأنهم النبى إبراهيم أن يبعث سيد الأنبياء فيهم ويعلمهم الكتاب كله والحكمه ويزكيهم، فهم من ذريه إبراهيم وإسماعيل وعلى صله بخاتم الأنبياء، كما يشير إليه قوله تعالى: (وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) (٢)، فهم امه من ذريه إبراهيم وإسماعيل لا كل ذريه إسماعيل وكل قريش، فهم المعتبون بقوله تعالى فى سياق تلك الآيات، (وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسِيَّطًا لِتُكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) ، أى التى فى قول إبراهيم وإسماعيل (وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ) .

ومما يؤكد أن المراد من (المجتبون) من ذريه إسماعيل الذين دعا إبراهيم أن تكون الإمامه فيهم أيضاً، وهم من قريبي سيد الأنبياء، والذين أُنذروهم بالإنذار الخاص دون الإنذار العام عامه البشريه.

ومما يفصح عن كون الأئمه الوسط الذين هم الشهداء على الناس وعلى أعمالهم هم أهل البيت عليهم السلام ما تفيده آيه التطهير (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَ كُمْ تَطْهِيرًا) (٣) ، وسوره الواقعه من قوله تعالى:

(إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) (٤) ، حيث أن مسهم واطلاعهم على الكتاب المكنون فى اللوح المحفوظ وهو الكتاب المبين الذى يستطر فيه كل شىء، فما من غائبه فى السماء ولا أكبر ولا أصغر إلأفيه، ومن

ص: ٢٤٤

١- (١) البقره ٢: ١٢٤.

٢- (٢) الشعراء ٢٦: ٢١٤.

٣- (٣) الأحزاب ٣٣: ٣٣.

٤- (٤) الواقعه ٥٦: ٧٧-٧٩.

ثمّ وتوسّط علمهم بالكتاب المبين يعلمون صحائف أعمال العباد، ويكونون هم المعتبون في قوله تعالى: (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ) (١)، فسوره الحَجَّ بَيّنَت أَنَّ الشّهَاءَ عَلَى النَّاسِ هُم مِّن نَّسْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ مِّن ذُرِّيَّتِهِمَا وَقَدْ سَمَّاهُم إِبْرَاهِيمَ بِالْأُمَّةِ الْمَسْلَمَةِ، أَى دَعَا لَهُمْ بِذَلِكَ وَهُمْ الْمَجْتَبُونَ مِّن قِبَلِ اللَّهِ تَعَالَى.

وفى سورة البقره بيّنَت أَنَّ هَذِهِ الذَّرِيَّةَ وَالْأُمَّةَ الْمَسْلَمَةَ قَدْ دَعَا النَّبِيُّ إِبْرَاهِيمَ أَنْ يَبْعَثَ فِيهِمْ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ لِيَعْلَمَهُم الْكِتَابَ كُلَّهُ، وَهُمْ بَعْضُ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ لَا كُلَّهُمْ، وَأَنَّ هُم الَّذِينَ دَعَا النَّبِيُّ إِبْرَاهِيمَ فِي حَقِّهِمْ أَنْ تَكُونَ فِيهِمُ الْإِمَامَةُ بَاقِيَةً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وقد وصف الإمام فى سورة ياسين: إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ (٢)، والمهيمن عليهم هو خاتم النبيين.

ومِمَّا يَجْدُرُ الْإِتِّفَاتُ إِلَيْهِ أَنَّ أَصْحَابَ الْأَعْرَافِ وَهُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ وَزَعِيمَهُمْ سَيِّدَ الْأَنْبِيَاءِ (صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ) قَدْ نَعَتَهُمْ سُورَةُ الْأَعْرَافِ أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ وَأَصْحَابَ النَّارِ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، بَلْ مَقْتَضَى شَهَادَتِهِمْ عَلَى النَّاسِ أَجْمَعِينَ أَنَّهُمْ شَاهِدُونَ وَحَاضِرُونَ عِنْدَ أَعْمَالِ الْخَلَائِقِ مِّنْ أَوَّلِ الدُّنْيَا إِلَى آخِرِهَا، لَا بِحَضُورِ أَيْدَانِهِمُ الشَّرِيفَةِ الْمَخْلُوقَةِ مِنَ الْوِلَادَةِ، بَلْ بِمَرَاتِبِ وَجُودِهِمُ الْعُلُويَّةِ، كَمَا وَرَدَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «كُنْتُ نَبِيًّا وَآدَمَ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطِّينِ» (٣).

ص: ٢٤٧

١- (١) التوبه ٩: ١٠٥.

٢- (٢) يس ٣٦: ١٢.

٣- (٣) شرح الأسماء الحسنی للسبزواری: ٢٠٣. مفتاح الغیب لأبى المعالى القونوی: ١١٠.

ويشير إلى ذلك قوله تعالى في سورة النحل المتقدّمه الآية (٨٩)، حيث يكون الرسول صلى الله عليه وآله شاهداً على كلّ شاهد من كلّ أمة من الأمم، أى جميع الأمم من الأوّلين والآخريين.

وكذا ما فى سورة النساء (٤١)، ومقتضى كونه صلى الله عليه وآله شاهداً على الشهداء أنّه تحمّل تلك الشهادة فى مشهد الأعمال، كما أنّ إطلاق الناس فى قوله: (لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ)، والآية (٧٨) من سورة الحجّ (وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) ، كما أنّ ذلك مقتضى مسّهم الكتاب كلّ الذى يستطر فيه كلّ شىء، فتحصّل من مجموع هذه الآيات أنّ الإمام هو الذى يحصى الله تعالى فيه العلم والمعرفة بأعمال جميع العباد، ومن ثمّ يكون صاحب الأعراف يعرف كلّ فريق بسماهم وهو مقام الشهادة على أعمال العباد.

٤ - النبى صلى الله عليه وآله إمام الأئمّه

ويدلّ على ذلك الآيات المتقدّمه الدالّه على أنّ النبى صلى الله عليه وآله شاهد على الأَشهاد وعلى جميع الشهداء على أعمال العباد، ومقام الشهادة قد مرّ أنّه مقام الإمامه.

ويظهر من قوله تعالى: (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) (١).

(إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا) (٢)، إنّ مقام إمامه النبى صلى الله عليه وآله مقدّم على رسالته ونبوته، كما أنّ مقام إمامته مقدّم على مقام إمامه أهل بيته، فضلاً عن جميع الأنبياء والرسل، ومن ثمّ كان صلى الله عليه وآله شاهداً

ص: ٢٤٨

١- (١) الأحزاب ٣٣:٤٥. الفتح ٤٧:٨.

٢- (٢) المزمل ٧٣:١٥.

على أهل بيته، وأهل بيته شهداء على الناس، كما أنه صلى الله عليه و آله شاهداً على جميع الشهداء على جميع الأمم.

٥ - أهل البيت الحكام وولاه الحساب يوم الدين بإذن الله

إشارة

أولاً: يدل على ذلك إسهادهم أعمال العباد، كما في آيات الشهادة المتقدمة، إذ لا يفصل الحساب إلباقامه الشهاده، ويشير إليه قوله تعالى: (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) (١)، فسَمى يوم الحساب يوم الأشهاد تنبيهاً على أهميته إقامه الشهاده فى الحساب.

وكذا قوله تعالى: (أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَ يَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) (٢).

ثانياً: وكذلك ما ورد من الآيات أنه لا- تحاسب أى أمه يوم القيامة إلبمجيء الحجة التى اصطفها الله عليهم من بينهم، إماماً كان أو رسولاً، كقوله تعالى:

(يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ) (٣)، أى كل أمه تدعى إلى حسابها بإمامها الذى جعله الله حجة.

وقوله تعالى: (وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَّسُولُهُمْ قُضِيَ بِآيَاتِهِمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ) (٤)، ولعل المراد بالرسول هنا ليس خصوص النبى والرسول، وإنما مطلق من انتدب إلى مأموريه إلهيه من قبل الله تعالى.

ثالثاً: ما فى آيات الأعراف من معرفه أصحاب الأعراف، وقد تقدم فى الدلالة

ص: ٢٦٩

١- (١) غافر ٤٠:٥١.

٢- (٢) هود ١١:١٨.

٣- (٣) الإسراء ١٧:٧١.

٤- (٤) يونس ١٠:٤٧.

القرآنيّ به بأنهم أهل البيت عليهم السلام لكلّ وجميع أصحاب الجنّة وأصحاب النار، ثمّ أعطائهم البشاره لأصحاب الجنّة (أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) .

ثمّ عتابهم وتقريعهم رواد أصحاب النار: (ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تتكبرون) ، وهو نمط من الحساب والمدايه، ثمّ إذنهم لأصحاب الجنّة بدخول الجنّة (ادخلوا الجنّة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون) .

كما أنّ نعتهم بأنهم (على الأعراف) أى مقام هيمنه وإشراف، وأنّ نعتهم (يعرفون كلّاً بسيمائهم) ، أى يعرفون صحائف أعمال البشر وما آلت إليه مصائرهم نتاجاً لأعمالهم، وقد خصّصت آيات الأعراف هذه المعرفه فى ذلك بهم دون غيرهم، وقد تقدّم أنّ الأعراف بحسب اللغه هى علو المكان والمقام.

كما أنّ مناداه أصحاب الأعراف لكلا الفريقين إشراف على جميع أصحاب المحشر للدلاله على أنّ لهم مقام المحاسبه والمدايه لكلّ من فريق أصحاب الجنّة، فيبشروهم، ولأصحاب النار فيقرّعوهم.

كما أنّ التعبير فى قوله تعالى: (فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ) ، أى بين الفريقين: فريق الجنّة والنار، أى ينادى هذا المنادى بين الفريقين: (أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ) .

فحيث وصف أنّ هذا المؤذّن هو بين الفريقين، أى هو من الفريق الثالث، وهم أصحاب الأعراف، كما صرّحت الآيات اللاحقه بعتاب أصحاب الأعراف لرواد أصحاب النار بنفس النبره واللحن، وكلّ هذه التصرفات والشؤون المذكوره لأصحاب الأعراف هى من موقع المحاسب وولى المدايه، فهم مظهر ديان يوم الدين، ضابطه أسماء الأفعال الإلهيه ونعوتها إلى ولاته وأوليائه، وهذا على وتيره نعت الله تعالى للمحيى والمميت، وأنّ (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالتَّى

لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا (١) ، ومع ذلك قد أسندت الإمامه إلى ملك الموت، فقال تعالى: (قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ (٢)).

وكذلك أسندت الإمامه إلى الملائكة أعوان (فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ) (٣) ، (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ) (٤) ، (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا) (٥).

وغيرها من الآيات (النحل: ١٦، ٢٨، ٣٢).

فأسند الموت تاره إلى الله تعالى، فهو إسناد بالذات، وأسند إلى ملك الموت، أى بإقذار من الله تعالى، وكما اسند إلى أعوان الملك عزرائيل، أى بإقذار من الله وإشراف من ملك الموت، كذلك الحال فى الإحياء، كقوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) (٦).

وقوله تعالى: (هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (٧).

وقوله تعالى: (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) (٨).

ص: ٢٧١

١- (١) الزمر ٣٩:٤٢.

٢- (٢) السجده ٣٢:١١.

٣- (٣) محمد صلى الله عليه وآله ٤٧:٢٧.

٤- (٤) النساء ٤:٩٧.

٥- (٥) الأنعام ٦:٦١.

٦- (٦) الحج ٢٢:٦٦.

٧- (٧) غافر ٤٠:٦٨.

٨- (٨) الحجر ١٥:٢٩. ص ٣٨:٧٢.

وقوله تعالى: (وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ) (١).

وقوله تعالى: (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفَحَهُ وَاحِدَةً) (٢)، والنافخ في الصور هو إسرئيل بإذن الله وأمر منه تعالى.

وقوله تعالى في شأن عيسى: (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ادْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَ عَلَيَّ وَالْإِيمَانُ بِأَيْدِيكَ إِذْ أَنزَلْنَاكَ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلًا وَ إِذْ عَلَّمْتِكَ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ إِذْ تَخَلَّقْنَا مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي) (٣).

ونظيرها في المفاد: (وَ رَسُولًا- إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَانْفُخْ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُبْرِئُ الْمَأْكُمَةَ وَ الْمَأْبْرَصَ وَ أُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُبَيِّنُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَ مَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (٤).

فأسند نفخ الروح في الموجد الحي تاره إليه تعالى، وأخرى إلى إسرئيل، وتاره إلى النبي عيسى في بعض الموارد، والإسناد إليه تعالى بالأصالة، وأما الإسناد إلى إسرئيل وإلى النبي عيسى عليه السلام فهو بالتبع، وإقذار وإذن من الله تعالى، وكذلك عنوان الخلق كقوله تعالى: (هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ) (٥).

ص: ٢٧٢

١- (١) النمل ٢٧: ٨٧.

٢- (٢) الحاقه ٦٩: ١٣.

٣- (٣) المائدة ٥: ١١٠.

٤- (٤) آل عمران ٣: ٤٩.

٥- (٥) الحشر ٥٩: ٢٤.

وقوله تعالى: (وَ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ) (١).

وقوله تعالى: (وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا) (٢)، وفي هذه الآيات فعل الخلق إليه تعالى.

وقوله تعالى: (أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمَلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ) (٣)، فأسند الخلق للأنعام فى الآيه إلى الأيدى الإلهية التى هى الأعوان الموكله بذلك.

وقوله تعالى: (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى * وَ الَّذِي قَدَّرَ فَنَهَى) (٤)، وأسند الخلق فى الآيه إلى الاسم الإلهى الذى هو مملوك للذات الإلهية.

وكذلك فعل الوحى، كما فى قوله تعالى: (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبَاطِ) (٥).

وقوله تعالى: (وَ أَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبَاطِ وَ عِيسَى وَ أَيُّوبَ وَ يُونُسَ وَ هَارُونَ وَ سُلَيْمَانَ وَ آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا) (٦).

ص: ٢٧٣

١- (١) النور ٢٤:٤٥.

٢- (٢) الفرقان ٢٥:٢.

٣- (٣) يس ٣٦:٧١.

٤- (٤) الأعلى ١٧:١-٣.

٥- (٥) النساء ٤:١٦٣.

٦- (٦) النساء ٤:١٦٣.

وقوله تعالى: (ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ) (١).

وقوله تعالى: (فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى) (٢)، فأسند تعالى الوحي إلى الضمير المفرد الغائب، العائد إلى الذات الإلهية، وأخرى إلى اسم الرب، وثالثه إلى الضمير المتكلم الجماعه.

وقوله تعالى: (كَذَلِكَ يُوحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (٣)، فأسند الوحي هنا إلى اسم الجلاله.

وقوله تعالى: (وَ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ مُبِينٍ) (٤)، فأسند الوحي هنا إلى الرسول الملك الذي يوحى إلى البشر من نبي أو صفى كريم.

وقوله تعالى: (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ) (٥)، فأسند القرآن كله إلى قول جبرئيل في التنزيل الثانى النجومى للقرآن.

ففاعل الوحي مع أنه من أعظم الأفعال الإلهية يُسند إلى الذات الإلهية بالأصالة، وإلى الوسائط الإلهية من روح القدس أو ملك بالتبع ثانياً.

ومثله قوله تعالى: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ) (٦).

وبالجملة: فأنماط وأقسام الوحي عديده جداً أشارت إليها روايات أهل بيت

ص: ٢٧٤

١- (١) الإسراء ١٧: ٣٩.

٢- (٢) النجم ٥٣: ٩ و ١٠.

٣- (٣) الشورى ٤٢: ٣.

٤- (٤) الشورى ٤٢: ٥١.

٥- (٥) التكوير ٨١: ١٩-٢١.

٦- (٦) الشعراء ٢٦: ١٩٣ و ١٩٤.

العصمه بحسب البيانات القرآنيه فى السور المختلفه.

وكذلك فى فعل العذاب الإلهى، كقوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْتَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبَالْمُرْصَادِ) (١).

وقوله تعالى: (إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيَعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ) (٢).

وقوله تعالى فى شأن قوم لوط، ولقاء النبى إبراهيم مع جبرئيل عليهما السلام وبقية الملائكه الذين ارسلوا إلى إنزال العذاب على قوم لوط: (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ * مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ) (٣).

وقوله تعالى: (خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) (٤).

وقوله تعالى: (الْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُّعْتَدٍ مُّرِيبٍ) (٥)، فأسند العذاب إلى الملائكه وإلى جبرئيل بالتبع ثانیه، كما أسند إلى الله بالذات وبالأصالة.

وكذلك فعل التدبير والرزق، فقال تعالى: (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) (٦).

ص: ٢٧٥

١- (١) الفجر ٨٩:٦-١٤.

٢- (٢) الغاشيه ٨٨:٢٣ و ٢٤.

٣- (٣) الذاريات ٥١:٣١-٣٣.

٤- (٤) الدخان ٤٤:٤٧-٤٩.

٥- (٥) ق ٥٠:٢٤ و ٢٥.

٦- (٦) السجده ٣٢:٥.

وقوله تعالى: (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ) (١).

وقوله تعالى: (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ) (٢).

وقوله تعالى: (وَ السَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا) (٣).

وقوله تعالى: (وَ الذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا * فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا * فَالْمُقَسَّمَاتِ أَمْرًا) (٤)، فإن التدبير اسند تاره إلى الله بالذات والأصالة، وإلى الملائكة بالتبع ثانياً.

وكذلك الرزق وأفعال الرزق من الذرو وحمل ماء المطر، وتقسيم الأمر.

وكذلك الشفاء من المرض في قوله تعالى: (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) (٥).

وقوله تعالى خطاباً لعيسى عليه السلام: (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخَلَّقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفَخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي) (٦)، فأسند تعالى الشفاء من

ص: ٢٧٦

١- (١) يونس ١٠:٣.

٢- (٢) يونس ١٠:٣١.

٣- (٣) النازعات ٧٩:٣-٥.

٤- (٤) الذاريات ٥١:١-٤.

٥- (٥) الشعراء ٢٦:٧٨-٨٠.

٦- (٦) المائدة ٥:١١٠.

المرض إليه بالذات وبالأصالة، وأسند إلى النبي عيسى عليه السلام بالتبع ثانياً.

فالقاعده في إسناد الأفعال الإلهية إلى الذات المقدسه أنّ ذلك الإسناد قد قرّر في القرآن الكريم على أنماط متعدده، أى تارة إلى الذات الإلهية، وأخرى إلى الوسائط من جنود الله في السماوات والأرض، والفاعل الحقيقي هو الله، والوسائط هي أدوات الفعل الإلهي وهي التي تباشر الفعل، فإنّ نزع الروح - مثلاً - يكون هناك ارتباط بين الروح النازعه والروح المنتزعه، والباري تعالى منزّه عن الاحتياج إلى مثل هذا الارتباط، وإنّما الذي يحتاج إلى مثل هذا الارتباط هو الذي يكون بعيداً.

وفي الحقيقة أنّ هذه الوسائط التي هي أدوات ومجرى للفعل الإلهي، أصل وجودها من الباري تعالى وقائم به، كما أنّ القدره على الفعل التي تتمتع بها تلك الوسائط هي بالإضافة منه تعالى بدءاً واستمراراً، فهو أقدر منها على تلك القدره التي أعطها إيّاها، فمن ثمّ حقّ أن يقال: إنّ تلك الوسائط ما هي إلّا مجرى لتلك الأفعال الصادره منه تعالى، وهو معنى أنّها تفعل أفعالها بإذن الله.

وكذلك الحال في الحساب والقضاء والحكم يوم الدين، فإنّ تعالى ليس بجسم ولا جسماني، ولا بروح ولا روحاني، ولا بنفس ولا نفساني، ولا بعقل ولا متعلّق، فلا يباشر ما تباشره الأجسام، ولا يتعلّق بما تتعلّق به النفوس، ولا يرتبط بما ترتبط به الأرواح، ولا يتقيّد بما تتقيّد به العقول، إذ أنّ هذه الموجودات تحتاج إلى هذه الملابس واللوابس في أفعالها، وهو تعالى لا يتّصف بالنقص والحاجه، غنيّ بذاته، فلا يتوهّم واهم أنّ هناك بقعه جغرافيه وموقع مكانيّ في ساحه الحشر يتّجه إليها أهل المحشر كي يقام عليهم الحساب بتباشر الله معهم، فإنّ الباري تعالى لا يحده حدّ، ولا يُحاط بمكان، جلّ عمّا

يقوله الظالمون، فهو تعالى لا يُكْتَنه ولا يُجِبُه ولا يواجِه ولا يحسّ ولا يمسّ ولا يُجسّ، فلا تصدر تلك الأفعال ولا تظهر إلهيها بيد الوسائط الإلهية، فهم مظهر تلك الأفعال الصادره من الساحة الإلهية، وتلك الوسائط آيات ربّانية تتجلّى منها تلك الأفعال الإلهية.

ومن ثمّ كان عيسى بن مريم وأمه آية، فكيف بمن هو أعظم، ويقع الوهم كثيراً حيث يقتصر في تنزيه الساحة الإلهية عن تباشير الأفعال الماديّة المرتبطة بالحسّ دون الأفعال الروحيّة أو العقليّة ذات العلائق والقيود النفسانيّة أو اللوالبس العقليّة، مع أنّ تنزيهه تعالى عن التلبس والتعلّق بها هو على حدو تنزيهه عن التباشير بالأفعال الماديّة، بينما يتوهم الكثير أنّ الأفعال العقليّة أو الروحيّة أو النفسانيّة لا يوجد غضاضه في نسبتها نسبة مباشره إليه تعالى.

بينما الباري هو أكمل ومنزّه من الاحتياج إلى التباشير في إصدار هذه الأفعال وصدورها عنه، وإنّما يفتقر إلى التباشير تلك الوسائط التي يسند إليها الفعل بنسبه عقليّة ما أو نسبه روحيّة أو نسبه نفسانيّة حيث تفتقر إلى ذلك الإعداد في إيجاد الأفعال.

بل هناك من مراتب التنزيه في الأفعال تدقّ لطافه، وإنّما تسند إلى الأسماء بنسب اسمائيه ترفع الذات الأزليّه عن التقيّد بتلك النسب وشرحها له مقام آخر.

أصحاب الأعراف أئمة أصحاب الجنّة، والمستكبرون في الأرض أئمة أصحاب النار

وذلك في قوله تعالى: (وَ نَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَ مَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ * أَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ

بِرَحْمِهِ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (١).

وقد تقدّم شرح للآيتين، وأنّ أصحاب الأعراف يعرفون رواد أصحاب النار بسيماهم، ويخاطبونهم ويقرّعونهم بالعتاب بما تقدّم من أعمالهم، ويظهر من وصفهم، أنّ أصحاب الأعراف يخاطبون جماعه خاصّه من أصحاب النار لهم الرياده والقياده لأصحاب النار، وأنهم كانوا أصحاب جمع وجماعه، وعدد وعيده، وكانوا مستكبرين فى الأرض (أى أصحاب سلطه وسلطان، وقدره واقتدار) فى قبال أصحاب الجنّه، بمقتضى المقابله أنّهم كانوا مستضعفون ومضطهدون فى الأرض، ومغلوبون على أمرهم، وهذا معلّم مهمّ لفريق أهل النار وفريق أهل الجنّه، وأنّ أصحاب الأعراف هم أئمه المضطهدين، وهكذا كانت سيره أهل البيت عليهم السلام، فما منهم إمامقتول أو مسموم، وقد ازعجوا عن حقّهم، ودفعوا عن مقامهم، وشرّدوا عن أوطانهم، ولو حقّ أتباعهم وشيعتهم.

وقد مرّ أنّ أصحاب الأعراف المهيمين على الحساب، يخاطبون قاده أهل النار بقولهم: أ هُوَ لَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ مشيرين بذلك إلى أصحاب الجنّه، أى يخاطبون بهذا الكلام قاده أهل النار فى حال الإشاره لأصحاب الجنّه و توصيفهم بذكر ما قد قاله أهل النار عنهم بذلك فى دار الدنيا.

ص: ٢٧٩

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (١)

إمامه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله

وهذه الآية قد وردت أيضاً في سورة الفتح الآية ٨، كما ورد قريباً منها ما في سورة المزمل الآية ١٥، وفي هذه الآيات تبيان في أنّ المقام الأول الذي بعث به النبي صلى الله عليه وآله هو مقام الإمامه، لأنّ مقام الشهاده ممّا يرتبط بشؤون الإمامه بخلاف مقام البشاره والنداره، فإنّهما مرتبطان بمقام النبوه، وقد اشير إلى ذلك في آيات عديده.

منها: (وَيَوْمَ نَبَعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ) (٢).

ومنها: (هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَ مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَ فِي هَذَا لِيُكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَدَاءَ

ص: ٢٨٣

١- (١) الأحزاب ٣٣: ٤٥ و ٤٦.

٢- (٢) النحل ١٦: ٨٩.

وغيرها من الآيات فى السور الأخرى التى ذكرت هذا الوصف والمقام لرسول الله صلى الله عليه وآله، وبأنه شاهد على جميع الشهداء، وهو نظير ما فى قوله تعالى:

(وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ) (٢)، فهى شهادة على الأعمال لجميع الخلق.

أمّا ارتباط مقام الشهادة على الأعمال بالإمامه لا بالنبوه، فلأنّ تعريف النبوه هو فى الهدايه الإرائيه، أى التى تتكفل البيان وإراءه الطريق، ومن ثمّ تسمى بالنداره والبخاره والإخبار عمّا سيقع.

أمّا الإمامه، فهى سلوك وحركه وأتباع من المأموم والإمام، فتكون الهدايه فى الإمامه إيصاليه، أى يأخذ بيد المأموم ويوصله إلى المطلوب، فالأعمال وسيرها كسلوك قاصد إلى الغايه والغايات، فهو ممّا يرتبط بالإمامه والهدايه الإيصاليه، وهو ما بيّن فى قوله تعالى: (إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) (٣).

وليس المراد من هذه المقابله نفى مطلق الهدايه للنداره والنبوه، كيف والحال أنّ النداره تتضمن الإراءه للطريق المطلوب والتحذير من جهنم والدعوه إلى النجاه والجنان، بل هذه الآيه المتضمنه للمقابله تقتضى التقابل والتغاير بين الهدايه الإرائيه والهدايه الإيصاليه المعتضده بقربنه السياق، حيث أنّ فى صدر الآيه الحديث عن تحقّق الإيمان والاستجابه العمليه من الكفار ممّا هو مرتبط بالسلوك والأعمال والسير نحو المطلوب الذى هو متّصل بشؤون الإمامه.

١- (١) الحجّ ٢٥:٧٨.

٢- (٢) التوبه ٩:١٠٥.

٣- (٣) الرعد ١٣:٧.

ولا- تدافع بين آيه الرعد وما ذكرناه من الآيات الأخر التي تبين مقام الإمامه للرسول صلى الله عليه وآله، وهو من الهدايه الإيصاليه، فقد يتوهم أنه كيف تنفى آيه الرعد ذلك المقام عنه صلى الله عليه وآله.

ووجه الدفع لهذا التوهم والتنافي أنّ آيه الرعد فى صدد بيان مسؤوليه وشؤون النبوه، والفرق بينها وبين مسؤوليه وشؤون الإمامه ردّاً على اقتراح الكافرين أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لو كان نبياً فلماذا لم يأت بما يحقق وقوع الإيمان منهم والاستجابه العمليه، فأجابتهم الآيه بأنّ المسؤوليه والوظيفه الملقاه على الأنبياء هى البشاره والنداره، وهى الإبلاغ والبلاغ، كما فى قوله تعالى: (وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) (١).

وقوله تعالى: (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) (٢)، وقوله تعالى:

(فَهَبْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) (٣)، وغيرها من الآيات العديده التى تبين أنّ وظيفه النبوه هى الإبلاغ والبلاغ لا الإتيان بما يحقق وقوع الهدايه الموصله إلى المطلوب.

وبعبارة اخرى: هناك فرق بين البيان الواضح المسمى بالبلاغ المبين، وهو الإراءه للطريق الواضح، وبين المجيء والإتيان بما يجذب العبد إلى سلوك طريق الحق، والثانى من وظائف الإمام، وهذا الاعتراض على الأنبياء كثير من أقوامهم، كما فى قوم عاد وشعيب وثمود ولوط، وكانت إجاباتهم عليهم السلام أنّ وظيفه الأنبياء هو البشاره والنداره والبلاغ المبين، ومن ثمّ قد تعرّف النبوه أنّها بمثابه

ص: ٢٨٥

١- (١) النور ٥٤:٢٤. العنكبوت ١٨:٢٩.

٢- (٢) النحل ٨٢:١٦.

٣- (٣) النحل ٣٥:١٦.

العقل النظرى فى باطن روح الإنسان ممّا يرى المطلوب بنحو تجرّيدى من دون جذب نفسانى بخلاف الإمام، فإنّه بمثابة قوّه العقل العملى، حيث أنّ هذه القوّه فى الإنسان تمارس التأثير والجذب على إرادته الإنسان لكن من دون جبر بل يحفظ معها الاختيار أى تهيئه أطفاف فى النفس جاذبه نحو الخير، كما ورد فى رواياتهم عليهم السلام: «إنّ لنور الإمام فى قلوب المؤمنين أنور من الشمس المضيئه فى النار، وهم والله ينورون قلوب المؤمنين، ويحجب الله عزّ وجلّ نورهم عمّن يشاء فتظلم قلوبهم»^(١).

ثمّ إنّ إسناد الإرسال إلى مقام الشهاده على الأعمال، أى أنّه أرسل صلى الله عليه وآله ليكون شاهداً على الأعمال، فإنّ هذا الإسناد يتضمّن أنّ الإمامه ممّا يتعلّق بها الإرسال، والحال أنّ المرسل هو النّبى لا الإمام، فكيف يفسّر هذا الإسناد؟

والإجابة عن ذلك بأنّه قد تعلّق الإرسال بالإمامه أو شعبها أيضاً فى قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا) ^(٢)، فتعلّقت البعثه بالإمامه التى عبّر عنها بالملك، إذ قد اصطفاه الله وزاده بسطه فى العلم، وجعل لملك تدبيره آيه، وهى (أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَيَكِينٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ) ^(٣).

فالإرسال والبعثه تتعلّق بكلّ من النّبوه والولاية التى أحد درجاتها العليا الإمامه، والظاهر أنّ لفظ المرسل وصف وعنوان ومقام للنّبى بما يتمتّع من مقام وشؤون الولاية، ويشير إلى ذلك قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ

ص: ٢٨٤

١- (١) الكافى: ١: ١٩٤، باب أنّ الأئمّه نور الله عزّ وجلّ.

٢- (٢) البقره ٢: ٢٤٧.

٣- (٣) البقره ٢: ٢٤٨.

يَاذُنِ اللَّهِ (١)، ومن الواضح أنّ الطاعة ترتبط بمقام الولاية والإمامه.

واستعمل الإرسال في القرآن الكريم لمطلق المأموريّه والوظيفه والمهمّه التي يندب إليها من يصطفيه الله لتلك، كما في قوله تعالى: (اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ) (٢).

وكما في قوله تعالى: (بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُمُونَ) (٣)، ومثلها: (إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُمُونَ مَا تَمْكُرُونَ) (٤).

وكقوله تعالى: (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ) (٥)، ومثلها: (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ تَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ) (٦)، مع أنّ ما أمر به الملائكة كرسل في هذه الآيات ليس إبلاغ الرساله، بل القيام بمهمّه ومأموريّه.

نعم، أحد موارد الرساله هو إبلاغ الشريعه، فيطلق على الشريعه الرساله، لأنّ بعض الأنبياء يُندبون لتبليغها وإن لم يكن كلّ نبي مرسل صاحب شريعه، ومن ذلك يتبين أنّ المهمّه والمأموريّه التي يتدب إليها الأنبياء متفاوتة، كما أنّ الحال في شؤون الولاية ودرجاتها متفاوتة، ففي شأن النبيّ يونس عليه السلام قوله تعالى:

(وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ) (٧)، مع أنّه لم يكن صاحب شريعه.

ص: ٢٨٧

١- (١) النساء ٤: ٦٤.

٢- (٢) الحج ٢٢: ٧٥.

٣- (٣) الزخرف ٤٣: ٨٠.

٤- (٤) يونس ١٠: ٢١.

٥- (٥) الأنعام ٦: ٦١.

٦- (٦) الأعراف ٧: ٣٧.

٧- (٧) الصافات ٣٧: ١٤٧.

وأما ما فى قوله تعالى: (وَ مَا نُزِّلَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ) (١)، ومثلها: (وَ مَا نُزِّلَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ) (٢)، فلا يتوهم تدافعها مع عموم موارد رساله الذى مرّ فى الآيات السابقه، لأنّ الحصر إضافى وليس مطلقاً، أى أنّ الآيتين فى صدد بيان أحد غايات رساله، وهى إقامة الحجة على العباد، وليس الإلجاء التكوينى على الهدايه كما هو واضح من سياق الآيات التى وقعت فيها الآيتان فى سوره الأنعام والكهف.

ومن ثمّ يدفع ما توهمه جملة من الكُتّاب فى الثقافه الإسلاميه من توهم حصر مقام الرسول صلى الله عليه وآله وصلاحيته وشؤونه فى الدعوه إلى دين الله فقط من دون صلاحيته إقامة نظام الحكم السياسى والقضائى.

كما استدلّوا بقوله تعالى أيضاً فى سوره الغاشيه: (فَدَكَّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُدَكَّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ) (٣)، وإلّا فإنّ أوامر إقامة الحكم والقضاء وجهاد المعتدين والظالمين وجبايه الضرائب وغيرها من أنشطه الدوله قد امر بإقامتها النبى صلى الله عليه وآله والتفطن بجهه الكلام وسياقته من الضروريات البالغه الأهميه فى عالم دلالة الألفاظ.

ص: ٢٨٨

١- (١) الأنعام ٤: ٤٨.

٢- (٢) الكهف ١٨: ٥٦.

٣- (٣) الغاشيه ٨٨: ٢١ و ٢٢.

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (١)

فقد روى ابن بابويه فى كتاب «الإمامه والتبصره»: عن محمد بن موسى، عن محمد بن قتيبه، عن مؤدب كان لأبى جعفر عليه السلام أنه قال: «كان بين يديّ يوماً يقرأ اللوح إذ رمى اللوح من يده وقام فرعاً وهو يقول: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، مضى (والله) أبى (عليه السلام).

فقلت: من أين علمت؟

فقال: دخلنى من إجلال الله وعظمته شىء لم أعهده.

فقلت: وقدمضى؟

فقال: دع عنك ذا. ائذن لى أن أدخل البيت وأخرج إليك واستعرضنى أى القرآن شئت، أفى لك بحفظه.

فدخل البيت فقمتم ودخلت فى طلبه إشفافاً منى عليه، فسألت عنه، فقيل:

دخل هذا البيت وردّ الباب دونه، وقال: لا تؤذنوا علىّ أحداً حتّى أخرج إليكم، فخرج معبراً وهو يقول: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، مضى والله أبى.

ص: ٢٩١

فقلت: جعلت فداك، وقد مضى؟

فقال: نعم، وليت غسله وتكفينه وما كان ذلك ليلى منه غيرى.

ثم قال لي: دَعْ عنك هذا، استعرضنى أى القرآن شئت، أفدك بحفظه.

فقلت: الأعراف، فاستعاذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم قرأ:

(وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ) (١)

فقلت: (المص).

فقال: هذا أوّل السوره، وهذا ناسخ وهذا منسوخ، وهذا محكم وهذا متشابه، وهذا خاصّ وهذا عامّ، وهذا ما غلط به الكتاب، وهذا ما اشتبه على الناس» (٢).

ورواه الصّفّار فى «البصائر»، إلّا أنّه لم يرو الذيل، وذكر أنّ المؤدّب كان أبا زكريّا وروى هذه القضيّه عن أبى الحسن الهادى عليه السلام، والراوى عن المؤدّب رجل كان رضيع أبى جعفر عليه السلام (٣).

وعلى أىّ تقدير، يستفاد من الروايه أنّ القاعده فى ترتيب آى القرآن الكريم، أن يتقدّم الناسخ على المنسوخ، والمحكم على المتشابه، والخاصّ على العامّ، وأنّ الترتيب الموجود فى آى السور ليس كما هو المقرّر شرعاً فى جمع المصحف، وأنّ ابتداء سوره الأعراف هو الآيه التى قرأها الإمام عليه السلام.

ص: ٢٩٢

١- (١) الأعراف ٧: ١٧١.

٢- (٢) الإمامه والتبصره: ٨٥، الحديث ٧٤.

٣- (٣) بصائر الدرجات: ٤٨٧، الحديث ٢.

إنَّ من الشُّبه المثاره، تاريخيّه القرآن الكريم، ويقصدون بذلك أنّ نور الوحي الإلهيِّ وإن كان فوق الزمان والمكان من عالم النور المحيط بالأزمنه والأمكنه، إلّا أنّه عندما يتنزل، يتأرّخ ببيئه النزول ويتلوّن بالموارد والحوادث التي هي محالّ انطباقه، فيأخذ أحكامها، فيتحدّد ويتضيق ويتخصّص أحكام وعلاجات وعادات وقيم بيئه النزول زماناً ومكاناً، فلا يتناسب مع بيئه الانتشار في بُعد المكاني أو في عمود الزمان.

فالقالب الوحياني ينفعل بخصوصيّه المتلقّي، ومن ثمّ عبّر بعضهم (الحداثويين الغربيين، والفلاسفه الألسنيين) بأنّ النبوه تجربه بشريّه، أو قد يصيغون الإشكال بصيغه اخرى، وهو أنّ منبع الوحي الإلهي لا-متناهي، بينما النبيّ فرد بشريّ محدود في تلقيه وخصائصه، كما أنّه يعيش في بيئه خاصّه متركبه هويته منها ذهنياً وروحياً وصفاتياً، ومن ثمّ فينطبع الوحي الذي يتلقاه بخصائص ذلك الفرد، وأنّ التاريخانيّه من مقومات الفرد البشريّ.

وقد تصاغ الشبهه بصياغه اخرى: أنّ الحوادث الواقعه في مدّه نزول القرآن مهما تعدّدت، فهي محدوده لا تغطّي ولا تعمّ كلّ البيئات البشريّه، زماناً ومكاناً، بل تظللّ بيئه محدوده، ونزول القرآن كان يتقيّد بحسب تلك الحوادث المحدوده، فكلّما استجدّت حادثه نزل منه بعض الآي والسور، ولو قدر أنّ سيّد الأنبياء صلى الله عليه وآله عاش أكثر أو ضعف ما عاش، لربّما شاهدنا ضعف المصحف الشريف هذا اليوم، ومن ثمّ زعم أنّ النبوه تجربه، فإنّ تلك الحوادث الواقعه كموارد وأسباب للنزول هي وليده حركه تاريخيّه لعينه من أفراد البشر، فلا-تعمّ حركه الإنسان المتنوّعه في البقاع الأخرى والأزمنه اللاحقه، فبيئه النزول هي مجموع عادات

وقيم محدوده، فالمعالجات القرآنيه بلحاظها هي أيضاً كذلك، فتتغير العادات والأعراف المنتشره في الحضارات المستجده الأخرى، وفرق بين النصّ المحدود وبين النصّ المنفتح على ما لا ينحصر من الموارد.

وللإجابة على هذه الوهميه.

عموميه موارد أسباب النزول

الأولى: إنّ موارد نزول القرآن لم تنحصر بالوقائع الحادثه في الثلاثه والعشرين سنه من بعثه النبيّ صلى الله عليه وآله ولا اختصت ببيئه العرب أو قريش في ذلك الزمان، بل موارد النزول وبيئته قد شملت كلّ الماضي من لدن آدم حتّى بعثه الرسول، كما شملت موارد وبيئات تنبئ بها من بعد وفاه الرسول صلى الله عليه وآله إلى انتهاء الدنيا، فتعزّض إلى أخطر المنعطفات الماضيه التي مرّ وسوف يمرّ بها البشر، وعالجها بمنتهى التفصيل والحكمه، بل قد تجاوز ما مضى وما هو مستقبليّ في دار الدنيا، وتعزّض على عوالم ودور مرّ بها الإنسان أو الخلقه والمخلوقات من عوالم ونشآت سابقه، كعالم الذرّ والأرحام والأصلاب والأرواح وعالم النور، وكذلك نشآت لاحقه لدار الدنيا، كعالم البرزخ والحشر والنشر والقيامه والجنّه والنار والصراط، عوالم الملائكه والجنّ، وأخبار أهل كلّ سماء من السبع.

وبالجملة: فيه تبيان كلّ شيء، ومن الأمور المبيّنه في الكتاب مرحله الرجعه والحقائق الكونيه، وبالجملة ففيه تبيان كلّ شيء، إلّمأنه سيأتي أنّ المستخرج ذلك كلّه من القرآن ليس في قدره البشر، وإنّما هي مخصوصه بمن هم عمّدل القرآن من العتره الطاهره من أهل البيت عليهم السلام، وفي الحقيقه أنّ هذه الشبهه بمشابه البرهان على ضروره وجودهم واضطرار البشر واحتياجهم إلى العتره.

وقد تعرّض القرآن الكريم لتصحيح جملة من المحاور العامه في مسيره

البشر، والتي حرّفت صورته النقل لدى الأجيال المتأخّره عن حقائق أحداثها، فمن ثم اشتمل القرآن الكريم على تصحيح جملة ممّا زيف من قصص التاريخ في التوراه والإنجيل المحرّفين، كما اشتمل على إخبارات ممّا مضى لم توجد في التاريخ، ولذلك روى عن النبي صلى الله عليه وآله من ملاحم ونبوّات مستقبلية لتفسير إشارات قرآنيه عن تلك الحوادث المستقبلية، هو من الاستعراض الجم، وفيه تفاصيل عن الأحداث بالدقه.

أمومه مرجعيه القرآن وشموليته

الثانيه: أنّه قد تقرّر في البحث العقلي ونظام العلوم، وجود قضايا كليّه محيطه بكلّ الجزئيات والبيئات المتغيره، وتلك القضايا العامه الكليّه هي الجانب الثابت التي تنقب الأبحاث والمسيره في العلوم عنها، سواء في العلوم التجريبيه الطبيعيه والعلوم الإنسانيه، كعلم القانون والحقوق وعلم النفس والأخلاق والاجتماع أو غيرها، أو أنظمه العلوم الصناعيه والمهنيه والفنيه والتقنيه وغيرها من نظومات العلوم، ويرسم لذلك برهان، وهو كالتالي:

إنّه لو افترضنا تعاقب المسيره العلميه وقوافل البحث العلمى في العلوم جيلاً بعد جيل، فإنّ الجيل الأخير من هذه النشأه الدينويّه والتي نفترض أنّه تقوم عليه القيامه، يكون قد اكتسب مخزون العلوم والمعلومات التي سبقته في الأجيال كلّها، وهذا المخزون الذي ورثه واكتسبه ينتظم ضمن مجموعه من الكليات هي بمثابة القواعد الأمّ في كلّ علم، وتكون تلك القواعد شامله للبيئات التي مرّت بها البشريّه أجمع، إذ المفروض أنّها في كلياتها وعموماتها هي الجانب والعنصر المشترك المستخلص من كلّ تلك البيئات، فلا تشدّ عنها بيئه من البيئات ولا حادثه من الحوادث، ولا زمن من الأزمنه، فإذا تقرّر وجود تلك القواعد

والمعادلات والقوانين الكليّة، وأنّه بإمكان أحد الأجيال البشريّة إدراكه والوصول إليه، فكيف لا- يكون ذلك في قدره خالق البشر أن يصطفى ويختار فرد بشريّ هو سيّد الأنبياء وسيّد البشر.

وأرقى ما يمكن أن تكون عليه طبيعته البشريّة وغير طبيعته البشريّة أن يتتجه ويوحى إليه بتلك العلوم والمعلومات والتي تتجاوز محدوده بيئته الزمانيّة إلى بيئات سابقه منذ صدر البشريّة وإلى بيئات لاحقه، بل إنّ العقل يدرك أنّ هذا اللطف والعنايه والرحمه ضروره صدورها عن البارى للطفه بخلقه، إذ أنّ البشر في منتصف الطريق لا يمكنهم أن يصلوا بأنفسهم إلى ما عليه واقع الأشياء في مختلف المجالات من حقائق، ولذلك في أنّ في وجدان كلّ فرد بشريّ أنّ المسيره العلميه وقافله التحقيق لا يمكن أن تقف في يوم ما عند حدّ معيّن، وتقع بما اكتشفته من حقائق، بل مسيره العلم متواصله بحثاً وتنقيحاً للوقوف على المجهول ليصبح معلوماً.

وهذا ممّا يقضى بكون الحقائق لا متناهيّه، ولن يقدر للأجيال البشريّة وحتى الأخير منها في النشأه الدنيويّه، ليس بمقدوره أن يحيط بكلّ حقائق الأشياء والقوانين والمعادلات التي تحكم على الواقعيّات.

فمن ثمّ هذا برهان علميّ وعقليّ على ضروره الحاجه إلى هدايه السماء، وأنّ البشريّة ليس بإمكانها مهما تواصل البحث والتنقيب والاختبار العلميّ، أن تصل إلى الإحاطه بالقواعد والمعادلات على حقائق الأشياء، فمن ثمّ تضطرّ البشريّة في مسيره التكامل والكمال أن تلتجئ إلى منبع آخر للعلم وهو الوحي الرّبانيّ.

فهذه الشبهه هي برهان على ضروره النبوه، وضروره وجود الوصيّ من

بعد النبي صلى الله عليه وآله.

ويمكن صياغته هذا البرهان ببيان آخر، وهو أنّ النزعة الفطريّة الموجودة لدى البشر في مواصلة البحث والتنقيب العلميّ هو لأجل الوصول إلى قواعد عامّة ثابتة شاملة للمتغيّرات وتحكم بها الجزئيات، فنزعة البحث العلميّ أدلّ شاهد على إيمان البشر بالبداية على وجود تلك القواعد، وسعيه الحثيث للوصول إليها، كما أنّ هناك نزعة أخرى ذاتية للبشر، وهي إيمانه وقناعته باستمرار مسيرته العلميّة أبد الأبد، وهذا يكشف عن دواء قصور قدره البشريّ عن الإحاطة بالواقع مع أنّ هاتين النزعتين برهان لوجود الحقائق، وأنّ صفه تلك الحقائق لا محدوده وغير منقطعه عند حدّ، وإلّا لوقف مسير السير العلميّ في يومٍ ما.

وهذا ما يكذّبه وجدان البشر، فمن ثمّ هناك اضطرار إلى الهداية السماويّة في اكتشاف هذه الحقيقة اللا محدوده، وكيفيّة التعامل معها، ومن ثمّ جاء في النصوص أنّ مبدأ كلّ علم هم الأنبياء والأوصياء، ولك أن تتمثّل في العلوم الأخرى، فإنّ علم الرياضيات - مثلاً - بما فيه من بديهيات هي كفيّله لحلّ كلّ مجهولات الرقميّة في مقادير أبعاد الكون وإن كان الوصول إلى تلك الحلول والنتائج ليس في قدره البشر العادي، مع أنّ الأجوبة مطويّة طيّاً في بديهيات ذلك العلم بحيث لا يشدّ عنها أي متغيّر بيئيّ في الظواهر الكونيّة، فعموميّة تلك البديهيات الشاملة لكلّ متغيّر أمر وشأن، والقدره على استخراج كلّ المتغيّرات منها أمر وشأن آخر.

وعجز البشر عن استخراج تلك القواعد من البديهيات لا يستلزم نفى وجود تلك القواعد وقابليتها على الحلّ والإجابة على كلّ المسائل، بل هذه الظاهره

ص: ٢٩٧

تدلّ على ضروره وجود فرد بشرى مزود بالعنايه الإلهيه واللطف الربانيّ قادر على استنطاق هذه المعلومات من البديهيّات الرياضيه، فخلق الباري لمثل هذا النظام المعادليّ الرياضيّ لا تتمّ حكمته وكماله إلاّ بخلق فرد بشرى قادر على تفعيل هذا الرأس المال المذخور، وإلاّ لكان معطلاً وهباءً منثور، ذلك الفرد البشريّ الذي يتمتّع بعلم لدنيّ منه تعالى غير مكتسب، وليس هذا شأن علم الرياضيات فحسب، بل العلوم الطبيعيه كذلك، كعلم الفيزياء والكيمياء والأحياء وبقية العلوم الإنسانيّه والتقنيه والفنيه والمهنيه والعلوم النظميه وبقية العلوم كلّها مستنبطه ومنطويه على قواعد كفيله بالكمال الأرقى المنشود للبشريّه الذي لا يخترمه أى فساد ولا يعاوقه أى عقبه ممانعه، إلّا أنّ القدره البشريّه على استخراج هذه الكنوز من تلك العلوم غير متوفّره بنحو دفعيّ راهن إلّا عند فرد بشرى أعدّه الله ووفّر فيه القدره على ذلك، فرساميل بديهيّات العلوم ليس فيها إغواز كفيل بازدهار ورقىّ البشريّه، وإنّما العجز والضعف فى عموم البشريّه، فلا محاله تقتضى الحكمة الباهره المودعه فى الخلقه الكوتيّه وجود إنسان كامل مزود بعلم وعلوم إحاطيه بذلك تفعل وتنشط وتستثمر هذه الأنظمه من العلوم فى الظواهر الكوتيّه.

فيتبين أنّ فى القرآن التنزيلىّ، والقرآن الكونىّ أى الكون بما اودع فيه من محكمات القواعد، كلّ منهما يهتف بضروره وجود إنسان كامل قادر على استنطاق واستنباط تلك الأنظمه والقواعد من العلوم الشامله والمؤدّيه إلى سعادته البشرى، فالعجز والنقص ليس فى القرآن التدوينىّ ولا القرآن الكونىّ، ولا فى الفرد الكامل، وإنّما فى سائر البشرى، وألصق ذلك العجز الذى من وصف البشر بالتقلين، أى أنّ العجز الذى فيهم نظروا به إلى القرآن وما يحيط بهم من نظام الكون.

ثالثاً: استمرار نزول القرآن الكريم إلى يوم القيامة في كل عام بلحاظ تأويله لما في قوله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَ مَا أَذْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ تَنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ وَ الرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطَلَعِ الْفَجْرِ)

وقوله تعالى: (حم وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلِهِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (١).

وقوله تعالى: (يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ) (٢).

وقوله تعالى: (يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) (٣).

وغيرها من الآيات في السور المرتبطة بليه القدر التي هي ليه نزول القرآن، ومن ثم ربط في سورة القدر سورة الدخان بين نزول القرآن وما يتنزل في ليه القدر من تقدير كل شيء.

وقد بين في سورة الدخان أن هذه التقادير والمقادير للأمور المتنزلة هي المقررة ثبوتها في الكتاب المبين، كما في قوله تعالى: (وَ مَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَا فِي السَّمَاءِ وَ لَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَ لَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي

ص: ٢٩٩

١- (١) الدخان ١:٤٤-٧.

٢- (٢) النحل ١:١٦.

٣- (٣) غافر ١٥:٤٠.

وقوله تعالى: (وَ مَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) (٢)، وغيرها من الآيات التي تبين أنّ الأمور كلّها قبل وقوعها في العين والخارج مقدّره ومقرّره، تقديرها في الكتاب المبين، سواء كان ذلك الأمر يقع في السماوات أو يقع في الأرض، والكتاب المبين منزله من المنازل العلويّة الغيبيّة للقرآن الكريم.

وقد ثبت بضروره الآيات والروايات عند الفريقين أنّ تقدير ومقادير الأمور لا زال ينتزل في كلّ عام ليله القدر، وهذا تنزل من الكتاب المبين بنصّ سورة الدخان، فما ينتزل من القرآن من تأويل ومقادير وحقائق لم ينضب قطّ، فما توهم من ارتفاع القرآن وانقطاعه لا مجال له، بل في روايات أهل البيت عليهم السلام أنّ تنزلات القرآن في كلّ ليله جمعه، بل في كلّ ليله، بل في كلّ آن، وهو مطابق لما في سورة غافر وسورة النحل من إطلاق النزول والتنزيل من دون تقييده بليله القدر.

ومما يشير إلى استمرار تنزل حقائق القرآن وتأويله وفيوضات علومه، ما في قوله تعالى: (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) (٣) الدالّ على أنّ المطهرين من هذه الأمّة وهم أهل البيت عليهم السلام يمسّون المنزله الغيبيّ في القرآن المحفوظه عن تناول الجميع في كُنْ مكنون، (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ) (٤).

ص: ٣٠٠

١- (١) يونس ١٠: ٦١.

٢- (٢) النمل ٢٧: ٧٥.

٣- (٣) الواقعة ٥٦: ٧٥-٧٩.

٤- (٤) البروج ٨٥: ٢١ و ٢٢.

وبعبارة اخرى: أن القرآن الكريم قد نعت نفسه بأن له منازل علويه غيبه فيها تبيان كل شىء، نظير قوله تعالى: (يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) (١)، وهذه العلوم الجمه المحيطه لا زالت تنزل على الذى اصطفاه الله من عباده ممن قد ورث الكتاب من النبى الأعظم إذ ينزل عليه من فيوضات سيد الأنبياء.

تكرار أو تكرّر السنن التاريخيه

رابعاً: إنّ من القواعد التى باتت ثابتة فى العلوم الاجتماعيه والإنسانيه تكرر السنن والظواهر فى المجتمعات البشريه، فالبلدان والأزمنه والبيئات والقوميات وإن اختلفت، إلّا أنّ الطبيعه البشريه فى البعد الفردى والأسرى والروحى والبدنى والاجتماعى تظلّ متّحده، ومن ثمّ تكون تداعياتها ورسوم أفعالها ذات صوره متشابهه، فتشاهد أنّ النزعات والمذاهب والاتجاهات وإن اختلفت أسماءها، إلّا أنّها ذات مغزى واحد كما فى قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْ لَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) (٢).

وكقوله تعالى: (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ) (٣).

ص: ٣٠١

١- (١) الرعد ١٣:٣٩.

٢- (٢) البقره ٢:١١٨.

٣- (٣) آل عمران ٣:١٣٧.

فإن الاعتبار بالسنن التاريخيه إنما هو لتفادى الوقوع فى الأخطاء السابقه عند تكرّر الظواهر التاريخيه فى المجتمعات البشرّيه، وهذا هو مغزى علم التاريخ الذى هو من أقدم علوم البشرّيه.

ومن ثمّ تكرّر توسيط القرآن بالنظر إلى ما آلت إليه الأمم السابقه وعواقب امورهم، ومثله قوله تعالى: فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتِ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا أَمْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ (١).

ومن ثمّ لم يقتصر القرآن كما مرّ فى الأجوبه السابقه على استعراض بيئه مكه والمدينه، وإنما توسّع لكلّ الأحداث التاريخيه منذ نشأه البشرّيه، ومن ثمّ زالت المدارس القانونيه والحقوقيه البشرّيه تدرس وتتدارس القوانين الغابره فى الأمم السابقه، كمسلّه حمورابى، والقانون الرومانى القديم، واليونانى فى عهد ما قبل الميلاد.

وكذلك شأن أصحاب العلوم الإنسانيه طرّاً، كعلم الأخلاق وعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم التاريخ وعلوم الأدب والثقافه، وما شابه ذلك، وليس ذلك إلا لما تقدّمت الإشارة إليه.

فما استند إليه فى الوهم من إيراد وطعن هو دعم وتشديد، بل إنّنا نشاهد تأثير التاريخ ليس على العلوم الإنسانيه فحسب، بل على العلوم النظميه المرتبطه بمنظومات النظم كالعلوم الإداريه، بل وكذلك منظومه العلوم التجريبيه، فإنّ تاريخ كلّ علم بات من القواعد الهامه المؤثره على الهيكل العام له، والشبكه التنجزيه لذلك العلم، وكيفيه نموّه وتطوّره وتوسعته، فما هو الحجر الأساس

ص: ٣٠٢

فى مقالاه الإشكال هو من عمداه حجر الأساس فى دفعه، وهو ممّا ينمّ على عدم إلمام أصحاب هذه المقاله بأصول العلوم كى يتمكّنوا من مقارنتها مع الأصول العلميه فى القرآن، حيث قد قاموا بتوظيف خاطئ لبحوث الألسنيّات مع عدم مراعاة قواعد منهجيّه فى علوم اخرى تكلموا عنها بالنيابه.

البحث المنهجى فى قراءات النصّ والنصّ القرآنى

خامساً: حيث أنّ كفيته القراءه للنصّ هى الكفيله باستخراج الكليات من الجزئيات، لو سيّلم أنّ قوالب الألفاظ وتركيبات المعانى الوارده فى النصّ القرآنى فى مجال التشريع أو المجالات الأخرى جزئيه متأرخه متقيده بيئه النزول الزمانيه الخاصه ذات طابع تاريخانى؛ فإنّ للقراءه والاستنباط منهجاً وقواعد وموازين وأسساً، كما أنّ هناك علماء وعلوماً باحثه عن اصول المنهج، كعلم اصول الفقه وعلم المنطق والعلوم البلاغيه، وبعض علوم الأدب كعلم الاشتقاق، ورغم اختلاف النظريّات والأحوال فى هذه العلوم الباحثه عن قراءات النصّ، إلّا أنّها تحتكم إلى اصول مشتركه مبرهنه متفق عليها، كما أنّها منفتحه أمام أى قواعد منهجيّه تكتشف لقراءه النصّ، شريطه خضوعها لأدلّه موزونه تنتهى إلى قواعد صحيحه سديده مدلل عليها كى تكون هناك مرجعيّه يحتكم إليها الجميع، وإلّا لدبّ المنهج السفسطى فى المعرفه.

مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَ لَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١)

الإفك

الإفك كما فى «اللسان»: «الكذب العظيمه» (٢)، وهو قلب الحقيقه، كما فى (وَ الْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى) (٣) ، ائتفكت: انقلبت، كما فى «مجمع البحرين» (٤) ، أفأك: ائتحل صفه الغير لأغراض النصب والخذاع.

والإفك هو الكذب الذى قُلب فيه الأمر عن وجهه كما فى «التبيان» (٥).

ويتحصّل من هذه التعاريف: أنّ الإفك كذب من نمط ونوع خاصّ يتضمّن التزوير لأباطيل يتمّ بها قلب الواقع عن وجهه وخلق وجهٍ جديد وتدشين صوره اخرى، فليس يطمس الحقائق فحسب، بل يخلق بيئه تخيليه اخرى تعيش الوسط العامّ فى ضمن مسار آخر، ومن ثمّ فإنّ مادّه الإفك مرتبطه بالإعلام العامّ، وأنّ الإعلام من شأنه خلق بيئات وهميه وأجواء تخيليه بعيده عن الواقع.

ومورد نزول هذه الآيات هو الطعن والبهتان الذى الصق بماريه القبطيه حيث أنجبت إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وآله، وبالتالي فالأمر يرتبط بقطب رحى الدين ومركز الحاكميه والسلطه، فالتزوير استخدم ومورس بتوسط الإعلام العامّ، وهو نوع من الحرب المستهدفه للهدف بآليات تصنع الرأى العامّ وتصوغه لإباده شخصيات محوريه فى أنظمه معينه وفى أبنيه اجتماعيه، فمن ثمّ البحث فى

ص: ٣٠٨

١- (١) النور ٢٤: ١١-٢١.

٢- (٢) لسان العرب: ١٠: ٢٩١.

٣- (٣) النجم ٥٣: ٥٣.

٤- (٤) مجمع البحرين: ١: ٨١.

٥- (٥) تفسير التبيان: ٧: ٤١٤.

هذه الآيه مرتبط بالإعلام الذى يصوغ الإعلام العام على خلاف الحقائق.

ومن ثم يرتبط بهذا البحث فى هذه الآيات جمله من الآيات فى سور اخرى، المتعرضه لنفس البحث، والمبينه لخطورته، كقوله تعالى: (لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا) (١).

وكذا قوله تعالى فى هذه الآيات: (إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) (٢).

وأيضاً قوله تعالى: (وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا) (٣).

وقوله تعالى: (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسُّهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (٤).

وقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَاعُونَ

ص: ٣٠٩

١- (١) الأحزاب ٣٣: ٦٠.

٢- (٢) النور ٢٤: ١٩.

٣- (٣) النساء ٤: ٣٣.

٤- (٤) آل عمران ٣: ١٧٣-١٧٥.

لِقَوْمٍ آخِرِينَ لَمْ يَأْتَوْكَ بِحَرْفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكْثَالُونَ لِلشُّحِّ فَإِنْ جَاؤَكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَصُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (١).

وقوله تعالى: (يَبْغُونَكَمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ) (٢).

قال في «التيان»: «والإرجاف: إشاعه الباطل للاغتمام به، والمرجعون هم الذين كانوا يطرحون الأخبار الكاذبه، ويشغلون به قلوب المؤمنين» (٣)، وهو ما يعرف حالياً بالحرب النفسيه.

وفي «اللسان»: «الرجفان: الاضطراب الشديد» (٤)، وهذا وصف لإشاعه الأخبار والإذاعه وخطوره تأثيرها بأنها توجب الاضطراب في المجتمع، ومن ثم تهدد الله عز وجل المرجفين وتوعدهم، وذكر أن حكمهم، النفي عن مجاوره النبي، ممّا يعنى انقطاع التعايش معهم مدنياً. والإرجاف وصف ثانٍ في القرآن لإشاعه الأخبار والإعلام.

والوصف الثالث إشاعه الفاحشه، فإن هذا تأثير ثالث لإذاعه الأخبار السامه، وهو أثر تربوي على سلوك المجتمع ويوجب بزوغ وتولد ظواهر سلوكيه في المجتمع، وأنه له بالغ التأثير في ذلك، ومن ثم توعد الله تعالى على ذلك بالعذاب

ص: ٣١٠

١- (١) المائده ٤١:٥ و ٤٢.

٢- (٢) التوبه ٩:٤٧.

٣- (٣) تفسير التيان: ٨:٣٥٩.

٤- (٤) لسان العرب: ٩:١١٢.

الأليم العاجل فى الدنيا فضلاً عن الآخرة.

والوصف الرابع: تأثيره على الأمن الاجتماعى فى كافة مجالاته، ومن المجرّب فى تاريخ شعوب البشر أنّ الأمم والشعوب ربّما تصاب بهزائم ونكسات من جرّاء إشاعه الأخبار السلبىة وإن كانت صادقه، فضلاً عن أن تكون مزوّره، ومن ذلك يعلم مدى المسؤولىة الكبىره فى نشر الخبر وإفشائه، وأنّ عملىة الإذاعه والنشر فعل بالغ التأثير فى أوضاع المجتمع البشرى، وأنّ الإقدام علىه يتضمّن مسؤولىة وآثاراً كبرىه جداً.

ومما يتّصل بهذا الوصف ويقاربه أو بالذى قبله، الإرعاب والإخافه، وقوله تعالى: (لَتَبْلُوَنَّ فى أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَ لَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) (١).

والوصف الخامس: كون الإعلام يوجب الفتنة وهى الاضطراب والإرباك، وتدخل فىها معانى عديده فى مجالات عديده يجمعها موارد الفتنة.

ثمّ إنّ ما فى سوره المائده والتوبه بيان للمسؤولىة والوظيفة بعد وقوع الإشاعه، كما فى قوله تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) (٢).

المسؤولىة تجاه الإشاعه وإعلام السوء

ومفاد السور الثلاث (المائده والبراءه والحجرات) لزوم التثبت أمام الإشاعات

ص: ٣١١

١- (١) آل عمران ٣: ١٨٦.

٢- (٢) الحجرات ٧: ٤٩.

والأخبار، وعدم المسارعة إلى تصديقها، وعدم الاسترسال لمتابعتها، بل التّبين والتّثبت والتحرّي عن صدقها، وهذا ما تفيده آيات النور أيضاً، حيث تتعرّض الآيات فيها إلى المصدر الذي تولّد منه الخبر الكاذب بحياكه قلبه عمّا هو عليه من الواقع، كما تبين أنّ مقدار إسهام عصابه الإفك والزور في ذلك قد يختلف، كما أنّ الآيات تبين مدى خطوره تأثيرها على المجتمع نفسه، وأنّه شرّ يحيق به.

ومن ثمّ تبين أنّ الظنّ (بخلاف ما عليه الإشاعة السيئة)، هو ظنّ من المؤمنين بأنفسهم خيراً، أي أنّه يعود عليهم بالخير، بخلاف تصديق الإشاعة، فإنّه عامل سوء وشرّ للمجتمع نفسه، مع أنّ أفراد المجتمع عندما يتلقون الإشاعة لا يتبهنون إلى ارتباطها بهم، بل يقفون أمامها وقوف المتفرّج، بل يسعون في توسّعها وانتشارها وحدّتها بخوضهم فيها.

ومن ثمّ تؤكد الآيات على خطوره الإسهام في الإشاعات ودعمها عبر تلقّيها وإثارتها بالألسن والأفواه، وأنّ هذا الخوض اللساني هو تضامن داعم للإشاعة ومشاركه وإسهام فيها، ومن ثمّ يعبر عن ذلك بأنّه تلقّى للإفك باللسان وهو نمط من الترحاب والاحتضان، وهو قبول له ومشايعة، مع أنّ أفراد المجتمع يحسبون أنّ ذلك حياد ومجرّد استطلاع، ومن ثمّ عبرت الآية بالقول: (وَ تَحْسِبُونَهُ هَيِّئًا) (١)، مع أنّه إسهام عظيم في دعم الإشاعة وإيصال تأثيرها، ومن ثمّ عبرت (وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ).

وبيّنت الآية أنّ موقف الحياد هو بعدم التكلّم والتنزّه عن الخوض لساناً فيه لأنّ مجرّد فسح المجال له بالتناقل لساناً هو تبني له، ومن ثمّ ورد في الروايات الآتية أنّ الفرد قد يُسهّم في قتل الإنسان بما ينقله من أخبار عن ذلك الفرد فتصل

ص: ٣١٢

إلى السلطان الغاشم فيبادر إلى قتله فيكون للناقل بلسانه ذلك الخبر نصيب في قتل الإنسان.

ومن ذلك يعرف أنّ المشاركه في تناقل الأخبار هي مشاركه في بناء تلك التهم وإصاقها بالأبرياء، ثم لا تكتفى الآيات بذلك وتبين أنّ مجرد هذا الخوض (الذى يحسبه أفراد المجتمع موقف برىء) جزاؤه عذابٌ عظيم عاجل في الدنيا قبل الآخرة، وكل ذلك للتشدد في النهي عن ذلك.

وكذلك قوله تعالى: (يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (١).

وكذلك توعيد الذين يحبون إشاعه الفاحشه بأن لهم عذاب عظيم في الدنيا قبل الآخرة، وجعل الانخراط في الإشاعه بتناقلها ثم بثها ممّا يترتب عليه الإفشاء، هو من اتباع خطوات الشيطان، وأنه بالتالى ترويج للفحشاء والمنكر، وأنه لولا فضل الله لشاعت الفاحشه والمنكر في بيئه المؤمنين، فما يزكو منهم أحد أبداً، وهذا ممّا يبين صعوبه أو امتناع ضبط الإشاعات السيئه، وأن منافذ انتشارها وجريان انتشار أواجها في المجتمع كثيره جداً، وهذا ممّا يبين خطوره الإعلام وشده تأثر البيئه الاجتماعيه به، وأنه من العوامل الكبرى المؤثره في تربيته المجتمع، وأنه إمّا إلى الحضيض، وإمّا إلى التعالى، وأن الدين الحنيف يولى أهميه فائقه للسطح الظاهر من البيئه الاجتماعيه، ومن ثم وضع الحدود والتعزيرات بما يطفح من الفحشاء في السطح الظاهر بتوسط الشهادات الأربع، لأن ظهورها وبروزها إلى ذلك السطح ممّا يوجب شيوعها، وأن السطح الظاهر من البيئه الاجتماعيه بالغه التأثير في أفراد المجتمع، وهي تعرف في علم الاجتماع بالسلوك الجمعى والأخلاق الاجتماعيه التى يتحرك الأفراد فيها

ص: ٣١٣

ويسبحون في وسطها تلقائياً.

فمع أهميته هذا الوسط، ومع أنّ الشريعة قد حصّته بإقرار عقوبات الحدود والتعزيرات وقاياه له، إلّا أنّ إشاعه الأخبار السيئة التي سمّاها القرآن تاره بالإفك وأخرى بالإرجاف وثالثه أنّه أمرٌ من الأمن الاجتماعي إلى غيرها من الأوصاف الأخرى، هي من العوامل النافذة التأثير في هذا الوسط البيئي الاجتماعي، ويستقرب وقوعه بسهولة وعفويته.

وفي الأحاديث تأكيد حيث على أهميته وخطوره الإعلام والإذاعة - إذاعه الأخبار - والإشاعه وتأثيراتها.

فقد روى حذيفه بن منصور، قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: شيء يقوله الناس:

عوره المؤمن على المؤمن حرام.

فقال: ليس حيث يذهبون، إنّما عنى عوره المؤمن أن يزلّ زلّه أو يتكلّم بشيء يعاب عليه فيحفظ عليه ليعيّره به يوماً ما»^(١).

وفي حديث آخر: «إنّما هو إذاعه سرّه»^(٢).

وروى البرقي عن أبي برزه، قال: «صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وآله ثمّ انصرف مسرعاً حتّى وضع يده على باب المسجد، ثمّ نادى بأعلى صوته: يا معشر من آمن بلسانه ولم يخلص الإيمان إلى قلبه، لا تتبعوا عورات المؤمنين، فإنّه من تتبع عورات المؤمنين تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته فضحه، ولو في جوف بيته»^(٣).

وعنه: بسنده عن محمد بن مسلم، قال: «سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: إنّ العبد

ص: ٣١٤

١- (١) وسائل الشيعه: ٣٧:٢، الباب ٨ من أبواب آداب الحّمّام، الحديث ١.

٢- (٢) المصدر المتقدم: الحديث ٢.

٣- (٣) المحاسن: ١٠٤:١.

يحشر يوم القيامة وما يدمى دماً، فيدفع إليه شبه المحجمه أو فوق ذلك، فيقال له:

هذا سهمك من دم فلان، فيقول: يا رب، إنك لتعلم أنك قبضتني وما سفكت دماً؟

قال: بلى، سمعت من فلان ابن فلان كذا وكذا فرويتها عنه، فنقلت عنه حتى صار إلى فلان الجبار، فقتله عليها، فهذا سهمك من دمه» (١).

روى الصدوق في «الفقيه» عن أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لابنه محمد بن الحنفية رضي الله عنه: يا بني، لا تقل ما لا تعلم، بل لا تقل كل ما تعلم، فإن الله تبارك وتعالى قد فرض على جوارحك كلها فرائض يحتج بها عليك يوم القيامة، ويسألك عنها، وذكرها ووعظها وحذرها وأدبها ولم يتركها سدى، فقال الله عز وجل: (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصِيرَ وَالْأَفْئَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئَلًا) (٢)، وقال عز وجل: (إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ) (٣).

وفي روايه إسحاق بن عمار، عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

من أذاع فاحشه كان كمتدثها» (٤).

عن محمد بن عجلان، قال: «سمعتة يقول: إن الله عير قوماً بالإذاعه فقال:

(وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ) (٥) فإياكم والإذاعه» (٦).

ص: ٣١٥

١- (١) المحاسن: ١: ١٠٥.

٢- (٢) الإسرائاء: ١٧: ٣٦.

٣- (٣) من لا يحضره الفقيه: ٢: ٦٢٦، باب الفروض على الجوارح، الحديث ٣٢١٥.

٤- (٤) المحاسن: ١: ١٠٤.

٥- (٥) النساء: ٤: ٨٣.

٦- (٦) الكافي: ٢: ٢٧٤.

روى الصدوق عن محمد بن فضيل، عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام، قال: «قلت: جعلت فداك، عن الرجل من إخواني بلغني عنه الشيء الذي أكرهه، فأسأله عنه فينكر ذلك، وقد أخبرني عنه قوم ثقات.

فقال لي: يا محمد، كذب سمعك وبصرك عن أخيك، وإن شهد عندك خمسون قسامه وقال لك قولاً فصدقه وكذبهم، ولا تدين عليه شيئاً تشينه به وتهدم به مروته، فتكون من الذين قال الله عز وجل: (إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) (١)، (٢).

وروى القمي في الموثق عن زراره، قال: «سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: لما مات إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وآله حزن عليه حزناً شديداً، فقالت عائشه: ما الذي يحزنك عليه، فما هو إلا ابن جريح، فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام وأمره بقتله، فذهب علي عليه السلام إليه ومعه السيف، وكان جريح القبطي في حائط، فضرب علي عليه السلام باب البستان فأخبر جريح ليفتح له الباب، فلما رأى علياً عليه السلام عرف في وجهه الغضب، فأدبر راجعاً ولم يفتح الباب، فوثب علي عليه السلام على الحائط، ونزل إلى البستان وأتبعه وولى جريح مدبراً، فلما خشى أن يرهقه صعد في نخله وصعد علي عليه السلام في أثره، فلما دنا منه رمى جريح بنفسه من فوق النخلة فبدت عورته، فإذا ليس له ما للرجال، ولا ما للنساء، فانصرف علي عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال له: يا رسول الله، إذا بعثتني في الأمر أكون له كالمسماز المحمي في الوبر أم أتثبت؟ قال: بل تثبت.

فقال: والذي بعثك بالحق ما له ما للرجال ولا ما للنساء.

ص: ٣١٦

١- (١) النور ٢٤: ١٩.

٢- (٢) ثواب الأعمال: ٢٤٧.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: الحمد لله الذي يصرف عنا سوء أهل البيت» (١).

روى بسنده عن عبد الله بن بكير، قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلت فداك، كان رسول الله صلى الله عليه وآله أمر بقتل القبطي وقد علم أنها قد كذبت عليه أو لم يعلم، وإنما دفع الله عن القبطي القتل بثبت علي عليه السلام.

فقال: بل كان والله عليم، ولو كانت عزيمة من رسول الله صلى الله عليه وآله ما انصرف علي عليه السلام حتى يقتله، ولكن إنما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله لترجع عن ذنبها، فما رجعت ولا اشتد عليها قتل رجل مسلم بكذبها» (٢).

وقريب منه رواه الصدوق بسنده عن عامر بن واثله عن أمير المؤمنين (٣).

ص: ٣١٧

١- (١) تفسير القمي: ٧٥:٢.

٢- (٢) تفسير القمي: ٢٩٤:٢.

٣- (٣) الخصال: ٥٦٣، الحديث ٣١.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعةً إلكترونيةً من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدةً على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات
توسيع عام لفكرة المطالعة
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات إلكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتى بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة (sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الإلكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب في طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
اصبهان
الغمامية



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

